كلية العلوم السياسية

أملية مقرر:

نظرية العلاقات الدولية

الدكتور: خالد المصري

السنة الرابعة

الفصل الأول

١٤٣٧ - ١٤٣٨هـ
٢٠١٦ - ٢٠١٧م

جامعة دمشق

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الفصل الأول

تطور الجدل النظري "المفاهيمي" في علم العلاقات الدولية

مقدمة

تشهد دراسة العلاقات الدولية هذه الأيام ثورة منهجية تتضح معالمها بعمق وتعدد المواضيع المطروحة في الحوارات بين المدارس العديدة في هذا المجال من العلوم. فالمتابع لتطور دراسة العلاقات الدولية خلال العقود الماضية لا بد له من أن يلاحظ أن علم العلاقات الدولية قد حقق تقدماً كبيراً إذا ما أخذنا بعين الاعتبار حداثة هذا العلم. فقد تأسس أول قسم لتدريس العلاقات الدولية في ويلز في بريطانيا العظمى عام ١٩١٩ بعد الحرب العالمية الأولى. ولكن سرعان ما انتشر هذا العلم وأصبح يُدرس في أغلب الجامعات في العالم. و قد أصبح لهذا العلم مجالاته المتخصصة التي فرضتها المتغيرات الدولية خلال العقود الماضية، فهناك تخصصات فرعية يتم دراستها ضمن العلاقات الدولية، مثل: المنظمات الدولية، السياسة الخارجية، الدراسات الأمنية، الاستراتيجية، حقوق الإنسان..... نهدف في هذا الكتاب إلى تقديم أهم النظريات والمداخل في مجال العلاقات الدولية للطالب. ولكن قبل ذلك لابد من توضيح بعض المفاهيم الأساسية، مثل: العلاقات الدولية، علم العلاقات الدولية، النظام الدولي، السياسة الدولية، والإجابة على بعض الأسئلة ، مثل: ما هي النظرية وهل نحتاج إلى نظرية لدراسة العلاقات الدولية ؟

تعريف العلاقات الدولية

يجب التنويه إلى ضرورة التمييز بين العلاقات الدولية كممارسات، وتفاعلات بين مجموعة الوحدات الفاعلة في النظام الدولي وعلم العلاقات الدولية كمجال بحث ودراسة. فالعلاقات الدولية كتفاعلات وممارسات قديمة قدم محاولات الإنسان لتنظيم مجتمعه في وحدات سياسية. فالدولة المدينة City State أيام الإغريق كانت تشكل الوحدة الأساسية في العلاقات الدولية، لأن كل مدينة كانت بمثابة دولة. وقد شهدت هذه المدن علاقات بينية من تعاون وصراع، و أرسلت بعثات دبلوماسية، وإن كانت هذه البعثات غير مقيمة، ولغرض محدد يتم التفاوض حوله، ومن ثم تعود البعثات إلى مدنها، وقد سُمّي هذا النوع من الدبلوماسية "بالدبلوماسية الطارئة أو المحددة" Ad Hoc Diplomacy. أما علم العلاقات الدولية فهو علم حديث النشأة ولم تتضح موضعاته و منهجيته حتي منتصف القرن العشرين. يميز أساتذة العلاقات الدولية بين السياسة الدولية

والعلاقات الدولية التي يستخدمها البعض، وكأن المفهومين يشيران إلى الشئ نفسه. في حين يشير الأول إلى العلاقات والتفاعلات السياسية بينما يشير الثاني إلى مجمل العلاقات والتفاعلات السياسية وغير السياسية، مثل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الوحدات الفاعلة في النظام الدولي. هناك عدة تعاريف للعلاقات الدولية كعلم، إذ يعرفه جون بورتون Jhon Burton على أنه" علم يهتم بالملاحظة والتحليل والتنظير من أجل التفسير و التنبؤ".[1] بينما يُعرّفه شارلز ماكليلاند Charles Mccleland بأنه " دراسة التفاعلات بين أنواع معينة من الكيانات الاجتماعية بما في ذلك دراسة الظروف الملائمة المحيطة بالتفاعلات"[2] في حين يرى بول فيوتي Paul Viotti و مارك كوبي Mark Kuppi أن علم العلاقات الدولية هو "العلم الذي يدرس العلاقات و الممارسات للوحدات الدولية"[3]

على الرغم من تعدد الآراء والتعاريف للعلاقات الدولية، وصعوبة إيجاد تعريف واحد متفق عليه إلا أن التبسيط مطلوب في مجال الدراسة. وأبسط تعريف للعلاقات الدولية هو: أن العلاقات الدولية تتضمن العلاقات و التفاعلات بين الوحدات الفاعلة في النظام الدولي[4]. ومنه يعرف علم العلاقات الدولية على أنه العلم الذي يدرس العلاقات والتفاعلات بين الوحدات و القوى الفاعلة في النظام الدولي[5].

لو دققنا بمفردات التعريف السابق لوجدنا أن هناك ثلاثة مفاهيم أساسية لفهم العلاقات الدولية

١- التفاعلات أو العلاقات بين الوحدات أو القوى الفاعلة.

٢- القوى الفاعلة في النظام الدولي.

٣- النظام الدولي.

١- التفاعلات أو العلاقات بين الوحدات أو القوى الفاعلة في النظام الدولي.

لا يمكن لأية دولة مهما كانت قوية أو ضعيفة، كبيرة أو صغيرة أن تعيش بمعزل عن محيطها. فهي بحاجة لإقامة علاقات مع الدول الأخرى، المنظمات الدولية وقوى أخرى غير

---

[1] John Burton, International Relations: A General Theory, Cambridge University, Cambridge, 1965,p.15

[2] Charles McClelland, "What is International Relations?" in Bruce Sanders and others, Contemporary International Politics: Introductory Reading, Wiley and Son inc, London, 1971, p 40

[3] Paul Viotti, Mark Kuppi, International Relations, Pearson, London, 2011, p14

[4] Karen Mingst, The Essentials of International Relations, 4ed, London, Norton, 2006, p.2

[5] Ibid P3 -

الدولة الفاعلة في النظام الدولي لتحقيق أهدافها، و حماية مصالحها، و تأخذ هذه العلاقات أشكالاً متعددة، منها:السياسية، الاقتصادية، الثقافية، الاجتماعية، وحتى العسكرية، و الأمن القومي.

٢-القوى الفاعلة في النظام الدولي

يقسم أساتذة العلاقات الدولية القوى الفاعلة في النظام الدولي إلى نوعين:

أولاً – الدولة-القومية Nation-State

ثانياً- القوى الفاعلة غير الدولة Non-State Actors ، وتشمل (المنظمات الدولية- المنظمات غير الحكومية- الشركات متعددة الجنسيات- وغيرها)

أولاً الدولة القومية: Nation State

لم يتفق علماء السياسة على تعريف موحد لمفهوم الدولة، إذ نجد لكل منهم تعريفاً خاصاً لها يختلف أو يتقاطع مع التعاريف الأخرى. فالفقية ديجي يرى جواز إطلاق الدولة على كل تنظيم للجماعة السياسية في أي مجتمع من المجتمعات، ولو كان هذا المجتمع بدائياً لتوفر وجود جماعة حاكمة، وأخرى محكومة خاضعة لأوامر الجماعة الحاكمة[6]. أما الفقيه الفرنسي كاريه دي ملير فيعرف الدولة على أنها "مجموعة من الأفراد مستقرة على إقليم معين، ولها من التنظيم ما يجعل للجماعة في مواجهة الأفراد سلطة عليا آمرة وقاهرة[7]. في حين يعرفها بعض الفقهاء على أنها مجموعة من الأفراد يقيمون إقامة دائمة على قطعة من الأرض وتتولى شؤونهم سلطة حاكمة تنظم أمورهم في الداخل والخارج[8].

مما سبق نستنتج أنه لأية وحدة سياسية حتى تدعى دولة يجب أن تستوفي ثلاثة عناصر :

الإقليم: Territory

يقصد بالإقليم كامل مساحة الارض التي تتبع للدولة ويقيم عليها مواطنوها. وتتضمن اليابسة وما فوقها، وما تحتها، بالإضافة إلى الماء. ولكل إقليم مجال جوي وهو الفضاء الجوي الذي يعلو كل أراضي الدولة وتوابعها. وتختلف الدول من حيث الحجم. فهناك دول عملاقة من حيث المساحة مثل: روسيا الاتحادية، والصين. ودول صغيرة الحجم، مثل، قطر و الكويت و البحرين. كذلك تتباين الدول من حيث الموارد، فهناك بعض الدول الغنية في الموارد

---

[6] ثروت بدوي، النظم السياسية، دار النهضة العربية، القاهرة١٩٨٢، ص٢١

[7] مرجع سابق ٢١.

[8] علي منصور، نظم الحكم والادارة، دار الفتح للنشر، بيروت ص٤٧

الطبيعية، مثل: روسيا. و دول فقيرة، في الموارد مثل: الأردن. وهذا يؤثر على قوة الدولة. ومكانتها في العلاقات الدولية.

السكان: Population

تعد الجماعة البشرية أو الفئة الاجتماعية عنصراً من عناصر الدولة. بهذا المعنى أنها الوسط الذي تتكون فيه الدولة. فالجماعة البشرية هي الوسط الاجتماعي الذي تمارس فيه سلطة الدولة. فلا دولة من دون سكان. و هناك جدل حول أهمية حجم السكان في قوة الدولة. فبينما يعتقد بعض الأكاديميين أن حجم السكان الكبير يشكل مصدر قوة للدولة، يرى فريق آخر العكس من ذلك، فالحجم الكبير للسكان يشكل عبئاً عليها. والحقيقة أن هناك دولاً كبيرةً استفادت من قوتها البشرية لدعم قوتها الإجمالية، و موقعها في العلاقات الدولية، مثل: اليابان، وفي المقابل هناك دول لديها حجم كبير من السكان، وهي فقيرة و عاجزة عن التنمية، مثل: مصر و بعض الدول الإفريقية.

السلطة والحكومة Authority or Government

العنصر الرئيس الثالث من عناصر الدولة هو السلطة أو الحكومة التي تبسط سلطتها على الإقليم، و يخضع لها السكان. والحكومة يمكن تعريفها بأنها: السلطة العليا في المجتمع. وتتألف من ثلاثة فروع: السلطة التشريعية والسلطة القضائية و السلطة التنفيذية. والسلطة هي صفة من يتولى سياسة الدولة، وينظم شؤونها، ويفصل في مشكلاتها، وقضاياها، وفي علاقات أفراد شعبها، وشؤون معاشهم، وعمرانهم، والدفاع عنهم، وفي العلاقات بينهم وبين الدول والشعوب الأخرى. والسلطات المخولة للهيئة الحاكمة يطلق عليها في عرف القانون الدولي لفظ السيادة. والسيادة في القانون الدولي لها وجهان:

الوجه الأول: السيادة الداخلية: وتعني حرية الدولة في التصرف بشؤونها الداخلية من حيث تنظيم الحكومة، و مرافقها العامة، وفرض سلطاتها على ما يوجد في أقاليمها من الأشخاص أو الأشياء من دون أن يحق لدولة أو هيئة أخرى أن تنقص من سلطاتها على الإقليم.

الوجه الثاني: السيادة الخارجية: ويقصد بها حرية الدولة في التصرف بإدارة علاقاتها من دون خضوعها في هذا الشأن لأية سلطة عليا [9]. هذا يعني أن الدول صغيرها وكبيرها متساوٍ أمام القانون. لا يحق لأية دولة أن تتدخل بشؤون دولة أخرى.

لقد أدرك الانسان أهمية السلطة منذ القدم حتى بأبسط أشكال الوحدات السياسية. والحقيقة أن ظاهرة السلطة توجد في كل الفئات الاجتماعية حيث يمكن أن تقر دائماً بوجود علاقة قوة آمر

[9] عارف خليل ابو عيد، العلاقات الخارجية في دولة الخلافة، دار الارقم، برمنجهام، ١٩٩٠، ص٢٥

بين أعضائها. لذلك فأن السلطة لايمكن أن تدرك بذاتها، وإنما بأثرها حين تمارس من قبل القابضين عليها[10]. وقد ميز الفقهاء بين شرعية السلطة و مشروعية السلطة. إذ يبين منذر الشاوي أن رضا الشعب والمواطنين على طريقة ممارسة السلطة وانتقالها، وربما مصدرها، يدور في إطار شرعية السلطة، بمعنى أن نظام الحكم يمكن أن يكون شرعياً، كما يمكن أن يكون غير شرعي بالنسبة للمرجعية الشعبية. أما المشروعية، فتدرك وتقدر بالنسبة لممارسة السلطة في إطار النظام القانوني، بتعبير آخر، فإن "دولة المشروعية"تعني أن كل تصرفات الوكلاء في الدولة يجب أن تتم وفق "القانون الوضعي"[11].

وعليه فإن ما يحكم الشرعية هي مرجعية سياسية، تكون خارج النظام القانوني، إذ تعود للأفراد وآرائهم في ممارسة السلطة من قبل الحكام. وما يحكم المشروعية هي مرجعية قانونية، بمعنى أن تقدير المشروعية يتم داخل أو ضمن النظام القانوني ووفقاً له[12].

معايير تصنيف الدول

ميز علماء السياسة بين معيارين لتصنيف الدول، هما: معيار القوة، والمعيار الاقتصادي والسياسي.

ا – معيار القوة: وحسب هذا المعيار يمكن أن نميز بين أربعة أصناف:

١– الدول العظمى: وهي الدول التي تتمتع بقوة عظيمة، ومثال ذلك: الولايات المتحدة الامريكية، والاتحاد السوفيتي خلال الحرب الباردة. أما منذ انهيار الاتحاد السوفيتي بقيت الولايات المتحدة الولة العظمى الوحيدة، لذلك يسمى النظام الدولي الحالي بأحادي القطبية. هناك عدة عوامل تجعل هذه الدول عظمى، أهم هذه العوامل: امتلاك السلاح النووي، بالإضافة إلى امتلاكها مساحات واسعة، وموارد طبيعية،و تكنولوجيا. فالولايات المتحدة مازالت في العقد الثاني من القرن الحادي و العشرين اول اقتصاد في العالم، و أقوى قوة عسكرية، و أكثر من ٦٠ % من براءات الاختراع في العالم تسجل في الولايات المتحدة الأمريكية[13].

٢– الدول الكبرى: هي مجموعة من الدول التي لديها قوة عسكرية وخاصة السلح النووي، مثل: الصين، و روسيا. وهناك من يعد اليابان و ألمانيا قوى كبرى لامتلاكهما القوة الاقتصادية.

---

[10] منذر الشاوي، فلسفة الدولة، دار ورد الاردنية، عمان، ٢٠١٢، ص ٢٩

[11] مرجع سابق، ص ٦٣

[12] مرجع سابق ص ٦٤

[13] Farid Zakria, "Why America will survive " *Foreign Affairs*, fall 2008 p. 48

٣- الدول متوسطة القوة: تتميز هذه المجموعة من الدول كونها تمتلك قوة، ولكن ليست كبيرة بحيث لايمكنها أن تلعب دوراً عالمياً ولكن قوتها تؤهلها لتأدية دور إقليمي. هناك أمثلة على هذه النوع من الدول عادة تذكر إيران، وتركيا و مصر بعهد جمال عبدالناصر.

٤- أخيراً الدول الصغرى: تضم هذه الدول غالبية الدول الفقيرة في العالم الثالث بحيث لايمكن لها لعب دور عالمي أو إقليمي، وينحسر اهتمامها بالحفاظ على استقلالها، وأمنها من أي اعتداء خارجي. وقد أشار موريس إيست السياسة الخارجية كمعيار لتحديد صفات الدولة الصغرى، و استخدم مجموعة من المؤشرات للدلالة على ذلك:

- مشاركة متدنية المستوى في شؤون العالم.
- مستويات عالية من النشاط في المنظمات القائمة بين حكومات متعددة.
- مستويات عالية من دعم القواعد القانونية الدولية.
- تجنب السلوك والسياسات التي تميل إلى عزل الأقوى في النظام الدولي.
- تجنب استخدام القوة أسلوباً لإدارة شؤون العالم.
- مجال وظيفي وجغرافي ضيق من الاهتمام بنشاطات السياسة الخارجية.[14]

الحقيقة أن هذه الميزات أو المعايير لانتفق معها، وخاصة أن هناك بعض الدول الصغيرة والضعيفة التي أصبحت تنخرط في الشؤون العالمية بشكل كبير مثل قطر وهناك دول صغيرة متقدمة مثل الدانمارك وسويسرا.

ب- المعيار الاقتصادي، السياسي، التكنولوجي

تعطي بعض نظريات العلاقات الدولية الاولوية للعوامل الاقتصادية والتكنولوجية لتحديد قوة الدولة وخاصة النظرية الليبرالية. بينما يضيف دانيل كولار العوامل العسكرية، ويضع الدول في سبع زمر[15]:

- المعيار العسكري: ويقصد كولار بهذا المعيار الذي تنتمي إليه مجموعة النادي النووي. من المعلوم أن حوالي تسع دول تملك الاسلحة النووية، هي: الولايات المتحدة الامريكية، بريطانيا، روسيا، فرنسا، الصين، كوريا الشمالية، "إسرائيل"، وهناك بعض الدول التي مازالت بمرحلة "القنبلة في القبو" كناية عن عدم الإعلان رسميا عن الحصول على القنبلة. مثل إيران و البرازيل والأرجنتين، وكندا.
- المعيار الفضائي: ويشير إلى مجموعة الدول التي تمكنت من تطوير برنامج فضائي ناجح، مثل: الولايات المتحدة و روسيا الاتحادية، والصين ، واليابان، وفرنسا.

---

[14] سعد حقي، مبادئ العلاقات الدولية، دار وائل ، عمان، ٢٠٠٦،ص٦٠

[15] مرجع سابق، ٥٥-٥٦

- معيار الأنظمة الاجتماعية و الاقتصادية: في هذه الزمرة يميز كولار بين نموذجين من النظم الاقتصادية والاجتماعية، وهي الدول ذات التوجه الرأسمالي، والدول ذات التوجه الاشتراكي.
- معيار التنمية: ويشير إلى انقسام العالم إلى دول متقدمة ودول نامية.
- معيار الجيوسياسي و الجيو اقتصادي: هذا المعيار يشير إلى الدول التي تنتمي إلى السبع اقتصاديات والآن (G8)
- معيار التقدم العلمي: هذا المعيار يفرق بين الدول المتقدمة تكنولوجيا و الدول الضعيفة تكنولوجيا.
- المعيار السياسي: يشمل هذا المعيار التميز بين ثلاث مجموعات في العالم، هي: دول عظمى، دول منحازة، ودول غير منحازة.

ثانياً: القوى الفاعلة غير الدولة Non- State Actors

بالإضافة إلى الدولة الأمة-القومية- هناك العديد من الوحدات الفاعلة في السياسة الدولية، مثل المنظمات الدولية- المنظمات غير الحكومية- شركات متعددة الجنسيات، والجماعات العابرة للحدود. على الرغم من الدور الهام لهذه القوى إلا أن بعض المفكرين يرى بأن هذه الوحدات تؤدي دوراً ثانوياً كما سنرى في النظريات.

المنظمات الدولية: International Organizations

هي مؤسسات أو هيئات دولية تؤسسها الدول بموجب معاهدات دولية تعكس ظاهرة التعاون الدولي ساعية لتحقيق مصالحها. وهناك العديد من انواع المنظمات حسب مجال عملها، والغرض الذي أجدت من أجله. فهناك منظمات دولية لحماية الامن والسلم الدوليين مثل: الأمم المتحدة ومنظمات متخصصة في مجال معين، مثل: منظمة الفاو (FAO) المتخصصة بمجال الغذاء. وبعضها متخصص في مجال الصحة، مثل: منظمة الصحة العالمية. لقد ازداد عدد المنظمات الدولية وكبر دورها بشكل واسع خلال العقود الثلاثة الماضية. والحقيقة أن هناك بعض المنظمات الدولية الناجحة والتي قامت بمهام كبيرة، و خاصة في مجالات حقوق الإنسان، و اللاجئين، وحقوق المرأة، وغيرها من القضايا العالمية. إلا أنه مازال هناك بعض النقاد، و المشككين في أهمية المنظمات الدولية.

المنظمات غير الحكومية: Nongovernmental Organizations

هي منظات تأسست بواسطة أفراد أو جماعات و ليس بواسطة الدول. ومثال ذلك منظمة الصليب الاحمر، أطباء بلا حدود، منظمة مراقبة حقوق الإنسان. هذه المنظمات لاتمول من قبل

الدول ولا تهدف إلى الربح. لكن هذا لا يعني أن يكون بعض الاحيان نوع من التدخل من بعض الدول للتأثير على عملها. تشير بعض الدراسات إلى أن عدد هذه المنظمات قد زاد عن ٣٠٠٠منظمة[١٦].

الشركات متعددة الجنسيات: Multinational Corporations

يطلق هذا الاسم عادة على الشركات الكبرى التي توجد لها فروع في الكثير من الدول حول العالم. وتربط هذه الفروع حول العالم بالشركة الأم في وطن المنشأ. وعادة تشجع الدولة الأم هذه الشركات لعدة اسباب:

١- ضمان الامدادات من الموارد التي هي ضرورية للأمن القومي، مثل: النفط، واليورانيوم.

٢- أسباب سياسية تتمثل في دعم النفوذ الوطني.

٣- أسباب اقتصادية لدعم الدخل القومي لدول المنشأ.

وتتميز هذه الشركات بالخصائص الآتية:

١- أنها مؤسسات خاصة تعبر عن الطابع غير الحكومي لهؤلاء اللاعبين.

٢- هدفها الاساسي هو الربح.

٣- تُعمل من خلال عدد من الشركات ذات شخصية قانونية مستقلة.

٤- أنها تتواجد في عدة دول.

٥- لها مركز في صناعة القرار[١٧].

من هذه الشركات جنرال موترز الامريكية، اي ب أم(IBM) و موبيل.

والحقيقة اصبحت هذه الشركات ذات تأثير كبير في السياسة العالمية بعد الحرب الباردة. فبعض الاحيان تعكس سياسات الدول الام مصالح هذه الشركات لما تمثله من قوة بيايبة و اقتصادية في بلدانها. فهي توظف الآف من العمال، و تقدم الدعم للمرشحين خلال الانتخابات كي يراعوا مصالح هذه الشركات عند وصولهم إلى مناصب صنع القرار.

ثالثاً: النظام الدولي International System

يشير بعض أساتذة العلاقات الدولية إلى أن هناك نوعاً من الخلط بين مفهومين في العلاقات الدولية يستخدمهما الأكاديميون بشكل غير صحيح، و جاء هذا بسبب الترجمة الخاطئة للمصطلحين. المصطلح الأول هو: (System) والثاني هو: (Order)، حيث يترجم الأول بالنظام، و الثاني بالنظام ويخلط بين الاثنين أو حتى بعض الأحيان تترجم كلمة (System)

---

[16] Karen Mingst, the United Nations in the Post- Cold War, Westview Publisher, Boulder, 1999, p.25

[17] سعد حقي توفيق، مرجع سابق ص ٦٦.

بالنسق وكلمة اوردر(Order) تترجم بنظام. في هذا الكتاب، وكما نراه من قراءة الكتب الإنكليزية في الاختصاص نجد أن كلمة (System) تعني نظام، لأن أغلب كتّاب العلاقات الدولية، مثل: كينيث ولتز (Kenneth Waltz)، وجون ميرشايمر(Jhon Mearsheimer)، والبنيويون جميعاً مثل: إمانويل ولرشتين يشيرون إلى كلمة نظام بمعنى أن هناك وحدات يتفاعل بعضها مع بعض، وينتج عن هذا التفاعل مخرجات لها أثرها على الوحدات الفاعلة، وأي تغيير في دور أي فاعل أو أية وحدة قد يغير في طبيعة المخرجات، وبدوره يؤثر على سلوك الوحدات الأخرى. فنحن نقول: إن التلفاز هو نظام وليس (أوردر) (Order) فهناك مكثفات ومقاومات وترانسستور وشاشة، كلها تتفاعل، وكل منها يؤدي الدور الذي وضع من أجله لاستقبال الصورة،والصوت كمنتج. وإذا اختل عمل الشاشة أو المكثف سيؤدي إلى خلل في شكل أو طبيعة عمل الوحدات الأخرى. كذلك نقول: إن هناك نظاماً شمسياً فيه الكواكب والنجوم التي تكون هذا النظام، ولا نقول أن هناك (Order) (نسقاً) شمسياً. أما كلمة الأوردر (Order) فتعني وجود نوع من التراتبية أو النسقية بين وحدات معينة قد تشكل نظاماً، فنقول هناك نسق ليبرالي في النظام الدولي(Liberal Order in the International System)، أو نقول إن الولايات المتحدة تحاول أن تبني (Order) كما كان أيام الإمبراطورية البريطانية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. قوام هذا النسق أو (Order) هو الفكر الليبرالي القائم على الحرية الفردية والحرية الاقتصادية والتجارة الحرة، والحريات السياسية. نحن نرى أن الأوردر (Order) تسعى الدول لبنائه وبناء علاقات دولية على أساس ليبرالي أو أيديولوجي بنوع آخر، ولكن النظام يوجد بغض النظر عن إرادة الوحدات الفاعلة (الدول) . فالنظام ينتج عن التفاعل اليومي للقوى الفاعلة، وتتحدد بنيته بتوزيع القوة بين القوى العظمى في النظام الدولي. حتى إن هدلي بول (Hedley Bull) في كتابه المجتمع الفوضوي (The Anarchical Society) يشير إلى وجود بعض القواعد والنماذج من السلوك المتفق عليها في المجتمع، وهذا يشكل النسق أو الأوردر (Order)، وبشكل طوعي تبنى، وتوضع هذه القواعد.

وقد أخذ علماء السياسة مفهوم النظام من العلوم الطبيعية حيث حققت هذه العلوم تطوراً هائلاً، وتقدماً كبيراً في مجال البحث العلمي الذي شكل بدوره حافزاً للعاملين في مجال العلوم الاجتماعية. وقد عرّف العلماء العاملون في مجال العلوم الطبيعية النظام على أنه وحدتان أو أكثر بينها علاقات يؤثر بعضها ببعض، وينتج عن هذه العلاقات شكلاً من المخرجات. ولذلك يمكن أن نقول: يوجد النظام الدولي عندما يوجد وحدتان أو أكثر بينهما علاقات مستمرة تتصف بالديمومة، ويؤثر كل منها بالآخر.

العلاقات الدولية و السياسة الخارجية

International Relations and Foreign Policy

تُعرف السياسة الخارجية بأنها مجموعة الإجراءات و القرارات التي تتخذها الدولة في علاقاتها الخارجية بغية تحقيق مصالحها. مما سبق نستنتج أن السياسة الخارجية لدولة ما تتكون من قرارات و إجراءات تقوم بها الدول لتحقيق أهداف معينة تخدم المصلحة الوطنية. ويقوم بهذه المهمة عادة أفراد ومؤسسات ونخب بالنيابة عن الدولة، مثل: السلطة التنفيذية، والاستخبارات، والسلطة الشريعية، ومؤسسات أخرى تختلف أدوار هذه المؤسسات والأفراد تبعاً للنظام السياسي و للظروف المحيطة بصناعة السياسة الخارجية. خلال العقود الماضية وخاصة في القرن العشرين كانت السياسة الخارجية تدرس على أنها جزء من العلاقات الدولية، إلا أنها أصبحت تستقل و تأخذ صفة العلم منذ الستينيات من القرن الماضي مستخدمة مداخل ونظريات خاصة بها، مثل: تحليل السياسة الخارجية الذي ساهم بتطويره كل من جيمس روزناو James Rosenau و هارولد و مارغريت سبراوت Harold Sprout & Margret Sprout . فمجال دراسة السياسة الخارجية تنصب على عملية صنع القرار والاشخاص المساهمين بعملية صنع القرار و البيئة الداخلية والخارجية المؤثرة بالسياسة الخارجية. بمعنى آخر مجال دراسة السياسة الخارجية يتركز بشكل كبير على داخل الدولة، و يختص بسلوك وحدة واحدة، بينما العلاقات الدولية هي التفاعلات بين الوحدات الفاعلة في النظام الدولي.

للإجابة على هذا السؤال لا بد لنا من تعريف النظرية. إن أكثر الجدالات في العلوم بشكل عام و العلوم الاجتماعية بشكل خاص يدور حول فلسفة العلم Philosophy of Science و المعرفة Epistemology و طرق الحصول على المعرفة Methodology في أي مجال من العلوم. فالجدل يتضمن مجموعة من المفاهيم الهامة التي لابد من أن تكون واضحة، مثل: البرادايم، الفرضية، النظرية ...

يقول الفيلسوف كارل بوبر في كتابه منطق الاكتشاف العلمي The Logic of Scientific Discovery الذي صدر عام ١٩٥٠: إنه لن يتسنى للمعرفة العلمية أن تزداد، وتتوسع، وتتطور بأسرع صورة ممكنة إلا من خلال تطوير النظريات [18]. تُعرف النظرية على أنها "مجموعة مقترحات يُعبر عنها فرضياً بحيث تتنبأ الفرضيات بدورها بالعلاقات بين المتغيرات التي يمكن ملاحظتها أو قياسها ولكن ليس بدقة. أو هي مبدأ عام وُضع لتفسير حقيقة ما أو فرضية تثبت صحتها وطبقت على نطاق واسع[19].

فالنظرية بشكل عام هي مجموعة من الافتراضات حول علاقة سببية بين متغيرين أو أكثر تساهم في شرح وتفسير والتنبؤ بالظاهرة قيد الدراسة[20]. بينما يعرف كينث ولتز النظرية على أنها "مجموعة من القوانين المتعلقة بسلوك ظاهرة معينة"[21]. أما فيليب بريار فيرى أن النظرية هي عبارة عن "مجموعة متجانسة ومنهجية من الافتراضات هدفها توضيح مجال العلاقات الاجتماعية التي نسميها العلاقات الدولية[22].

أما البرادايم Paradigm كما وصفه توماس كون Thomas S. Kuhn في كتابه المشهور The Structure of the Scientific Revolution بنية الثورات العلمية المنشور عام ١٩٦٢ بأنه تلك الإنجازات العلمية المعترف بها عالمياً التي تصبح لفترة من الزمن المثال للمشكلات والحلول التي تعالجها مجموعة من الأفراد المتمرسين في حقل ما. واللفظ في الأصل اصطلاح يوناني Paradeigma ويعني "أن يحتذي به كمثال أو يؤخذ على سبيل العبرة[23].

وتجدر الإشارة هنا إلى مسألة بالغة الأهمية هي أن أساس أية نظرية هو النموذج الأساسي البرادايم الذي هو في الأساس نموذج لتفسير الواقع، وهذا النموذج يتكون عادة من عنصرين رئيسين :

---

[18] محمد سليمان الدجاني، منذر سليمان الدجاني، منهجية البحث العلمي في علم السياسة، دار زهران، عمان، ٢٠١٢ ص٥٨

[19] مرجع سابق ص ٥٨

[20] Paul Viotti, Mark Kuppi, International Relations Theory, 5ed, Pearson, London, 2011, p4

[21] Kenneth Waltz, Theory of International Politics, Addison Wesley, New York, 1979,P.2

[22] سعد حقي توفيق، مبادئ العلاقات الدولية، عمان، دار وائل، ٢٠٠٦ص ٧١

[23] الدجاني مرجع سابق، ص ٦٢

١- عملية صياغة مفهومية "نظرية" Conceptualization للظاهرة محل البحث، مثلاً: ينظر إلى المجتمع كونه مكوناً من مجموعة مترابطة من النظم.

٢- علاقة سببية مفترضة. مثلاً: النظرية التي ترى أن البناء الاجتماعي يتشكل، ويتطور استجابة للوظائف الرئيسة للمجتمع.

مما سبق يمكن القول: إن النظريات المتعددة في أي علم من العلوم الاجتماعية، و منها العلاقات الدولية، يمكن ردها إلى نموذج مثل البرادايم[٢٤].

أما التصوّر Image كمفهوم، فقد ظهر خلال العقدين الماضيين، وخاصة في كتابات بول فيوتي و مارك كوبي. إذ يقول فيوتي و كوبي إنهما يقصدان بالتصور هو مجموعة من الرؤى حول موضوع معين تشمل هذه الرؤى الية عمل أو خصوصية موضوع الدراسةمثل التصور الواقعي حول العلاقات الدولية[٢٥].

وفي ضوء ما سبق يمكن أن نقول: إن نظرية العلاقات الدولية هي عبارة عن مجموعة من الفرضيات المتماسكة منطقياً هدفها شرح علاقة بين مجموعة من المتغيرات أحدها يفسر الآخر في ظاهرة معينة في العلاقات الدولية.

وظائف النظرية:

تقوم النظرية عادة بثلاث وظائف، هي:

١- الشرح: تساعد النظريات على شرح ظاهرة معينةو جعلها أكثر بساطة.

٢- الفهم و التفسير: يتبع الوظيفة الأولى النظرية التي تساعد على تفسير الظاهرة قيد الدراسة، وفهمها .

٣- التنبؤ: إذ تم شرح أسباب الظاهرة، وفهمها يمكن التنبؤ بحدوثها.

تصنيف النظريات في العلاقات الدولية:

يميز بعض أساتذة العلاقات الدولية وحسب مجال النظرية بين نوعين من النظريات، هما: النظريات الجزئية، والنظرية الشاملة (العامة).

حيث تركز الأولى على تفسير بعض جوانب العلاقات الدولية، مثل: نظرية صنع القرار في السياسة الخارجية. بينما تركز النظريات العامة على تفسير أو دراسة عامة وشاملة لظاهرة معينة في العلاقات الدولية، مثل: النظرية الواقعية، الماركسية[٢٦].

يدور جدل كبير بين مجموعة من الكتاب الذين يقولون بعدم جدوى النظرية في العلاقات الدولية، و يعطون الأولوية للتاريخ، و القانون، و الفلسفة السياسية، ومجموعة أخرى

---

[24] مرجع سابق، ٦٢

[25] Paul Viotti, Mark Kuppi, International Relations Theory, Pearson. 5th ,London,2012, p. 15

[26] عبد الناصر جندلي، مرجع سابق، ص ٥١

ترى بأننا نستطيع دراسة العلاقات الدولية دراسة علمية واستخدام النظريات كأي علم من العلوم الأخرى. و قد هيمن التيار الثاني على دراسة العلاقات الدولية منذ منتصف القرن العشرين. إذ انتشرت الدراسات الوضعية، و سيطرت على دراسة العلاقات الدولية نظريات متعددة، كما سنرى في هذا الفصل.

إيجابيات النظرية في العلاقات الدولية:

يرى علماء السياسة والعلاقات الدولية أن التنظير أو النظرية في العلاقات الدولية له العديد من الفوائد أو النقاط الإيجابية، أهمها:

١- أن النظرية تساعد على تنظيم المعلومات؛ ولذلك نستطيع ترتيبها في عملنا التالي من أجل أن تكون مفهومة.

٢- تساعد في جعل العلاقات الدولية أكثر بساطة، وأكثر قابلية للفهم.

٣- تساعد في تطوير البحث العلمي.

٤- يمكن أن يكون لها استخدام في رسم الخطط، والاستراتيجيات للدول.

فالنظرية مهمة في العلاقات الدولية؛ لأنها تساعدنا على فهم الظاهرة السياسية، وشرحها وتفسيرها في العلاقات بين الوحدات الفاعلة في النظام الدولي. كما أنها تساعد أصحاب القرار على أن يضعوا القرارات المناسبة وفق المعلومة العلمية و المعرفة المبنية على الملاحظة و التجريب.

وباختصار: لقد أصبح من المتعارف عليه أن العالِم في أي ميدان من ميادين العلم، لايمكن أن يمارس بحثه العلمي بطريقة منهجية، دون أن يلم إلماماً تاماً و متعمقاً بالخريطة الفكرية التي تسود العلم الذي يعمل في إطاره. وهذه الخريطة الفكرية تشمل في العادة عديداً من الأفكار، و النظريات، والآراء، والإيديولوجيات المتضاربة التي تنطلق في العادة من مسلمات فلسفية أو سياسية أو اجتماعية معلنة أو كامنة، تؤثر تأثيراً بالغاً على وعي العالم، وتدفعه إلى صياغة أفكاره بطريقة معينة.

نشأة علم العلاقات الدولية، وتطوره:

نشأ علم العلاقات الدولية نتيجة الحاجة إلى معرفة أسباب الحروب، وما هي الطرق للسيطرة على هذه الظاهرة، فقد تأسس أول قسم لدراسة العلاقات الدولية في بريطانيا عام ١٩١٩ثم سرعان ما انتشرت الكليات والجامعات التي تدرّس هذا العلم .

لقد سيطر على دراسة العلاقات الدولية اتجاهان اثنان:

الأول هو الاتجاه الذي سمي بالمثالي الذي ينطلق من الفكر اللبرالي الذي يعتقد بحتمية التعاون بين الدول، وأن الدول تسعى لتحقيق أهدافها، وتتعاون لحل المسائل المشتركة، وإن طبيعة الدول ليست كما يدعي البعض بأن الكل ضد الكل، وإن إيجاد نوع من أنواع التنظيم الدولي، وخلق

مؤسسات دولية وتطوير القانون الدولي والشرعية الدولية سوف يقود إلى نظام عالمي يسوده الاستقرار والسلام، ولذلك كان هناك مشروع إقامة عصبة الأمم المتحدة عام ١٩١٩ من قبل الرئيس الأمريكي ولسون ومؤيديه إلا أن هذه الأفكار سرعان ما تراجعت، وأخذت تحل في المرتبة الثانية بعد النظرية الواقعية التي شكلت الاتجاه الثاني في دراسة العلاقات الدولية؛ وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية، وانهيار النظام أو التنظيم الدولي المبني على عصبة الأمم، وبروز الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي كدولتين عظميين.

لقد كان الحوار والجدل الفكري بين دارسي العلاقات الدولية والعاملين بها أيضاً يتركز حول الجدل بين المثالية التي يمكن أن توصف بأنها التيار الذي يقول كيف العلاقات الدولية يجب أن تكون أي أن هذا التيار هو تيار وصفي يعطي وصفات كيف يبني المجتمع الدولي مؤسسات يمكن أن تنظم العلاقات بين الدول. والتيار الثاني الذي نسميه الواقعية والذي يرفض عفوية المثاليين، ويقول بأن الدول تتصرف حسب مصالحها الوطنية التي تتمثل بالقوة، ويجب علينا أن ندرس العلاقات الدولية كما هي لا كما يجب أن تكون.

دخلت دراسة العلاقات الدولية مرحلة جديدة مع نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات حيث تمثل الجدل الفكري بالسجال بين هدلي بول الذي مثّل ما سميّ بالمدرسة التقليدية من جهة، و مورتون كابلان الذي مثّل المدرسة السلوكية. ومع تطور هذا الحوار لم تعد تنحسر وجهة نظر هذه المدارس في مسألة كيف تكون العلاقات بين الدول، فالتيار التقليدي رجّح طرق التاريخ _القانون _الفلسفة _التاريخ الدبلوماسي .....بينما رجّح التيار السلوكي ما نسميه الطرق العلمية المبنية على النظرية الوضعية في المعرفة. وبشكل مختصر النظرية الوضعية التي يعد أكبر رموزها أوغست كومت حيث كتب عام ١٨٣٧ ونتيجة التطور الكبير والنجاحات الهائلة التي تحققت في مجال العلوم الطبيعية (علم الطبيعة _الفيزياء _الرياضيات _الطب .....)بأن العلوم الاجتماعية والسياسية يمكن أن تدرس كما تدرس الظاهرة الطبيعية علمياً بالملاحظة والتجريب .

النظرية الوضعية تقوم على الأسس الآتية:

١_ أن هناك قوانين أو شبه قوانين تحكم الظواهر قيد الدراسة في المجتمع .

٢_ يمكن الكشف عن هذه القوانين والقواعد شبه القوانين باستخدام العقل .

٣_ الطريق الذي يستخدمه العقل لاكتشاف هذه القوانين أو شبه القوانين هو العلم الذي يقوم على الملاحظة والتجريب .

٤_ يمكن لنا الفصل بين الذات والموضوع؛ أي يمكن لنا أن نتجرد من عواطفنا، وأن نكون موضوعيين في دراسة الظواهر الاجتماعية والسياسية

طبعا كان هناك انتقادات عديدة، وخاصة من قبل التيارات الحديثة، مثل: النظرية النقدية وما بعد الحداثة حيث يقول أتباع هذه المدارس من الصعب الفصل بين الذات والموضوع؛ أي أننا نعيش في المجتمع ونحن جزء منه، فكيف نفصل أنفسنا عن هذا الواقع الذي نتأثر به ونؤثر فيه . أيضاً يرفض أتباع النظريات الحديثة الفرضيات الوضعية بوجود حقائق وقوانين يمكن اكتشافها بل يقول هؤلاء بأن ظروفها التاريخية وبيئتها الاجتماعية هي التي ساهمت بتشكيلها؛ لذلك لا يمكننا التعميم على الظواهر جميعها.

هذا هو المشهد الآن لدراسة العلاقات الدولية، فالجدل ينحسر الآن بين أتباع النظريات الوضعية ونظريات ما بعد الوضعية، مثل: (ما بعد الحداثة – النقدية أو مدرسة فرانكفورت).

ولكن قبل الحديث عن النظريات لابد من استعراض ثلاثة محاور أساسية في دراسة العلاقات الدولية، هي: الوحدات الفاعلة، الأهداف، الأدوات.

المحور الأول: الوحدات الفاعلة

كما ذكرنا سابقا بأننا سنعد الدولة– الأمة الوحدة الأساسية الفاعلة في العلاقات الدولية. وسوف نعد أيضاً أن الدول تتصرف بشكل عقلاني في سبيل خدمة المصلحة الوطنية المتمثلة بالبقاء، وأمن الدولة وسلامتها، ورفع المستوى المعيشي للمواطنين.

المحور الثاني: الأهداف

يأتي في مقدمة أهداف الدولة المحافظة على استقلالها وسيادتها وأمنها القومي. وهذا يشمل هدف البقاء، واستمرارية نظامها السياسي، وحماية حدودها الجغرافية. أيضاً من أهداف الدولة زيادة قوتها. ويرتبط هذا الهدف بالهدف السابق حيث يعد الأداة الأساسية للحفاظ على سيادة الدولة، وأمنها القومي. إن تطوير المستوى الاقتصادي للدولة يعد أيضاً من أهداف الدولة فاستقلال الدولة، وسلامتها يعتمد على وجود قاعدة اقتصادية قوية، و متطورة.

إن تحديد هذه الأهداف يتم من خلال ما يسمى المصلحة الوطنية. فالمصلحة الوطنية هي الأساس في اختيار الدولة لأهدافها في تعاملها مع الدول الأخرى. الدول تضع سياساتها في القضايا الدولية وفقاً لأولوياتها التي تعكس أهدافها ؛ الأمن، وحفظ الذات والكفاية الاقتصادية والهيبة والقوة. وفي أي وقت من الأوقات تؤكد سياسة الدولة على واحد أو أكثر من هذه الأهداف على الأهداف الأخرى. وتنبع الحاجة إلى وضع أولويات من محدودية الموارد لدى الدول كافة، وحتى القوية منها. فالأمن هو الاعتبار الأكثر إلحاحاً في رسم السياسات، واختيار الأهداف للدول. أيضاً طبيعة البيئة الدولية دائمة التغيير تؤدي وبصورة حتمية إلى إعادة ترتيب أولويات الدولة، وإعادة تعريف المصلحة الوطنية.

المصلحة الوطنية وتحديد الأهداف

مهما يكن نوع الحكومات، فان الدول تتصرف طبقاً لمصالحها القومية. وبالرغم من صحة هذه المقولة إلا أنها لا تخبرنا الكثير إلا إذا علمنا كيف تعرف الدول مصالحها القومية. وذلك بسبب النظام الدولي يجب على الدول تعريف تلك المصالح بلغة توازن القوى وإلا سوف تزول هذه الدول تماماً، مثل: شركة تعمل في سوق مثالية، وتريد أن تؤثر مصالح الشركات الأخرى على تعظيم أرباحها، فإنها ستنتهي. لهذا يرى الواقعيون أن وضع الدولة في النظام الدولي يحدد مصالحها القومية وينبئ عن سياستها الخارجية.

أما الليبراليون، فيقولون: إن المصالح القومية تعرف بما هو أكثر من مجرّد وضع الدولة في النظام الدولي، ولليبرالية تقدير أكثر ثراء لكيفية تشكيل المصالح القومية حيث يعتمد تعريف المصالح القومية بالنسبة لهم إلى حد بعيد على نوع المجتمع الداخلي لتلك الدولة فعلى سبيل المثال يعرف المجتمع الذي يولي الرخاء الاقتصادي والتجارة أهمية قصوى أو الذي ينظر إلى الحروب ضدّ الدول الديمقراطية الأخرى على أنها عمل غير مشروع ،مثل هذا المجتمع يعرف مصالحه القومية على نحو يختلف كثيرا عن تعريف المجتمع الذي يعيش في دولة يحكمها طاغية ولها الوضع نفسه في النظام الدولي. ويقول الليبراليون إن هذه الرؤية تكون سليمة، لا سيما حين يتسم النظام الدولي بالاعتدال ،أي ما لم تكن تسوده الفوضى .فإذا كانت المؤسسات وقنوات الاتصال تقدّم توقعات مستقرة بالسلام الدائم فإنه يمكن الخروج من معضلة السجين .

وبما أن هذه الحوافز التي لا تتصل بالقوة، والنفوذ قد تساعد على تحديد كيفية تعريف الدول لمصالحها ، فمن المهم ضرب مثال حي لتقريب هذا المفهوم المجرّد للفوضى . فإذا كان الموقف الدولي فوضوياً على نحو مطلق، وإذا كان احتمال أن تقتل على يد جارك احتمالاً وارداً إذن فمجال تأثير الديمقراطية، أو تعزيز التعاون التجاري على السياسة الخارجية مجال محدود فغريزة البقاء تأتي في المرتبة الأولى. ولكن إذا كان النظام الدولي يتسم بالفوضوية إلى حد محدود لوجود مؤسسات وتوقعات مستقرة للسلام، فقد تلعب هذه العناصر الأخرى المتصلة بالمجتمع الداخلي دوراً أكبر. واحتمال دقّة توقعات الواقعيين أكثر في الشرق الأوسط مثلا في حين تصدق توقعات الليبراليين في أوروبا الغربية .

الأدوات :

من خلال الصراع المستمر بين الدول للتأثير على الأحداث، فإن القدرة على تحقيق الأهداف المرجوة تعتمد مباشرة على توفر عناصر القوة واستخدامها بشكل عقلاني : وهي العناصر

العسكرية والسياسية والإقتصادية. إن إبراز القوة لتحقيق الأهداف الوطنية أكثر تعقيداً من مجرّد التباهي بالقوة العسكرية لإرهاب الدول الضعيفة . إن العلاقات بين الدول ترتكز على العناصر المختلفة للقوة، كما أن فهم السياسة الدولية يتطلب تقديرا شاملا لهذه العوامل .

تستخدم كلمة قوة في نصوص مختلفة عند قيام وسائل الإعلام بتغطية أحداث دولية، وفي كتب السياسة الدولية .إن العامل المشترك في استخدام هذا التعبير هو أنه يمثل قدرة دولة على التأثير في أفعال وسياسات دولة أخرى. يصف هانس مورغنثاو القوة على أنها سيطرة الإنسان على تفكير وأفعال الناس الآخرين. أما ريموند آرون، فيصفها على أنها القدرة على الفعل أو الصنع أو التدمير. إن القوة أيضاً عبارة عن وسيلة يتم تحقيق النفوذ من خلالها لأنها مزيج من المصادر العسكرية والسياسية والاقتصادية التي تتمكن الدولة من استخدامها ضمن جهودها التي تستهدف متابعة أهداف سياستها الخارجية. والنفوذ (التأثير)هو القدرة على إقناع الدول الأخرى لتبني سياسات تساعد هذه المتابعة أو على الأقل لا تقف عائقاً في طريقها. وحيازة عناصر القوة أمر ضروري، ولكنه ليس كافياً بالنسبة لدولة تتمتع بإمكانية بارزة في المجتمع الدولي .

إن علاقات القوة بين الدول أكثر صعوبة للحكم عليها من مجرّد قياس ما قد توحي به المتغيرات الهامة، فمن السهل ترتيب الدول وفقاً لإنتاجها الاقتصادي أو صناعاتها العسكرية إلا أنه من الصعوبة بمكان تقويم الرغبة في استخدام قوتها أو طاقاتها الكامنة .

كما أن بعض العناصر، مثل: نوعية القيادة والرغبة الوطنية في تحمّل التكاليف التي ستنتج عن الأعمال المقترحة ستكون أيضاً عرضة للتقويم .إن أحد الأخطاء الرئيسة في استراتيجيات الولايات المتحدة في الحرب الفيتنامية كان فشل هذه الاستراتيجيات في إعطاء الوزن الكافي لإمكانية وإصرار فيتنام الشمالية على تقديم أي ثمن من حيث الأرواح البشرية والخسائر الماديّة من أجل تحقيق هدفها .

مما تقدم نستنتج أن العمل الأكاديمي حول طبيعة العلاقات الدولية، وطرق دراستها سيطرت عليه جدالات و حوارات متعددة بين مدارس مختلفة. وفيما يلي نلخص الجدالات في هذا المجال منذ البدايات و حتى الوقت الحاضر، وهي:

الجدل الأول بين المثالية و الواقعية.

الجدل الثاني بين السلوكية و التقليدية.

الجدل الثالث بين الواقعية الجديدة والليبرالية الجديدة.

الجدل الحالي بين الوضعية و ما بعد الوضعية.

الجدل الأول :First Debate

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وجد قادة العالم أنفسهم أمام معضلة كبيرة تتجسد بسؤال مهم و هو كيف للعالم أن يتخلص من العنف و الحروب بين الدول؟ و قد جاءت الإجابات على هذا السؤال متنوعة، و لكن يمكن لنا أن نجمل الاتجاهات الأساسية باتجاهين :

المثالي الذي رأى بأن المعضلة الأمنية Security Dilemma في العلاقات الدولية يمكن التعامل معها من خلال تأسيس منظمة دولية تساعد الدول على بناء نظام أمن جماعي، والالتزام بقواعد القانون الدولي. وصف هذا التيار بالتيار المثالي؛ لأنه ينطلق من الدعوى تأسيس علاقات دولية مبنية على المثالية. و الحقيقة أن هذا التيار سيطر على فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى، و حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية. و بناء على هذه الرؤية أوجدت عصبة الأمم لتكون نواة نظام دولي أساسه الشرعية الدولية و الأمن الجماعي Collective Security.

أما التيار الثاني في هذا الجدل، فقد تمثل بآراء الواقعية التي تدعو إلى دراسة العلاقات الدولية كما هي على أرض الواقع لا كما يجب أن تكون عليه. وينطلق أتباع هذا التيار من الافتراض التالي هو: أن الدول تتصرف حسب المصلحة الوطنية National Interest و تحاول أن تزيد قوتها النسبية مقارنة بالدول الأخرى. وقد هيمنت هذه النظرية على دراسة العلاقات الدولية منذ نهاية الحرب الباردة و حتى وقتنا الحاضر.

الجدل الثاني :Second Debate

تركز الجدل الثاني على منهجية دراسة العلاقات الدولية، وقد برز تياران مختلفان في هذا المجال. فقد رأى التيار الأول بأن دراسة العلاقات الدولية يجب أن تتم من خلال دراسة التاريخ الدبلوماسي و القانون الدولي و الفلسفة السياسية. وقد عرف هذا التيار بالتيار التقليدي Traditional Approach ومثله بهذا الجدل هدلي بول Hedley Bull بكتاباته العديدة، التي كان لها اثر كبير في تحديد مسيرة علم العلاقات الدولية.

أما التيار الثاني، فقد أخذ موقفاً مغايراً إذ أشار رواده إلى إمكانية دراسة العلاقات الدولية دراسة علمية كأي موضوع آخر. فبالنسبة لعلماء السياسة العاملين في هذا المجال سلوك الدول يتم وفق نماذج Patterns و أنماط تتكرر Regularities ضمن شروط معينة و نحن نستطيع الكشف عن هذه الأسباب التي تؤدي إلى هذا التكرار في سلوك الوحدات الفاعلة في العلاقات الدولية باستخدام الطرق العلمية في البحث التي تقوم على الملاحظة و التجريب. و سمي هذا التيار بالتيار العلمي Scientific Approach أو السلوكي Behaviorist Approach لأنه اعتمد النظرية السلوكية Behavioralism مرجعية في دراسة سلوك الدول. والحقيقة أن هذا التيار له جذوره في المدرسة الوضعية التي يعيد أساتذة العلوم الاجتماعية بداياتها إلى أوغست كونت في

القرن التاسع عشر. وعلى الرغم من الإنجازات الكبيرة التي حققها هذا التيار إلا أن ذلك لم يمنع بروز تيارات جديدة تنتقد التيار العلمي أو السلوكي و خاصة خلال العقدين الماضيين.

الجدل الثالث :Third Debate

خلال العقد السابع من القرن العشرين برز جدل جديد في العلاقات الدولية بين الواقعية الجديدة و الليبرالية الجديدة جوهره ماذا ندرس؟ وما هي مستويات التحليل التي يجب التركيز عليها في دراسة العلاقات الدولية؟ فبينما يرى أتباع النظرية الواقعية الجديدة أن بنية النظام الدولي تحدد سلوك الدول، وان الدول تتصرف وفقاً لقوانين يحددها توزيع القوى بين الدول العظمى، و يعد مؤسس هذه النظرية كينيث وولتز أن مستوى التحليل الأول هو بنية النظام الدولي الذي يجب ان يركز عليه الباحث.

أما النظرية الليبرالية الجديدة، فتركز على دور المنظمات الدولية، و القوى الفاعلة غير الدولة في العلاقات الدولية؛ بالإضافة إلى التركيز على مفهوم التعاون الدولي والزيادة المطلقة التي تسعى الدول لتحقيقها. و من أهم روادها روبرت كوهيني و جوزف ناي اللذين تعاونا في كتب ومقالات عديدة حول دور المؤسسات والمنظمات الدولية في العلاقات الدولية. (لن نتوسع في الحديث عن هذه الحوارات لأننا سندرسها بالتفصيل في الفصول القادمة)

الجدل الراهن :Current Debate

منذ انتهاء الحرب الباردة، و الجدل في العلاقات الدولية يدور بين التيار الوضعي أو النظريات الوضعية من جهة، و نظريات ما بعد الوضعية من جهة أخرى. إذ يرى أتباع النظريات الوضعية –كما ذكرنا في بداية هذا الفصل– أنه يمكن دراسة العلاقات الدولية دراسة علمية؛ لأن هناك قوانين أو شبه قوانين تحكم الظاهرة في العلاقات الدولية، و أننا نستطيع أن نفصل بين الذات و الموضوع

بينما يرفض أتباع الاتجاهات الجديدة، و المسماة ما بعد الوضعية هذه الافتراضات للوضعية، و يؤكدون بأنه من الصعب فصل الذات عن الموضوع، وأنه لا يوجد تكرار أو نمذجة ونمطية في سلوك الدول. وقد وجهت هذه المداخل الجديدة انتقادات كبيرة للافتراضات الأساسية للنظريات الوضعية. إذ تنتقد النظريات الوضعية بأنها نظريات شارحة، ونظريات هدفها الحفاظ على الأمر الواقع، وغير قادرة على التغيير بينما يصف أتباع النظريات الحديثة (ما بعد الوضعية) نظرياتهم بأنها بنائية و قادرة على التغيير و تحرير الإنسان. وأهم النظريات الوضعية التي سيتم التركيز عليها، هي: الواقعية و الواقعية الجديدة– الليبرالية و الليبرالية المؤسساتية –و النظريات العالمية. بينما تضم التيارات ما بعد الوضعية مجموعة من النظريات، أهمها : ما بعد الحداثة – النظرية النقدية– و النظرية النسوية. ومن الجدير بالذكر أن هذه النظريات توصف بأنها نقدية؛ لأنها

تنتقد التيارات الوضعية، و تدعو إلى عدم قبول المنظومات المعرفية السائدة كحقائق دون التمحيص و الدراسة لهذه المنظومات و تطورها عبر الزمن.

وقبل الانتقال إلى الحديث عن النظريات الوضعية لابد لنا من إعطاء فكرة عما يسمى بمستويات التحليل في العلاقات الدولية، لأنها تشكل المدخل الذي تستخدمه كل النظريات في تحليلها للعلاقات بين الدولية.

مستويات التحليل: Levels of Analysis

تعد مسألة مستويات التحليل من أهم المسائل في دراسة العلاقات الدولية؛ وخاصة لدى أتباع النظريات الوضعية. فقد طور أساتذة العلوم السياسية هذه الطريقة خلال الخمسينيات و الستينيات من القرن العشرين لتساعدهم في دراسة العلاقات الدولية. تعود البدايات الأولى لمسألة مستويات التحليل إلى عام ١٩٥٩ حين كتب كينث وولتز كتابه الشهير الإنسان- الدولة-والحرب إذ أشار وولتز إلى أن أسباب الحرب يمكن أن توجد في ثلاثة مستويات:[٢٧]

بنية النظام الدولي.

الدولة.

الفرد.

أولا : بنية النظام الدولي

يتضمن هذا المستوى دراسة مجموعة من العوامل، أهمها:

١- توزع القوى في النظام الدولي؛ أي كيف تتركز القوى بين الدول العظمى، فاذا كان لدينا دولة عظمى واحدة كان النظام أحادي القطب، وإذا توزعت القوى على دولتين عظميين كان النظام ثنائي القطب. وفي حال كان هناك أكثر من دولتيين عظميين يكون النظام متعدد الأقطاب. وهنا يجب أن نذكر أن بنية النظام الدولي تلعب دوراً مهماً في سلوك الدول، و خاصة لدى أتباع الواقعية الجديدة.

٢- عدد الوحدات الفاعلة في العلاقات الدولية، وخاصة القوى التي تتمتع بدور فعال. إذ يرى بعض علماء السياسة أنه كلما زاد عدد الوحدات زادت العلاقات الدولية تعقيداً وأصبحت البيئة الدولية أكثر تاثيراً على سلوك الدول.

٣- دور المنظمات الدولية و القانون الدولي في العلاقات الدولية.

٤- دور الشركات متعددة الجنسيات.

---

[27] Kenneth Waltz, Man State, and War, Columbia university Press, New York, 1959

ثانياً: الدولة

عند دراسة الدولة كمستوى للتحليل يتم التركيز على العوامل الآتية:

١_طبيعة النظام السياسي:

تؤثر طبيعة النظام السياسي في سلوك الدول. فالدول الديموقراطية تختلف عن الدول ذات النظام الشمولي من حيث صناعة القرار، و تعريف المصلحة الوطنية للدولة. فعلى سبيل المثال: تاريخ العالم المعاصر يشير إلى أن الدول الديموقراطية لا تحارب بعضها بعضاً.

٢- الأوضاع الاقتصادية للدولة:

يشير بعض علماء السياسة إلى أن الأوضاع الاقتصادية للدولة تلعب دوراً كبيراً في رسم السياسات و الاستراتيجيات لهذه الدول. إذ يعتقد هؤلاء العلماء أنه إذا كانت الأوضاع الاقتصادية في دولة من الدول سيئة، وتعاني هذه الدولة من مشاكل اقتصادية قد تلجأ الدولة لتصدير هذه المصاعب للخارج و محاولة صرف نظر المواطنين إلى عدو خارجي.

دور المؤسسات و البيروقراطيات في صنع القرار:

من المعروف أنه في كل دولة هناك مؤسسات و بيروقراطيات تساهم في صنع القرار في السياسة الخارجية، مثل: وزارة الدفاع، و الخارجية، و الاستخبارات، وجماعات الضغط، و مراكز البحث التي تحاول دائما لتعكس مصالح نخب معينة أو حتى مصالحها الذاتية؛ لذلك يجب التركيز على دور هذه المؤسسات في تحليل السياسة الخارجية.

الرأي العام:

يلعب الرأي العام دوراً هاماً في تحديد شكل السياسة الخارجية؛ و خاصة في الدول الديموقراطية. من هنا تكمن أهمية تحليل الرأي العام لبيان دوره في رسم السياسات العامة للدولة.

ثالثا: مستوى الفرد

في المستوى الثالث و مستوى الفرد نتناول عادة مجموعة من العوامل المتعلقة بالفرد أهمها:

شخصية صانع القرار.

الإيديولوجية التي يتبناها صانع القرار.

الدين و المعتقدات الدينية.

تصور صاحب القرار عن المسألة المطروحة.

البيئة النفسية لصانع القرار.

الحسابات أو الخطأ في الحسابات من قبل صانع القرار.

بينما أبدى بعض العاملين في مجال العلاقات الدولية شكه بجدوى أدوات التحليل بأشكالها العديدة من نظريات و مداخل، أثبت المفكرون و أساتذة علم السياسة بأن أدوات التحليل هذه

أدت دوراً كبيراً في تطور هذا الحقل المعرفي المبني على الملاحظة والتجريب. فلولا هذه النظريات والمداخل لما استطعنا أن نتكلم عن علم العلاقات الدولية بالشكل الذي نتناوله الآن.

الشكل التالي يبين العوامل الداخلة في كل مستوى من مستويات التحليل:

شكل رقم(١) مستويات التحليل

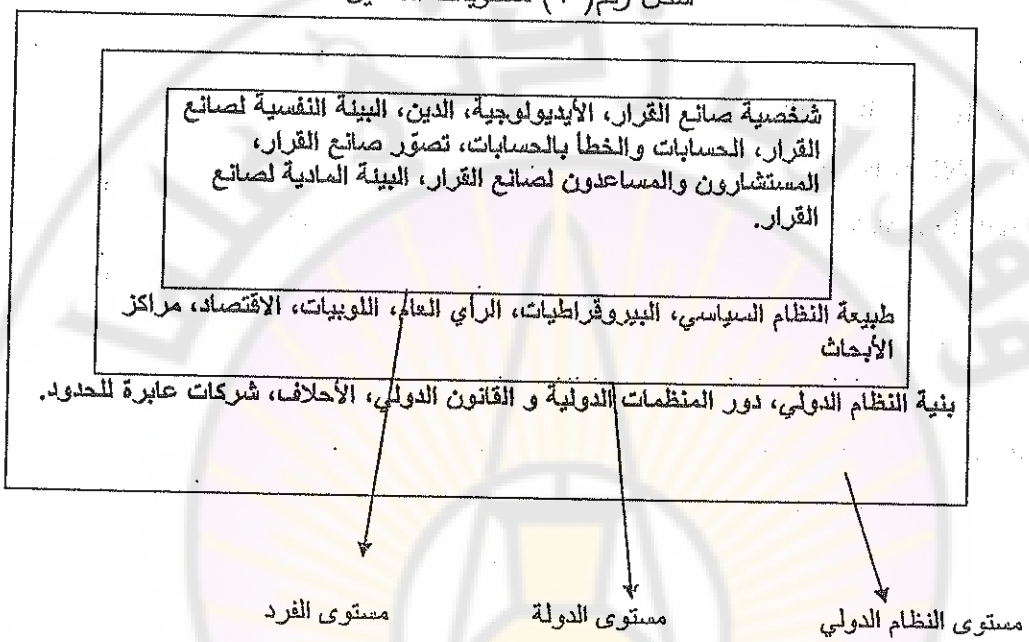

و بعد هذه المقدمة السريعة لأهم المفاهيم في العلاقات الدولية ننتقل الآن للحديث عن النظريات الوضعية في العلاقات الدولية، و بشكل سريع نظراً لطبيعة المقرر، فسيتم إعطاء فكرة سريعة عن هذه النظريات، و أهم روادها، و تقويمها من ناحية قدرتها التفسيرية.

إبستمولوجيEpistemology ، مثودولوجيMethodology ، وأ نطولوجيOntology

ثلاثة مفاهيم يجب أن تكون واضحة لدى الطالب قبل البداية بتناول النظريات؛ لأن كل نظرية من النظريات التي سندرسها في هذا الكتاب لديها موقف من هذه المفاهيم الثلاثة. بعض النظريات تلتقي حول بعض المفاهيم، و بعضها يختلف حسب افتراضاتها الأساسية ورؤيتها للمعرفة العلمية، وطريقة الحصول عليها أو المفاهيم، والحقائق، و طبيعتها، و وجودها.

المفهوم الأول Epistemology يتعلق بنظرية المعرفة والحصول عليها، ومن أين تأتي، وهي جزءٌ من الجدل حول فلسفة العلم بشكل عام. بينما المفهوم الثاني Methodology يشير إلى الطرق و المنهجية المتبعة للحصول على المعرفة، في حين المفهوم الثالث Ontology يتناول موضوعاً في غاية الأهمية، وهو ماهية الأشياء ووجودها كما يفترضها أو يتصورها الباحث. فمثلاً: يفترض أتباع الواقعية الجديدة وجود نظام دولي تغيب عنه السلطة المركزية التي ينتج عنه المعضلة الأمنية، و سلوك الدول بالاعتماد على الذات Self-help.

فالأنطولوجي تعنى بحقيقة وجود مثل هذا النظام، وإذا وجد ماهي طبيعته: هل هي مادية؟ كما يراها الوضعيون أم اجتماعية؟ كمايراها البنائيون وأتباع مابعد الوضعية. الشكل التالي يوجز هذه المفاهيم

شكل (٢) المفاهيم الأساسية

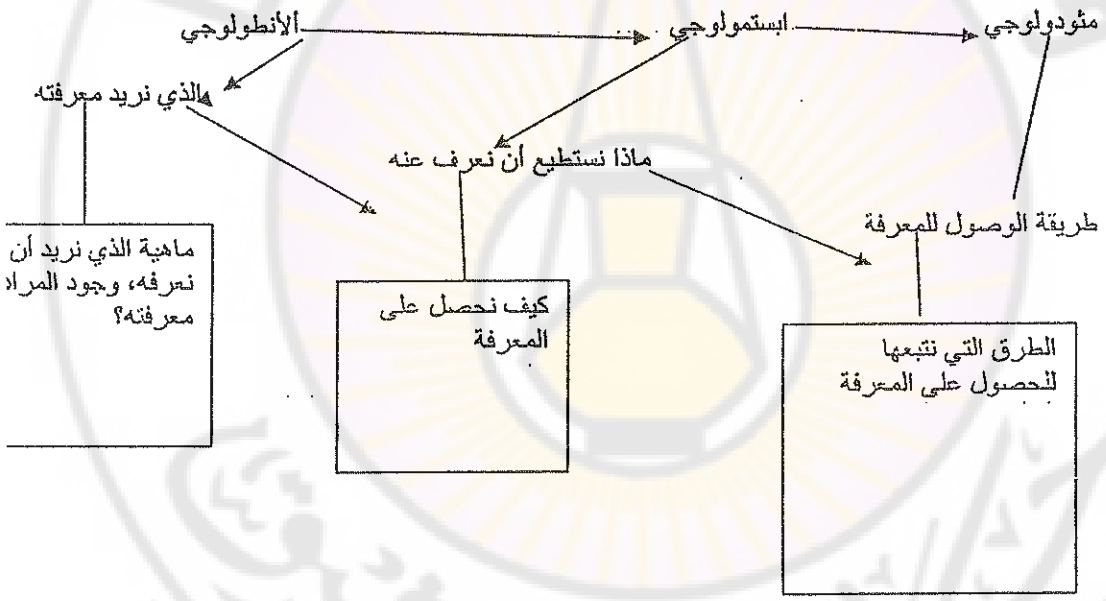

خاتمة:

في هذا الفصل حاولنا إعطاء لمحة سريعةعن تطور علم العلاقات الدولية الذي نشأ بعد الحرب العالمية الأولى، حيث سيطر على بداياته التيار المثالي من جهة، والتيار الواقعي من جهة أخرى. إلا أن الجدل حول دراسة العلاقات الدولية انتقل ليصبح بين المدخل التقليدي والمدخل

السلوكي. وفي النصف الثاني من القرن العشرين برز الجدل الثالث بين الواقعية الجديدة والليبرالية الجديدة، وأخيراً مع نهاية القرن العشرين تبلور الجدل الراهن بين النظريات الوضعية ونظريات ما بعد الوضعية. كما اهتم الفصل الأول بتقديم بعض المفاهيم الأساسية للدارس مثل النظرية، البرادايم، مستويات التحليل، الإبستمولوجي، المثودولوجي و الأنطولوجي. كما حاول الفصل الاول الإجابة على السؤال المطروح، و هو هل نحتاج إلى نظرية في العلاقات الدولية؟ و قد تم سرد بعض الحجج على ضرورة وجود نظرية في دراسة أي علم من العلوم.

مفاهيم ومصطلحات مهمة في الفصل الأول:

النظرية – البرادايم – التصور – الإبستمولوجي – الأنطولوجي– الجدل الأول في العلاقات الدولية– الجدل الثاني في العلاقات الدولية– الجدل الثالث في العلاقات الدولية– الجدل الراهن في العلاقات الدولية– الوضعية – مابعد الوضعية– مستويات التحليل– المثالية– الواقعية– المعضلة الأمنية.

أسئلة للدراسة:

١–عرف المفاهيم التالية: الإبستمولوجي، الأنطولوجي، البرادايم، الدولة، السيادة، المعضلة الأمنية

٢–يعتقد البعض بأننا لسنا بحاجة للنظريات لدراسة العلاقات الدولية. هل تتفق مع هذا الرأي؟ ولماذا؟

٣–ماالفرق بين السياسة الخارجية والعلاقات الدولية؟

٤–ماهي افتراضات الوضعية؟

٥– ماهي أهمية مستويات التحليل في العلاقات الدولية؟

الفصل الثاني

الواقعية: Realism

لقد سيطرت النظرية الواقعية على دراسة العلاقات الدولية خلال العقود الستة الماضية. وإذ نقول ذلك لا يعني أن النظرية بحد ذاتها جديدة أو وليدة القرن الماضي، بل على العكس من ذلك إن جذور النظرية الواقعية تعود إلى آلاف السنين، وبالتحديد حسب رأي العديد من الباحثين في مجال العلاقات الدولية إلى أيام الإغريق حيث يُعد كتاب حروب البلوبنيز للمؤرخ ثيوسيديدس Thucydides "The Peloponnesian war أول مرجع في العلاقات الدولية يحتوي بين ثناياه العديد من المفاهيم التي ما زالت تستخدم في دراسة العلاقات بين الدول في أيامنا هذه. فقد كتب ثيوسيديدس قائلاً: "إن الأسباب الحقيقية للحرب بين إسبارطا وأثينا هو تعاظم قوة أثينا والخوف الذي زرعه هذا التعاظم لدى إسبارطا"[٢٨]. وبهذا القول نجد ثيوسيدس يفرق بين ما يمكن أن نسميه السبب أو الأسباب المباشرة والأسباب الحقيقية أو غير المباشرة للحروب، فهو يقول إن السبب الحقيقي يكمن في تعاظم قوة أثينا، أي أن الأسباب المباشرة ما كانت إلا الحدث الذي أشعل فتيل الحرب، ولكن الأسباب الحقيقية هي تعاظم القوة والخوف الذي زرعه هذا التعاظم لدى إسبارطا التي أخذت في التخطيط لحرب وقائية بناء على رؤية مستقبلية للخلل في ميزان القوى بين الدولتين (المدينتين). ونجده يتحدث في مكان آخر حول الحوار بين أثينا وميلوس حيث يطلب قادة أثينا استسلام ميلوس بدون قتال، وفي المفاوضات التي دارت - التي سوف نفرد لها قسماً خاصاً في نهاية هذا الفصل. يقول القادة من أثينا إن نتائج الحروب تفرض على الخاسر أن يقبل بما يفرض عليه. ويضيف المفاوضون من أثينا بأنهم الأقوياء والقوي يستطيع أن يعمل ما يريد، و يحصل على ما يمكن لقوته أن تعطيه وعلى الضعيف أن يقبل، ويفعل ما يفرض عليه. ففي هذا القول وكان ثيوسيديدس يلخص النظرية الواقعية بسطور بسيطة ويقول إن العلاقات بين الدول هي علاقات تنافس، والقوي يفرض شروطه، و الضعيف يجب أن يقبل بوضعه، وبالشروط المفروضة عليه.

فمفهوم القوة وتوازن القوى والصراع بين الدول الذي لا يوجد من ينظمه والمعضلة الأمنية التي تواجهها هذه الدول، كلها مفاهيم وأسس للنظرية الواقعية[٢٩]، ما زالت تشكل أدوات التحليل الأساسية في رؤية هذه النظرية للعالم. وعلى الرغم من أن تاريخ هذه النظرية، وسجلها يزخر بأسماء عظيمة ساهمت في تطور هذه النظرية أمثال ميكيافيلي - وكار - ومورغانثاو، وكسينجر وفيما بعد ما أصبح يعرف بالواقعية الجديدة التي تضم أسماء، مثل: كينيث ولتز وجون ميرشايمر وروبرت غلبن

---

28 Thucydides, The peloponse war. Prinçeton,New Jersy,1967

29 مرجع سابق.

وجوزف غريغوا التي سوف نتحدث عنها بشيء من التفصيل في قسم الجذور الفكرية للنظرية الواقعية في القسم الثاني من هذا الفصل. إلا أنه لابد لنا من إعطاء لمحة سريعة عن تطور هذه النظرية خلال القرون والعقود الماضية.

على الرغم من أن كار كان أول من وجه، وبشكل كبير النقد للفكرة المثالية في دراسة العلاقات الدولية حين أشار في كتابه أزمة العشرين عاماً The Twenty years Crisis أن ميكيافيلي حوى في كتابه المبادئ الأساسية للنظرية الواقعية التي يلخصها كار في ثلاثة مبادئ:

الأول: هو أن التاريخ عبارة عن تعاقب من الأسباب، والتأثير، والنتائج والذي لا يمكن فهمه -أي مسيرة التاريخ وهذا التعاقب- إلا بالدراسة الجدية للواقع وليس بضرب من الخيال والتأملات والرغبات.

الثاني: أن النظرية لا تخلق التطبيق أو الواقع بل الواقع يخلق النظرية.

الثالث: السياسة ليست وليدة الأخلاق، والقيم، والمبادئ، بل على العكس القيم، والأخلاق وليدة القوة[٣٠].

وكما ذكرنا سابقاً أن كار Carr كان من أكثر الباحثين في العلاقات الدولية تنظيماً، وتأثيراً في نقده للتيار المثالي في دراسة العلاقات الدولية. وفي كتابه المذكور سابقاً الذي يعد من أفضل الكتب في مجال العلاقات الدولية يبحث عن الأسباب التي تجعل الدول تتصرف بشكل دون الآخر، ويجد ذلك في المصلحة الذاتية أو الوطنية لكل دولة، وبنية النظام الدولي الذي تتعامل من خلاله الدول بعضهامع بعض، ويقول بأنه لا يوجد هناك نوع من التناغم والانسجام والهرمية في المصالح بين الدول؛ إنما هناك نوع من تضارب المصالح وإن القوة هي المعيار الأساسي الذي تجده الدول مفيداً لتحقيق أهدافها وحماية مصالحها الوطنية[٣١].

و ينتقد Carr نظام الأمن الجماعي الذي أُسس على أنقاض الحرب العالمية الأولى الذي اعتمد النظرية المثالية على قاعدة التنظيم الدولي، أي بناء منظمة دولية تساهم في تنظيم العلاقات بين الدول، وهي عصبة الأمم. ويرى كار بأن هذه التجربة تشير إلى أن النظرة المثالية في بناء نظام دولي يكون له مقومات الاستمرار والاستقرار لا يمكن تحقيقها، والخطوة أو المدخل الوحيد أو الطريق الوحيد لمثل هذا النظام أي نظام دولي له مقومات الاستقرار يجب أن يقوم على التوازن في القوى ويقوم على الواقعية وليس المثالية. ومع انتهاء الحرب العالمية الثانية أخذت النظرية الواقعية دفعة وزخماً جديداً، وظهرت كتابات عديدة، وأهمها كتاب هانس موغنثاو السياسة

30 Edward Halt Carr, The twenty years' crisis 1919-1939, 2d ed. (London: Macmillan 1946, p. 63-4).

31 مرجع سابق، ص٨-٨٧.

بين الأمم الذي نشر عام ١٩٤٨ (Hans Morgenthau, Politics Among Nations) الذي يعد المرجع الأساسي للواقعية الكلاسيكية الجديدة.

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية تكاد أن تكون الهيمنة كاملة للنظرية الواقعية في العلاقات الدولية. وأن الجدل والحوار الفكري عكس دائماً هذه الهيمنة لهذه النظرية، فجعل ما كتب من كتب ودوريات في تلك الفترة إما مع الواقعية أو محاولة لنقد هذه النظرية، وأغلب الكتابات تقع في مجال التأييد للنظرية الواقعية.

يستخدم العاملون في مجال العلوم الاجتماعية مجموعة من المفاهيم والفرضيات والنظريات لدراسة الظاهرة الاجتماعية أو لوصف عالم معقد، وبذلك يسهل عليهم التعامل مع هذا العالم. وأتباع النظرية الواقعية في العلاقات الدولية يستخدمون مفاهيم وافتراضات تساعدهم في إعطاء تصور لهذا العالم، وتقدم تفسيراً لسلوك الدول. وأهم هذه الافتراضات الآتي:

الافتراضات الأساسية للنظرية الواقعية

١- الدولة – الأمة Nation- State تشكل الوحدة الأساسية للتحليل في العلاقات الدولية Main Actor يشدد أتباع النظرية الواقعية على أن الدولة- الأمة تشكل الفاعل الأساسي في العلاقات الدولية، ويعترف هؤلاء الباحثون بوجود قوى فاعلة أخرى في النظام الدولي إلا أن هذه الوحدات، مثل: المنظمات الدولية، ومنظمات غير حكومية، وشركات متعددة الجنسيات... الخ تؤدي دوراً ثانوياً إذا ما قورن بدور الدولة؛ لأن جميع هذه القوى الفاعلة - غير الدولة - تتضوي بشكل أو بآخر تحت لواء أو عمل الدولة.

٢- يفترض إتباع النظرية الواقعية أن الدولة تشكل وحدة متكاملة، أي ما يسمى Unitary actor. يصر الواقعيون أو أتباع هذه النظرية أن الدولة دائماً تتصرف وكأنها فاعل واحد على الرغم من وجود العديد من مراكز القوى، واتخاذ القرار في الدولة. مهما كان هناك تباين في وجهات النظر داخل الدولة بين البيروقراطية أو مؤسسات تساهم في صنع القرار في النهاية سوف يحل هذا الخلاف لتصبح الدولة تتكلم بصوت واحد، وهذا يعني أن الدولة تشكل الفاعل الأساسي في العلاقات الدولية.

٣- الفرضية الثالثة للنظرية الواقعية هي أن هذه الدولة التي تشكل الوحدة الأساسية بأنها تتصرف بشكل عقلاني Rational Actor. أي أن الدولة - الأمة - كلاعب وفاعل في العلاقات الدولية لها أهداف، ومصالح، و تتصرف بشكل عقلاني، أي توازن بين الربح والخسارة في كل تصرف تتصرف به هذه الدولة. وبالوقت نفسه يعترف أتباع هذه النظرية بوجود البيئة التي تسمى عدم الوضوح Uncertainty واختلاف وجهات النظر والعوامل المؤثرة بها إلا أن الدول سوف تتصرف وتتخذ أفضل القرارات من بين جميع الخيارات الموجودة. أي أن هناك عادةً خيارات عديدة أمام الدول وحسب النظرية الواقعية أن الدول تدرس جميع هذه الخيارات، وتأخذ،

وتختار، الأفضل بناءً على قرار عقلاني. وليس للعاطفة والأيديولوجية أثرٌ كبيرٌ في ملء هذا الاختيار.

٤- من بين العديد من القضايا التي تواجه الدولة الأمن القومي (National security) يأتي في قمة هذه القضايا. والقوة العسكرية والسياسية التي عادة يشار إليها بالسياسة العالية أو العليا (High politics) تسيطر على اهتمامات وأولويات الدولة حسب ما يفترض أتباع النظرية الواقعية. فالدول في هذا الإطار تسعى إلى خدمة المصلحة الوطنية (National interest) المتمثلة ليس فقط بالسياسة العليا (high politics) الأمن القومي المتمثل بالبقاء لهذه الدولة بل أيضاً بالسياسات الدنيا (الخط الثاني) سياسات أدنى Low politics المتمثل بالتجارة، والأموال، والاقتصاد، والصحة.. الخ).

بمعنى آخر الدول تستخدم قوتها لتحقيق أهدافها على المستويات الأمنية والاقتصادية معاً. فأتباع النظرية الواقعية يعتقدون أن الصراع على القوة هو جوهر العلاقات الدولية كما ذكر هانس مورغنثاو (السياسة الخارجية كأي سياسة أخرى صراع على القوة)[٣٢].

٥-العلاقات الدولية تتم في ظل نظام دولي تغيب عنه السلطة المركزية، ويوصف "بالفوضوي" Anarchic .

٦- الدول تسعى إلى زيادة قوتها النسبية، وليس المطلقة.

الاتجاهات الفكرية داخل النظرية الواقعية

الحقيقة أن الواقعية لاتشكل نظرية واحدة متجانسة؛ بل علة العكس،فقد تطورت الواقعية لتشمل خمسة أشكال من المداخل أو النظريات الواقعية. فهناك الواقعية الكلاسيكية، والواقعية الكلاسيكية الجديدة، والواقعية الجديدة، والواقعية الهجومية، والواقعية الدفاعية. كما ذكرنا سابقاً الواقعية التقليدية تركز على طبيعة الإنسان بأنها عدوانية، والإنسان أناني يعمل لزيادة مكاسبه الذاتية مهما كانت الوسائل. أفضل من مثل هذا التيار نيكولو ماكافيلي وسانت أوغستين وكارل فان كلوزوفتز. بينما الواقعية الكلاسيكية الجديدة فيركز أتباعها على المصلحة الوطنية والأمن القومي كعامل أساسي لسلوك الدول. يمثل هذا الاتجاه هانس مورغنثاو. والواقعية الجديدة ظهرت كنظرية بنيوية تركز على بنية النظام الدولي، وتوزيع القوة بين القوى العظمى كمصدر، ومحدد لسلوك القوى الفاعلة في النظام الدولي. يعد كينث ولتز مؤسس ورائد هذه النظرية التي طورها في كتابه نظرية السياسة الدولية. لقد تم الحديث في هذا الفصل عن هذه النظرية والنظرية الكلاسيكية بشكل أوسع. ولكن من المفيد هنا التمييز بين النظرية الواقعية الهجومية والواقعية الدفاعية؛ لأن كلاهما كان قد انفصل عن الواقعية الجديدة.

الواقعية الهجومية

الواقعية الهجومية هي نظرية بنيوية، أهم روادها جون ميرشايمر. تنطلق هذه النظرية من الافتراضات الآتية:

---

32 Hans Morgenthau, Politics Among Nations, 7th ed. New York: Knoff 1966, p. 25.

١- القوى العظمى اللاعب الأساسي في السياسة الدولية، والنظام الدولي الذي تغيب عنه السلطة المركزية.
٢- جميع الدول لديها بعض القدرات الهجومية.
٣- الدول تكون دائماً غير متأكدة من نوايا الدول الأخرى.
٤- الهدف الأساسي للدول هو البقاء.
٥- الدول فاعل عقلاني قادر على وضع استراتيجيات تزيد من قدرتها، وفرصها للبقاء.

أهم نقاط الاختلاف بين النظرية الواقعية الهجومية والواقعية الدفاعية هي أن الواقعية الهجومية تصور القوى العظمى بأنها تسعى دائماً إلى زيادة قوتها، هدفها التغيير الدائم، والبقاء في المركز الأول. كتب جون ميرشاير في كتابه مأساة سياسة القوى العظمى(Tragedy of Great Power Politics) أن طبيعة النظام الدولي تجعل الدول تتصرف بشكل عدواني وهجومي[٣٣]. هذا يعني أن الدول تسعى لزيادة قوتها بغض النظر عن شعورها بالأمن أم لا؛ لأنها لاتثق بالدول الأخرى، وهدفها أن تبقى الأقوى بين الجميع.

الواقعية الدفاعية:

كالواقعية الهجومية جاءت الواقعية الدفاعية نتيجة تطور في النظرية الواقعية الجديدة. أبرز رواد هذه النظرية ستيفن ولت (Stephen Walt) الأستاذ في جامعة هارفارد الذي كتب مع جون ميرشايمر كتاب اللوبي الصهيوني الذي شكل أول تحد في الوسط الأكاديمي لقوة هذا اللوبي في التأثير في السياسة الخارجية الأمريكية. كما كتب الاثنان مقالة بعنوان الحرب غير الضرورية منتقدين حرب الولايات المتحدة على العراق ٢٠٠٣. على الرغم من التعاون المشترك بين ميرشايمر و ولت إلا أن كلاً منهما وصل إلى نتيجة مختلفة حول طبيعة سلوك الدول، وأثر النظام الدولي فيها. فالأول كما رأينا يرى أن النظام الدولي يجعل الدول تتصرف بشكل عدواني وهجومي، بينما ولت يرى بأن الدول تسعى لزيادة قوتها للحفاظ على أمنها القومي، فإذا تحالفت مع الدول الأخرى، ووصلت إلى درجة من توازن القوى اكتفت وأصبحت مرتاحة بما يخص أمنها ، فالدفاع هو السلوك الأساسي للدول. كذلك يرى أتباع الواقعية الدفاعية بأن العوامل الداخلية للدول تلعب دوراً في تحديد السياسات للدول، بينما ينظر أتباع الهجومية إلى الدولة على أنها صندوق لا حاجة لفتحه، والنظر بما فيه. أي أن الهجومية لا تعطي المحددات الداخلية في السياسة الخارجية اهتماماً. نقطة اختلاف أخرى بين النظريتين هي اعتقاد الواقعية الدفاعية بأن وجود القدرة الردعية بما يسمى الضربة الثانية يجعل الدول أكثر أمناً، وهذا يحد من عدوانيتها وهجومها. إن القدرة على النجاة من الضربة الأولى، زالمقدرة على الرد، و إلحاق الأذى بالآخر يعطي الدولة نوعاً من الطمأنينة. بينما يرى أتباع الواقعية الهجومية أن الدول لا تقف عند الردع، بل هي دائماً تسعى للحفاظ على قوتها، وزيادة مقدرتها قدر الإمكان بغض النظر عن مصدر الخطر.

مما تقدم نجد أن النظرية الواقعية تركز بشكل كبير على القوة والصراع على القوة بين الدول، ولكن هذا لا يعني أن الواقعية ترفض دور القيم رفضاً باتاً، بل على العكس حتى مورغنثاو أكبر رواد الواقعية الكلاسيكية كان يهتم بشكل ما في دور القيم والمبادئ في العلاقات بين الدول. وكثيرون من أتباع النظرية الواقعية لا يرون في الواقعية الضد للمثالية المتمثلة في أهمية القيم والمبادئ والمثل في العلاقات

[33] Jhon Mearsheimer, Tragedy of Great Power Politics, Norton, New York, 2010, p. 23.

الدولية، بل يمكن القول إن الاختلاف هو على درجة التركيز، وإعطاء الأهمية لأي من هذه العوامل (القوة أم القيم والمبادئ)[٣٤].

الجذور الفكرية للواقعية:

كما ذكرنا سابقاً إن الجذور الفكرية للنظرية الواقعية تعود إلى قرون عديدة تعاقب من خلالها فلاسفة ومؤرخون وقادة وسياسيون ساهموا في وضع الأسس الفكرية الأولى للنظرية الواقعية. وأهم هؤلاء المفكرين ثيوسيديدس، وميكيافيلي، وهوبس، وكار، ومورغنثاو، وهنري كيسنجر الذين يمكن عدّهم رواد النظرية الواقعية وخاصة الكلاسيكية. بينما كينث والتر وجون ميرشايمر وروبرت غلين من رواد الواقعية الجديدة.

رواد الفكر للنظرية الواقعية الكلاسيكية:

ثيوسيديدس Thucydides

يعد ثيوسيديدس Thucydides بنظر الكثير من أتباع النظرية الواقعية أول رائد من رواد هذا التيار الفكري، وقد ارتبط اسمه بالنظرية الواقعية عبر الزمن. حتى إن البعض يسمي ثيوسيدس بالمؤسس الأول لعلم العلاقات الدولية[٣٥]. في كتابه حروب البلوبونيز يؤرخ ثيوسيديدس الحرب بين إسبارطا وأثينا وحلافهم لحرب طويلة دامت أكثر من ربع قرن. في هذا العمل الذي يعد كلاسيكياً يصور ثيوسيديدس الخوف، والرعب، والبطولة، والبطش والتنكيل، والنصر، والهزيمة كل هذه الصور الإنسانية التي أراد منها المؤلف أن يعطي القارئ دروساً للمستقبل يستفيد منها أصحاب القرار والقادة. وقد ذكر في مقدمة كتابه أن هدفه لم يكن مجرد سرد لوقائع وحوادث تاريخية تصف مرحلة معينة، وإنما كان الهدف أن يقدم للقائد العسكري، وصاحب القرار السياسي، وللقارئ بشكل عام درساً أو دروساً في القيادة والحرب وأسبابها[٣٦].
والحقيقة أن ثيوسيدس لم يخفق في ذلك، فقد وضع مؤلفاً ما زال يدرس بعد أكثر من ألفي عام.

ومن الجدير بالذكر أن ثيوسيديدس كان جنرالاً في الجيش الأثيني (أثينا) وكلف في حماية ثريس(مدينة صغيرة)، وعندما أخفق في ذلك عوقب من قبل القادة في أثينا ونفي لمدة خمسة وعشرين عاماً. وفي ذلك يرى العديد من الباحثين أن أثينا خسرت

34 Paul Viotti, Mark Kuppi, International Relations Theory; Positivism and Beyond, New York, Pearson, p. 34.

قائداً، ولكن العالم ربح مؤرخاً، ومفكراً استطاع بعمله، ومؤلفاته أن يمنح الأجيال القادمة من القادة والباحثين دروساً مهمة في التاريخ، وخاصة في أسباب الحروب.

خلال وجوده في المنفى لم ينقطع ثيوسيديدس عن مراقبة ودراسة الظواهر السياسية ودراستها وتحليلها، فقد كان شغوفاً بالفهم والتحليل وقد وضع دروس مستفادة من هذة الحروب للمستقبل فكتب يقول:

«إن هدفي في البداية هو إعطاء وصف لأسباب وادعاءات واحتجاجات الطرفين بعضهم على بعض، وخاصة بعض الحالات التي وصلت فيها مصالحهم لحد التناقض (يقصد بهذه الحالات الأسباب المباشرة بعض الأحيان للصراع...)» هذا يعني ألا يكون هناك أدنى شك لدى أي شخص حول الأسباب الحقيقية لهذه الحرب. ولكن السبب الحقيقي للحرب هو- برأيه- وجعلها حقيقة لا يمكن تجنبها هو تعاظم قوة أثينا، والخوف الذي زرعه هذا النمو في القوة ؟؟ لدى القادة في إسبارطا..) (أسباب غير مباشرة)[37] بهذه الكلمات يصف ثيوسيديدس الأسباب الحقيقية للحرب. فهو يرى أن الخوف لدى إسبارطا من تعاظم القوة لدى أثينا، وخوفها من تحول ميزان القوى لصالح أثينا جعل الحرب آتية لا يمكن تجنبها. إن هذا الوصف يشير إلى مفاهيم أساسية في العلاقات بين الدول، فالخوف من تحول ميزان القوى، والسياسة التي وجدت إسبارطا نفسها مجبرة على اتخاذها يمكن أن تكون خيارات أية دولة أخرى في وضعها. فيمكن لنا مثلاً إسقاط الوضع على الولايات المتحدة أو وبريطانيا أو أية دولة في النظام الدولي في صراع مع الدول الأخرى. ويعد الحوار بين أثينا و ميلوس صورة من الصور التي تعكسها علاقات دولة قوية بدولة أضعف منها. ولأهمية هذا الحوار نوجز اهم النقاط الأساسية فيه:

" الأثينيون: إذاً، ومن طرفنا فنحن لن نستعمل عبارات طلية كأن نقول مثلاً : لنا حق في بناء إمبراطوريتنا؛ لأننا هزمنا الفرس... ونطلب منكم ، من طرفكم، ألا تتخيلوا بأنكم سوف تؤثرون فينا بقولكم إنكم، بالرغم من كونكم إحدى مستعمرات إسبارطا، لم تنضموا إلى إسبارطة في الحرب، أو إنكم لم تلحقوا بنا قط أي أذى ... وأنتم تعلمون كما نعلم نحن أنه حين تبحث هذه المسائل من قبل أناس عمليين، فإن معيار العدالة يعتمد على تكافؤ القوة والقدرة على الإخضاع، وأنه في الواقع يفعل الأقوياء ما تمكنهم قوتهم منه فعله، و الضعفاء يقبلون ما عليهم أن يتقبلوا.

الميلوسيون: إذاً من وجهة نظرنا(بما أنكم تجبروننا على أن نبعد العدالة عن مجرى التخاطب، و على أن نحصر أنفسنا في نطاق المصلحة) ... ينبغي لكم ألا تقضوا على مبدأ يعود بالخير على البشر جميعاً، ألا وهو، أنه في حال جميع أولئك الذين يواجهون الخطر يجب أن يكون هناك شيء مثل العدل والإنصاف.

---

35 Thucydides, the peloponesian war.
36 Thucydides, The peloponesian war.
37 Thucydides, The peloponaesian War.

الاثينيون: نحن لا نريد أي متاعب في ضمكم إلى إمبراطوريتنا، و نريد أن تنجوا بأرواحكم لمصلحة كل من أنفسكم و أنفسنا.

الميلوسيون: وكيف يمكن أن تتساوى مصلحتنا في ان نكون العبيد ومصلحتكم في أن تكونوا السادة؟

الأثينيون: أنتم، بإذعانكم، ستنقذون أنفسكم من الكارثة، و نحن بعدم القضاء عليكم، سنتمكن من الإفادة منكم.

الميلوسيون: إذا فأنتم لاتوافقون على كوننا محايدين، أصدقاء بدلاً من ان نكون أعداء، لا حلفاء لا نوالي أياً من الطرفين؟

الأثينيون: لا ... لو كنا على صداقة معكم، لعدّ رعايانا ذلك دليلاً على ضعف لدينا، في حين أن بغضكم (لنا) دليل على قوتنا ... بحيث إننا بغزوكم لن نوسع حجم إمبراطوريتنا فحسب؛ بل نوسع نطاق أمنها أيضاً.

الميلوسيون: لكن هل تظنون أنه ليس هناك أمن لكم فيما نعرضه (عليكم)؟ فهنا أيضاً، بما أنكم لن تسمحوا لنا بأن نتطرق إلى ذكر العدالة؛ بل تطلبون منا أن نذعن لمصالحكم، نحن، كذلك، يجب أن نبلغكم ما هي مصالحنا، وإذ تصادف أن التقت مصالحكم ومصالحنا، فيجب أن نسعى إلى إقناعكم بالحقيقة الواقعة. أليس مؤكداً أنكم ستجعلون جميع الدول التي تقف في الوقت الحاضر على الحياد أعداء لكم، حين تشاهد تلك الدول ما يجري هنا و تستنتج بطبيعة الحال أنكم بمرور الزمن سوف تهاجمونها أيضاً؟ ... ومع هذا فإننا نعلم أن الحظ، في حالة الحرب، يقلب الموازين أحياناً و يجعلها أكثر تكافؤاً.

الأثينيون: الأمل، ذلك الشيء المريح وقت الخطر!

الميلوسيون: إننا نثق بأن الآلهة ستهبنا حظاً طيباً كحظكم؛ لأننا ننهض لما هو حق ضد ما هو باطل، أما فيما يخص ما يعوزنا من قوة، فإننا نثق بأن هذا سيعوض بفضل تحالفنا مع الإسبارطيين، الذين لا بد، إن لم يكن لأي سبب آخر، فمن أجل الشرف، ولأننا من أبناء جلدتهم، أن يهبوا لنجدتنا.

الأثينيون: أما في ما يخص رضى الآلهة، فإننا نعتقد بأن لنا حقا فيه يعادل حقكم... إن رأينا في الآلهة ومعرفتنا بالبشر يجعلاننا نستنتج بأن من القوانين العامة واللازمة للطبيعة أن يسود المرء على كل ما يستطيع. و هذا ليس ناموساً اوجدناه نحن بأنفسنا، ولا نحن أول من عمل به حين وجد؛ بل وجدناه قائما أصلاً، و سنتركه قائماً إلى الأبد لدى أولئك الذين يأتون بعدنا. إننا نعمل بموجبه و حسب، و إننا لنعلم أنكم أنتم أو أي طرف آخر يملك القوة ذاتها التي نملكها سيتصرف بالضبط على النهج نفسه.

ولهذا، وما دام الأمر تعلق بالآلهة، فإننا لانرى سبباً وجيهاً يجعلنا نخشى أن نكون من المغضوب عليهم، ولكن فيما يتعلق بآرائكم عن إسبارطا وثقتكم بأنها، بدافع من

الشرف ستهب لمساندتكم، فما علينا إلا أن نقول: إننا نهنئكم على تبسيطكم الأمور، لكننا لا نحسدكم على غبائكم ... فنحن أعلم من الجميع بأن الإسبارطيين أكثر ما يعرف عنهم أنهم يعتقدون بأن ما يحلو لهم فعله هو الأمر المشرف، وأن ما يلائم مصالحهم هو العدل.

الميلوسيون: لكن هذه هي النقطة بالذات التي يمكننا أن نشعر أكثر بالاطمئنان حيالها. فمصلحتهم الذاتية هي نفسها التي ستجعلهم يرفضون خيانة رعايا مستعمراتهم، (نحن) الميلوسيين.

الاثينيون: يبدو أنكم تنسون أن المرء إذا سعى وراء مصلحته الذاتية، فهو يريد أن يكون سالماً في مأمن، في حين أن سبيل العدالة و الشرف يورد المرء موارد الخطر... لا تجعلوا إحساساً زائفاً بالشرف يضلكم عن سواء السبيل... وأنتم، إن اتبعتم سديد الرأي، ستحرصون على أن تجتنبوا ذلك. وأنتم، إن خيرتم في أن تختاروا بين الحرب والسلامة، فلن تكونوا متصلفين بلا تعقل إلى حد أن تسيئوا الاختيار. وسترون أن ليس هناك ما يشين في الإذعان لأعظم مدينة في هيلاس (بلاد الاغريق) حين تمنحكم مثل هذه الشروط المعقولة: التحالف على أساس دفع الجزية والحرية في أن تتمتعوا بممتلكاتكم الخاصة. هذه هي القاعدة السليمة: مناهضة الأنداد، و التصرف باحترام تجاه الأسياد، والاعتدال في معاملة من هم أدنى شأناً.

الميلوسيون: قرارنا، أيها الاثينيون، هو تماماً نفسه كما كان أولاً. إننا لسنا على استعداد لأن نتخلى في لحظة وجيزة عن الحرية التي تمتعت مدينتنا بها منذ تأسيسها و على مدى سبعمئة عام.

الاثينيون: يبدو لنا ... أنكم ترون الغوامض حقائق؛ لأنكم ببساطة ترغبونها أن تكون كذلك.[38]

ميكيافيلي (١٤٦٩-١٥٢٧) Machiavelli:

نيكولو مكيافيلي فيلسوف وسياسي إيطالي استفاد من الحضارة الإغريقية، وكتب في فترة مشابهة للفترة التي عاش فيها ثيوسيديدس من حيث البنية السياسية للمجتمع. فقد كانت المدينة الدولة هي الوحدة الأساسية (السياسية) في كلا الفترتين. ومثل ثيوسيديدس كان ميكيافيلي شغوفاً بالسياسة، وخاصة إذا عرفنا أنه كان موظفاً ودبلوماسياً حتى سقوط جمهورية فلورانس عام ١٥١٢، فقد كتب حول (القوة وتوازن القوى - والأحلاف وطبيعة وظروف نشوء الأحلاف.. والأسباب الأساسية للصراعات بين المدن..) إلا أن أبرز ما جاء في كتابات ميكافيلي كان تركيزه على ما يسمى بالأمن القومي: والمتمثل برأيه في النظام السياسي والحاكم؛ أي البقاء للنظام

[38] جون بيليس و ستيف سميث، عولمة السياسة العالمية، ترجمة مركز الخليج للأبحاث، دبي، ٢٠٠٤، ص٢٣٠-٢٣٢

وللدولة. ويرى ميكافيلي أن الحاكم يمكن أن يخسر حكمه ودولته إذا أخفق في التعامل مع الظروف والتحديات بشكل واقعي. فمصطلح Realpolitik الألماني الذي يعني السياسة الواقعية القائمة على القوى كانت برأيه المعيار الأساسي في العلاقات بين الدول (المدن).

وفي كتابه الأمير the prince الذي أهداه إلى حاكم فلورنس (لورنزو ـ دي متيشي لخص ميكافيلي المنهج الذي اقترحه على الأمير أي خطة عمل برأيه، وفيها النصائح للأمير كيف يحصل على القوة، وكيف يحافظ عليها، وكيف يوسع نفوذه وقوته. إلا أن النقطة التي أثارت الكثير من النقاش وما زالت تعتبر محط الكثير من الجدل هي أن الأمن القومي، ومتطلباته يأتي في الأولوية للحاكم، ويعطي الحاكم الحق في اتخاذ بعض الإجراءات التي قد تكون ممنوعة أو غير جائزة في بعض الحالات، أي استخدام فقط طرق الحاكم يمكن أن يستخدمها للحفاظ على أمن الدولة[٣٩].

إن هذه السياسة أو المنهج الذي سمي بالمكافيلية نسبة له (ميكافيلي) أصبحت رمزاً للقول السائد الغاية تبرر الوسيلة. وبالطبع ظهرت العديد من الانتقادات لمثل هذه السياسة التي يراها البعض أنها غير أخلاقية. ولكن السؤال هنا ماهي السمات أو المحددات لمفهوم المنهج الأخلاقي؟ هناك في الحقيقة نقطة مهمة يجب التنويه إليها وهي هل الأخلاق تعني مجموعة القيم الدينية المتعلقة بسلوك الفرد أي ألا يبطش، لا يقتل، الفرد ولكن ؟؟ أيضاً من الأخلاقي أن يقوم الحاكم بمهامه كقائد للدفاع عن أمن الوطن، ويؤمن سلامة الأفراد جميعاً وإن كانت بعض الأحيان تستلزم هذه الغاية استخدام بعض الأدوات القاسية. وفي هذا المضمار يرى أساتذة العلاقات الدولية أن التعبير الأصح لوصايا ميكافيلي هو على الشكل الآتي:

إن الحاكم يجب أن يكون جيداً إذا استطاع ولكن بالوقت نفسه يجب أن يكون قاسياً يبطش، ويستخدم القوة إذا دعت الحاجة إلى ذلك[٤٠]. في سبيل أمن الدولة، إلا أن المساهمة الكبرى التي تعد ركيزة من ركائز النظرية الواقعية؛ وهي نظرية ميكافيلي للظاهرة، وطريقة دراستها، فقد انطلق من الواقع كما هو، وليس كما ينبغي أن يكون عليه[41] "As it is Not As it ought to be.

وهذه النقطة تعد جوهر النظرية الواقعية، وهي رفض المثالية، ورفض التصورات المبنية على أفكار فلسفية أو أخلاقية حول النظام الدولي، والعلاقات الدولية. ومن الجدير بالذكر أيضاً أن ميكافيلي إذا كرس المنهج الواقعي ووضع أسساً متينة للنظرية الواقعية لم يدعُ إلى استخدام القوة من دون سبب أو لمجرد استخدامها لكنه دعا إلى استخدامها فقط للمصلحة العليا للدولة؛ والمتمثلة بالبقاء والأمن.

---

39 Paul R. Viotti, Mark V. Kauppi, International Relations. Theory: Realism, Pluralism, Globalism, New York, Mac Milan, 1987, p. 36.

40 Paul Viotti, Mark Kuppi, p. 37. مرجع سابق

41 مرجع سابق، ص٣٨.

توماس هبوس Thomas Hobbes:

تأتي أهمية توماس هوبس من كونه فيلسوفاً قدم تصوراً للمجتمع البشري من دون سلطة مركزية، وسما هذا الوضع حالة الطبيعة State of nature. وعلى الرغم من اعتراف هوبس من أن مثل هذا الوضع لم يكن موجوداً، وأن تصوراً وضعه كي يرى حالة العلاقات بين الأفراد في المجتمع من دون حكومة أو سلطة قوية تستطيع أن تعاقب الظالم وتنصف المظلوم إلا أنه أراد أن يطرح هذه التساؤل أمام العامة. ماذا سيكون عليه الوضع في مثل هذه الحالة من غياب سلطة مركزية تستطيع أن تجبر الكل في المجتمع على تنفيذ عقودهم والتزاماتهم تجاه المجتمع والآخرين إلا أن هذا التصور يعد أساساً من أسس النظرية السياسية في عهده.

لقد عاش توماس هوبس في قرنين، فقد ولد عام ١٥٨٨ وتوفي عام ١٦٧٩. نشأ هوبس في بريطانيا، ودرس في أكسفورد، وعمل مدرساً خاصاً لأحد أبناء إحدى العائلات النبيلة قبل أن ينتقل إلى فرنسا ثم عاد إلى بريطانيا (England) عام ١٦٥٢.

ففي كتابه Leviathan ليفيثان الذي يعد دراسة في السياسة المحلية، ولكن تطبيقاته، والدروس المستفادة منه تتعدى النطاق المحلي إلى السياسة الدولية والعلاقات بين الدول.

فقد جسد وأبرز الحاجة إلى ضرورة وجود سلطة سياسية قوية مركزية، وأنه من دون مثل هذه السلطة يكون الخوف، والفقر، وعدم الشعور بالأمان السمة الأساسية لحياة الأفراد التي ستكون نصره أيضاً[42]. فهو يقول إن مثل هذه السلطة السياسية إن لم تكن موجودة يجب أن يسعى أفراد المجتمع إلى إيجادها؛ لأنها الضمان الوحيد لأمنهم، وسلامتهم، واستمرار الحياة الاجتماعية بينهم و من دون هذه السلطة إن مقومات الحضارة سواء أكانت اقتصادية أم سياسية أم فنية أم معرفية تغيب، ولن توجد.

أما تطبيقات نظرية هوبس في العلاقات بين الدول يمكن أن يكون في التشابه بين ما أسماه هوبس بغياب السلطة السياسية المركزية التي تسمى في العلاقات الدولية ANARCHY.

فالعلاقات الدولية تتم في ظل نظام دولي تغيب عنه السلطة المركزية، ولذلك فهو أشبه بالتصوّر الذي وضعه هوبس حيث يسود الخوف، والرعب، وعدم الثقة، وعدم الوضوح، وعدم الشعور بالأمان في العلاقات الدولية، حيث إن هذه الدول تتمتع

---

42 Thomas Hobbes, Leviathan, edited by Oakeshattl, New York, Collier Mac-Milan, 1974, Book 1, chapter, 13. .

بسيادة داخلية وخارجية يجعلها متساوية جميعاً ولا تعترف بسلطة أعلى منها، وهي في صراع دائم مع بعضها بعض ونجده يقول:

«في كل الأزمنة: الملوك والوحدات السياسية المستقلة ذات السيادة في حالة مستمرة من الغيرة، وفي صراع، وتنافس. أسلحتهم مسلطة، وعيون بعضهم على بعض، ومدافعهم، وبنادقهم على حدود ممتلكاتهم، والتجسس على الآخرين؛ وبالأخص جيرانهم وهذا يعد حالة من حالات الحرب»[43]. هذه الحالة التي يعتقد الواقعيون أن الدول تتصرف من خلالها.

كارل فون كلوزوتز Karl Von Clausewitz:

صاحب القول المشهور «الحرب هي استمرار للسياسة، ولكن بوسائل أخرى» يعد من أبرز من كتب في أسباب الحروب، وآثارها، والاستراتيجيات المتبعة للحصول على أكبر قدر من النتائج، وإلى الوصول إلى الأهداف المرجوة. ولد كلوزوتز عام ١٧٨٠ وتوفي عام ١٨٣١ وكان ضابطاً برتبة عميد في الجيش البروسي. وقد خدم خلال الحروب النابليونية. كان يعتقد دائماً أن العوامل، والمقومات العسكرية للدولة مهمة جداً، ولكن يجب أن تخضع للسياسة، فالأداة العسكرية هي وسيلة كما ذكر لتحقيق الأهداف؛ ولكن بطريقة أخرى.

لقد كتب كتابه خلال الفترة الواقعة بين ١٨١٥ و١٨٣٠ ولم ينهي كتابه في الحروب On War: مما لا شك فيه أن مساهمة كارل كلوزوتز تعد من المساهمات المهمة للمدرسة الواقعية حيث يعد من أوائل من طرح أولوية الأمن القومي على بنية أهداف الدول.

كار E.H Carr (Edward Hallett Carr):

في مقدمة هذا الفصل تم التنويه إلى كتاب كار الذي يعد بنظر العديد من أساتذة العلاقات الدولية من أفضل الكتب في هذا الحقل. فقد أتم هذا الكتاب في صيف عام ١٩٣٩ والحرب العالمية الثانية على الأبواب، ولكنه لم يكن يركز على الأسباب المباشرة للحرب فقط؛ أي الأسباب التي أدت إلى نشوب الحرب سواء شخصية تتعلق بشخص هتلر أو بأسباب أخرى مباشرة؛ إنما كان يعنى بشكل أساسي بالأسباب الحقيقية أو غير المباشرة للحرب، كما فعل ثيوسيديدس في كتابه حرب البلونيز[44]. لقد اعتقد كار أنه من دون تحليل ودراسة الأسباب الحقيقية للحرب ،بنظرة، لا يمكن أن نفهم كيف جاءت الحرب العالمية الثانية فقط بعد عشرين عاماً فقط من توقيع معاهدة فرنسا في عام ١٩١٩.

---

43 مرجع سابق Book I, Chapter 13, p. 101

44 E.H. Carr, The Twenty Years Crisis, 1919-1939, London, Harper, 1939, p. 11.

يشير كارفي تحليله للأسباب الحقيقية للحرب العالمية الأولى إلى الخوف من اختلال توازن القوى، وكذلك شارك كار ميكافيلي وهوبس في أهمية الأمن وأهمية القوة. فهو يشير إلى أن امتلاك القوة، وممارستها يجر الرغبة إلى المزيد من القوة، ومن ثم إلى الصراع من أجل الحصول على المزيد من عوامل القوة. وهذا ما يقود إلى الشعور بالخطر على الدول الأخرى، والسعي إلى تحقيق أمنها، ودفع الحرب، والعدوان.

ويفرق كار بين السياسة الداخلية للدولة Domestic politics والسياسة الخارجية International politics كما يفعل أتباع النظرية الواقعية. حيث يشير إلى أن السياسة الخارجية بعكس السياسة المحلية تتم في بيئة تغيب عنها سلطة تنظم مركزية مشابهة للسلطة المحلية أو الحكومة المركزية التي تقوم بتنفيذ القوانين والسياسات، وتخلق ما يمكن أن نسميه انسجاماً في المصالح Harmony.

الحقيقة أن كار يعد من رواد النظرية الواقعية كما أشار إليه من غياب السلطة المركزية والتركيز على القوة والمصلحة الوطنية إلا أنه أيضاً فيه من السمات ما جعل أتباع النظرية الليبرالية عده أيضاً من روادها وأحد جذورها الفكرية. لما أشار إليه من كتابات حول دور المنظمات الدولية، وإشارته إلى دور القيم في العلاقات الدولية، والقانون الدولي، ولكن السبب الحقيقي الذي جعله يعد من رواد النظريتين هو أسلوبه وطريقته في الكتابة حيث نهج المنهج المقارن فنجده، يعطي نقاط القوة ونقاط الضعف لكلا التيارين المثالي والواقعي[45].

إلا أن المساهمة الكبرى جاءت للنظرية الواقعية حيث أشار كسابقيه من المفكرين أمثال ثيوسيدس وميكافيلي إلى أهمية مفاهيم مثل المصلحة والخوف والقوة في سلوك الدول.

هانس مورغنثاو Hans Morgenthau:

يعد هانس مورغنثاوو أول من حاول وضع أسس علمية لدراسة العلاقات الدولية حيث يعد كتابه السياسة بين الأمم (Politics Among Nations) (١٩٤٨) مرجعاً أساسياً في دراسة السياسة الدولية، فقد جاء الكتاب بعد الحرب العالمية الثانية ليعطي دفعة قوية للنظرية الواقعية ويعزز مصداقيتها ويشكل مرجعاً أساسياً للسياسة الخارجية الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية في فترة الحرب الباردة.

ينطلق مورغنثاو من دعوة كار إلى إقامة علم العلاقات الدولية ويأخذ المنهج الوضعي لدراسة السياسة الدولية. فنجد مثلاً تعريف مورغنثاو لمفهوم النظرية متأثراً بشكل كبير بالعلوم الطبيعية أي أنه يعتقد أن هذا حقيقة يمكن اكتشافها بالملاحظة والتجريب وأن النظرية يجب ألا تبدأ من أفكار مسبقة وإنما تبدأ من الملاحظة للواقع.

---

45 E.. H. Car, Ibid. p. 41.

ربما يكون مورغانثو في المبادئ التي تقدم بها حول النظرية الواقعية أكثر منظّري الواقعية وضوحاً وصراحة.

أولاً: إن العلاقات السياسية محكومة بقواعد موضوعية تضرب بجذورها في أعاق الطبيعة البشرية، وأية محاولة لتحدي هذه القواعد تحت أية ذريعة لن يكون نتيجتها إلا الفشل، وحيث إن هذه القواعد مستقرة ولا يمكن أن تتغير فإن الحتمية المترتبة على ذلك هي أن المجتمع لن يتطور إلا بفهم هذه القواعد وبناء السياسة العامة على أساس هذا الفهم.

وفي التنظير للسياسة الدولية، من الضروري أن نوظف المعلومات التاريخية لتفحص الأعمال السياسية ونتائجها، وفي تأطير هذه المعلومات الهائلة، على الباحث السياسي أن يضع نفسه في مركز القائد السياسي الذي سيواجه مشكلة محددة في ظروف محددة في مجال السياسة الخارجية... ثم يسأل نفسه... ما هي البدائل المنطقية التي على القائد السياسي أن يختارها لمواجهة هذه المشكلة في ظل هذه الظروف، ثم ما هو البديل الأرجح للاختيار؟ [مع الأخذ في الاعتبار أن القائد السياسي يتصرف دائماً بطريقة عقلانية]، وأن اختبار هذه الافتراضات المنطقية في مواجهة الوقائع ونتائجها هو الذي يعطي معنى لحقائق السياسة الدولية، ويجعل من الممكن إقامة نظرية سياسية.

ثانياً: إن القائد السياسي يفكر ويتصرف طبقاً للمصلحة التي هي القوة، والتاريخ يثبت صحة ذلك، وهذا المفهوم - وهو نقطة مركزية في واقعية مورغنثاو - يعطي استمرارية وانسجاماً لما يبدو من سياسات خارجية مختلفة، كما أن مفهوم - المصلحة هي القوة - يمكّن من تقويم أعمال القادة السياسيين في مراحل مختلفة من التاريخ، ولو أردنا أن نضع وصفاً للإطار الذي يتصوره مورغنثاو ولكن بلغة عصرية يمكن القول إنه نموذج للتفاعل داخل النظام الدولي. ومستخدماً المعلومات التاريخية يقارن مورغنثاو نماذج التفاعل التي يضعها بما يجري فعلاً في الواقع.

ومن وجهة نظره فإن السياسات الدولية هي عملية يتم فيها تسوية المصالح القومية المختلفة.. ويوضح فكرته بالقول إن مفهوم المصلحة القومية لا يفترض التناسق الطبيعي أو السلام العالمي، ولا حتمية الحرب كنتيجة لسعي كل الدول لتحقيق مصالحها...، بل العكس إنها تفترض صراعاً مستمراً وتهديداً مستمراً بالحرب يساهم العمل الدبلوماسي في تقليل احتمالاته من خلال التسوية المستمرة للمصالح المتعارضة.

ثالثاً: يوافق مورغنثاو على أن معنى - القوة هي المصلحة - هو معنى غير ثابت، وعلى أية حال ففي عالم تسعى فيه دول ذات سيادة لامتلاك القوة، فإن السياسة الخارجية لكل الدول يجب أن تكون قائمة على اعتبار بقائها هو الحد الأدنى من أهدافها، وكل الدول مضطرة لحماية كيانها المادي والسياسي والثقافي ضد اعتداءات الآخرين - وهكذا تصبح المصلحة القومية هي البقاء الذي يعني وحدة أراضي الدولة،

ومؤسساتها السياسية، وثقافتها، وطالما أن العالم مقسم إلى وحدات قومية فإن المصلحة القومية هي خاتمة المطاف في عالم السياسة... والمصلحة هي جوهر السياسة.

وما أن تضمن الدولة بقاءها حتى تسعى ـ ربما ـ إلى مصالح أخرى من دون هذه المصلحة في الأهمية، حيث إن الدول تغفل مثل هذه المصالح ـ فقط ـ عند مواجهتها للفناء، ولكن في القرن العشرين فإن السياسة الخارجية تغلّب ـ أحياناً ـ المصالح الأدنى على المصلحة القومية التي هي البقاء، ولكنه يعود ليؤكد أن السياسة الخارجية التي يجب أن تخضع لتفكير عميق يجب أن تولي المصالح الأقل أهمية اهتماماً بعد أن تكون المصلحة القومية ـ البقاء ـ قد ضمنت حمايتها.

رابعاً: يرفض مورغنثاو تطبيق المبادئ الأخلاقية على سلوك الدول بل يدعو لتنقية الأخيرة من الأولى، فالدولة في سعيها لتحقيق مصلحتها القومية تكون محكومة بقيم تختلف عن قيم الأفراد في علاقاتهم الشخصية، والنتائج السياسية لسياسة معينة هي في الحقيقة معيار الحكم على هذه السياسة؛ بل إن الخلط بين القيم الفردية وقيم الدولة يعني وضع الأساس لكارثة قومية؛ لأن المسؤولية الأولى لرجل الدولة هي الحفاظ على بقاء الدولة. وهذا الالتزام يتطلب منه أخلاقيات تختلف عن تلك التي للفرد.

خامساً: يؤكد مورغنثاو على أن الواقعية السياسية لا تطابق بين التطلعات الأخلاقية أو المعنوية لدولة معينة وبين القوانين الأخلاقية التي تحكم الكون [الدين]، ويقول إذا وضعنا السياسات الدولية في إطار يعرّف المصلحة بأنها القوة فبإمكاننا أن نحكم على سلوك الآخرين بمثل حكمنا على سلوكنا، ويبدو أن مورغنثاو متأثر هنا بكتابات عالمي اللاهوت أوغسطين ونيبور.

سادساً: يؤكد مورغنثاو على استقلالية الظاهرة السياسية، بمعنى أن السلوك السياسي يجب أن يحكم عليه من خلال معايير سياسية... فالاقتصادي يسأل: كيف تؤثر هذه السياسة في رفاهية المجتمع أو رفاهية قطاع منه؟ ورجل القانون يسأل: هل هذه السياسة متوافقة مع قواعد القانون، والأخلاقي يسأل: هل هذه السياسة منسجمة مع المبادئ الأخلاقية؟ والسياسي الواقعي يسأل: كيف تؤثر هذه السياسة في قوة الدولة.

وفي صراعات القوى، فإن الدول تنتهج سياسات تستهدف الحفاظ على الوضع القائم أو تحقيق توسع إمبريالي أو تحقيق الشهرة والنفوذ ـ، ومن وجهة نظر مورغنثاو فإن السياسات الدولية والمحلية ليست إلا إحدى ثلاث سياسات: سياسة تسعى للحفاظ على القوة... وسياسة تسعى لزيادة القوة... وسياسة تظاهر بالقوة ـ عرض العضلات ـ.

ومع أن هدف سياسة الحفاظ على الوضع القائم هو إبقاء توزيع القوى على حاله، فإن الدول التي تنتهج مثل هذه السياسة لا تعمل بالضرورة على منع أي تغير دولي، بدلاً من ذلك فإن دول الوضع القائم تحاول منع التغير الذي قد يؤدي إلى تحول جذري في توزيع القوى على المستوى الدولي، ويضع مورغنثاو مبدأ مونرو كمثال على سياسة الوضع القائم التي تعنى بمعيارين: الأول: إنه مبدأ استهدف الحفاظ على توازن القوى

القائم في نصف الكرة الأرضية الغربي، والثاني: إنه يعبر عن عدم رغبة الولايات المتحدة في منع أي تغيير، وبدلاً من ذلك فالولايات المتحدة قد تعمل فقط ضد تغير يهدد توزيع القوى القائم، وعلى نفس الشاكلة فإن المعاهدات التي يتم التوصل لها في نهاية الحروب هي في الحقيقة موضوعة للحفاظ على الوضع القائم.

والإمبريالية عند مورغنثاو هي البديل الرئيس الثاني المتاح أمام الدول، وهي سياسة تستهدف قلب الوضع القائم، والقيام بمراجعة علاقات القوى بين دولتين أو أكثر، وتتضمن أهداف القوى الإمبريالية: تحقيق تفوق محلي أو إقامة إمبراطورية قارية أو هيمنة عالمية، والدول تتبنى السياسات الإمبريالية كنتيجة للانتصار أو لهزيمة وضعف دول أخرى، والدول التي يتوقع قادتها تحقيق الانتصار ربما يغيرون أهدافهم من إعادة الوضع القائم إلى سابق عصره إلى تحقيق تغير دائم في توزيع القوى؛ إلى جانب ذلك فالدولة المهزومة قد تتبنى سياسة إمبريالية لتحطيم الوضع القائم الذي خلفه المنتصر، ولتغيير المواقع مع المنتصر في سلم القوى، وأخيراً فإن وجود دول ضعيفة يمثل إغراء للدول القوية.

ولتحقيق الأهداف الإمبريالية، فإن الدول تلجأ إلى القوة العسكرية أو الوسائل الاقتصادية والثقافية، والغزو العسكري هو أقدم الأشكال وأوضحها على السلوك الإمبريالي، أما الإمبريالية الاقتصادية، فهي ليست أسلوباً فعالاً كالغزو العسكري. وإذا لم تستطع دولة معينة تحقيق سيطرة عسكرية على شعب آخر ربما تسعى بدلاً من ذلك للسيطرة الاقتصادية عليه، أما الإمبريالية الثقافية، فهي محاولة للغزو والسيطرة على عقول الناس كأداة لتغيير علاقات القوى بين دولتين.

أما سياسة تحقيق النفوذ، فتمثل البديل الثالث، وهذه السياسة تمثل إحدى السبل التي تستخدمها سياسات الوضع القائم والسياسات الإمبريالية لتحقيق أهدافها، وهدف هذه السياسة التأثير من قبل دولة معينة على الدول الأخرى من خلال القوة التي تمتلكها فعلاً أو تعتقد أنها تمتلكها أو تريد أن يعتقد الآخرون بأنها تمتلكها، ومورغنثاو يقترح أسلوبين لهذه السياسة الأول هو: الاحتفالات، والمراسيم الدبلوماسية. و الثاني هو: عرض العضلات. وهو يرى أن سياسة السمعة أو النفوذ تنجح عندما تكون الدولة التي حققت هذه السمعة غير محتاجة لأن تستخدم القوة فعلاً.

ومورغنثاو لا يبحث فقط في موضوع السعي نحو القوة، بل يبحث كذلك في شروط تحقيق السلام الدولي، ويرتبط مفهومه للنظام الدولي ارتباطاً وثيقاً بمفهومه للمصلحة القومية، ويعتقد أن السعي لتحقيق أهداف ليس بذات أهمية من الحفاظ على وجود الدولة يساهم في خلق الصراعات الدولية، وفي القرن العشرين أحلت الدول الكبرى الأهداف العالمية الواسعة بأهداف أكثر تحديداً وذات أهمية في تحقيق المصالح القومية، وأن تطور القومية المعاصرة الممتزجة بالإيديولوجيات المسيحية أدى إلى غموض مفهوم المصلحة القومية، فتحت ذريعة التوسع الشيوعي أو العمل على نشر الديمقراطية تتدخل الدول في شؤون أقاليم ليس لها أهمية حيوية من الناحية الأمنية،

ولو نزعنا الدوافع الإيديولوجية عن السياسات الخارجية؛ فإن التنافس بين الدول لن ينتهي.

وقد عارض مورغنثاو التدخل الأمريكي في فيتنام؛ لأن منطقة جنوب شرق آسيا تقع خارج منطقة المصالح الحيوية الأمريكية، ولأن الولايات المتحدة ستجد أنه من المستحيل تحقيق توازن في القوى في تلك المنطقة إلا إذا أهدرت موارد ضخمة جداً، ولذا يعتقد مورغنثاو أن عودة الدول القومية لتحقيق مصالح محددة عامل حاسم في تحقيق المزيد من السلام العالمي.

ويعتقد مورغنثاو أن أفضل وسيلة لإدارة استخدام القوة هي توازن القوى الذي يعرفه على أنه توزيع متساو إلى حد ما للقوى أو أنه أيّ توزيع للقوى ثم يصفه أحياناً بأنه سياسة تستهدف وضعاً معيناً، وتوازن القوى نفسه لا يحقق السلام الدولي، ولكنه الإجماع الدولي الذي يُبنى عليه التوازن هو الذي يؤدي هذه الوظيفة، فقبل أن يفرض توازن القوى قيوداً على طموحات دولة معينة من خلال تجمع القوى المعارضة لهذه الدولة، فإن على الدول المتنافسة أن تلزم نفسها بقبول نظام توازن القوى كإطار مشترك لمساعيها؛ لأن هذا الاتفاق يضبط الرغبة غير المحدودة للحصول على القوة التي قد تأخذ شكل العمل على بناء إمبريالي، ويحول من دون تحقيق ذلك.

ويعتقد مورغنثاو أن الإجماع الدولي الذي أبقى على توازن القوى في الفترة السابقة على القرن الحالي لم يعد موجوداً، كما أن التغيرات الهيكلية في النظام الدولي حدث من أثر توازن القوى، حيث إن التوازن في القوى العالمية أصبح مرتبطاً بدولتين فقط هما الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي وليس بعدد من الدول الكبرى، وفي مثل هذا الواقع من الاستقطاب فإن تحول حليف من الحلفاء لهاتين الدولتين قد لا يؤدي إلى إخلال كبير بتوزيع القوى، بل وليس هناك من قوة ثالثة قادرة على التدخل في أي من الجانبين وتخل بتوزيع القوى الحالي.

وتؤدي الدبلوماسية ـ مثل ميزان القوى ـ دوراً هاماً في الحفاظ على السلام، وفي الحقيقة فإن الشرط المسبق لسلام عالمي هو تطور إجماع دولي جديد يمكن للدبلوماسية من خلاله أن تؤدي دوراً في تحقيق السلام عبر سلسلة من التسويات السياسية[٤٦].

جورج كينان:

ولد جورج كينان في ولاية وسكانسون عام ١٩٠٤. بعد تخرجه من المدرسة الثانوية انضم كينان إلى الجيش الأمريكي، وخلال خدمته بالجيش انتسب إلى جامعة برنستون، وبعد تخرجه عمل في السلك الدبلوماسي. خلال الفترة الأولى لعمله في الدبلوماسية أرسل إلى مولدوفيا ليدرس اللغة الروسية وبعد ذلك عين في السفارة الأمريكية في موسكو. وقد لمع نجم كينان عندما نشر مقالة في مجلة الشؤون الخارجية (Foreign Affairs) عرفت بمقالة (مستر اكس) (Mr. X) لأنه لم يضع اسمه عليها. في هذه المقالة التي أرسلها من موسكو بلور كينان

[46] James E. Dougherty, Robert L. Pflatzgraff, JR, Contending Theories of International Relations, Longman, 2001, p 75

ايضا يوجد ترجمة لطبعة اولى لهذا الكتاب ، ترجمة الدكتور وليد عبد الحي تحتوي على المبادئ الاساسية. منشورات المؤسسة الجامعية للكتاب، بيروت ١٩٨٦

رؤيته للسياسة الأمريكية تجاه الاتحاد السوفيتي وبصورةٍ متكاملة رسم كينان واقع الحياة في موسكو، وطبيعة النظام الشيوعي الذي برأيه سينهار يوماً؛لأنه لاينسجم والطبيعة الإنسانية التواقة للحرية. أما ما يجعل كينان واحداً من أهم رواد الواقعية هو إنتاجه الفكري والاستراتيجيات التي اقترحها للإدارة الأمريكية في مواجهتها مع الاتحاد السوفيتي. فهو من وضع استراتيجية الاحتواء التي تقوم على منع الاتحاد السوفيتي من التوسع الفعلي الجغرافي أو الفكري والإيديولوجي بنشر الفكر الشيوعي إلى دول العالم الثالث.
على الرغم من أنّ كينان كان قد دعم سياسة الانفراج في العلاقة بين القطبين مع بداية العقد السابع من القرن العشرين إلا أنه أصرّ على ضرورة الاستمرار في احتواء هذا الخطر الشيوعي، ومواجهته لإضعافه تمهيداً لانهياره.
بعد تقاعده من العمل الدبلوماسي عاد وعمل في التدريس في جامعة برنستون، وألف العديد من الكتب حول السياسة الخارجية الأمريكية مُركّزاً على مفهوم المصلحة الوطنية والأمن القومي[٤٧].

هنري كيسنجر:

ولد هنري كيسنجر في ألمانيا عام ١٩٢٣ ثم انتقل الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٨ وخلال الحرب العالمية الثانية عمل في الاستخبارات الأمريكية في وحدة مكافحة التجسس. حصل على درجة الدكتوراة عام ١٩٥٤ ودرّس في هارفارد من عام ١٩٥٧ حتى ١٩٧١ حين انضم لفريق البيت الأبيض كمستشار للأمن القومي للرئيس الأمريكي نكسون ومن ثم وزيراً للخارجية ١٩٧٣-١٩٧٧. عُرف كيسنجر بتبنيه للواقعية ليس فقط فكرياً؛ بل بالممارسة الفعلية. فهو من قاد مفاوضات الشرق الأوسط بالجولات المكوكية وسياسة الخطوة خطوة. كما كان أستاذاً بسياسة توازن القوى، إذ كتب أطروحة الدكتوراة تحت عنوان "عالم معاد البناء" درس فيها فترة توازن القوى في السياسة الدولية بعد الحروب النابليونية عام ١٨١٥حتى الحرب العالمية الأولى ١٩١٤. وفي دراسته لتلك الفترة أوضح كيسنجر أهمية سياسة توازن القوى في الحفاظ على استقرار النظام الدولي حتى بداية الحرب العالمية الأولى. منذ أن نشر كتابه الأول حول السياسة الخارجية الأمريكية وحتى آخر كتاب له الدبلوماسية كانت الواقعية حاضرة من خلال تأكيده على القوة والمصلحة الوطنية وتوازن القوى في السياسة الدولية. كان كيسنجر قد لعب بماسمي الورقة الصينية إذ قاد سياسة الانفتاح على بكين ومحاولة عزلها عن المعسكر الشيوعي[٤٨].

أهم المفاهيم الاساسية للواقعية

القوة
النظام
المصلحة الوطنية
الأمن القومي

عدة مفاهيم اصبحت رديفة لكلمة الواقعية بمعنى عندما تذكر الواقعية تذكر هذه المفاهيم؛ لأنها تشكل الأساس في أدوات التحليل لهذ النظرية.

القوة : Power

من خلال استعراضنا السابق للافتراضات الأساسية، وأهم الرواد للواقعية وجدنا أن مفهوم القوة يتكرر مرة تلوَ الأخرى ويشكل القاسم المشترك لكل الرواد. و مع ذلك نجد أن الواقعيين أنفسهم لا يتفقون على تعريف واحد لهذا المفهوم. يرى بعض

[47] Martin Griffith, Key Thinkers in International Relations, London, Routledge, 2000, 25
[48] Griffith, Ibid, 23

الواقعيين أن القوة هي مجموع القدرات العسكرية و الاقتصادية و التكنولوجية و الصناعية وقدرات أخرى تملكها دولة ما. وآخرون ينظرون إلى القوة ليست كمجموعة من القدرات المطلقة لدولة ما؛ إنما هي القدرات مقارنة مع قدرات دول أخرى. أي أنه مفهوم قياسه نسبي. بمعنى أن قوة الدولة (A) تقاس، و تقيم وتحسب بالمقارنة مع قوة الدولة(B).

كلا النظرتين للقوة سواء الأولى التي تنطلق من القدرات المطلقة أو الثانية التي ترى بالقوة القدرات النسبية، تتسم بأنها نظرة مادية.كما أنهما تنطلقان من رؤية سكونية لمفهوم القوة: أي أنها معطى أو تعزى لقدرات دولة ما إما المطلقة لتلك الدولة أو النسبية مقارنة مع الدول الأخرى. تعريف بديل يتسم بالحركية يركّز على تفاعلات الدول. إن قدرة الدولة على التأثير أو الإكراه لا يتحدد بقدرات الدولة، بل بمايلي:

(١)- إرادة هذه الدولة، واستعدادها، ورؤية الدول الأخرى حول إرادة هذه الدولة، واستعدادها لاستخدام هذه القدرات.

(٢) مدى تحكم وتأثير هذه الدولة على الدول الأخرى.

فالقوة بالنسبة لأصحاب هذه الرؤية يمكن أن تقدر من خلال تفاعلات الدول مع بعضها ببعض.

وفيما يلي بعض وجهات النظر المختلفة حول مفهوم القوة:

"القوة هي مقدرة مجموعة أو أمة في التأثير في سلوك الآخرين بما يخدم أهداف هذه المجموعة أو الأمة"، " القوة هي مدى وقدرة أحد ما على التحكم بعقل و سلوك الآخرين"، " القوة هي القدرة على أن ينتصر طرف في صراع أو تخطي عقبات". و قد ميز جوزف ناي Joseph Nye بين نوعين من القوة ، الأول يتضمن ما أسماه القوة "القاسية" Hard Power وتشمل عوامل القوة التقليدية العسكرية و الاقتصادية. أما النوع الثاني، فهو ما أصبح يعرف بالقوة الناعمة Soft Power و تتضمن الجوانب الثقافية من قيم، وعادات، واعراف، والهوية، و القدرة الدبلوماسية[49].

بينما يرى فريق آخر في العلاقات الدولية أن مفهوم القوة يجب أن ينظر إليه نظرة كلية تأخذ بعين الاعتبار القوة باشكالها المتعددة المادية، وغير المادية.

[49] Paul Viotti, Mark Kuppi, International Relations Theory, London, Pearson, 2010, p 54

قياس القوة

إن الجدل حول تعريف القوة انعكس على طريقة قياس هذا المفهوم بطرق علمية. فإذا كان البعض ينظر إلى القوة على أنها مجموع القدرات العسكرية و الاقتصادية، فلابد من إيجاد طريقة لحساب هذه القدرات، أما إذا كان الجانب غير المادي هو ما ينظر إليه الباحث فيجب ايضاً إيجاد معيارٍ لقياس هذه العوامل. وقد جاءت بعض المحاولات لقياس قوة الدولة وفق معادلة تضم العوامل الآتية:

$$P= (M+E+C) (S+W)$$

حيث

(P)= القوة المتوقعة.

(M)= القدرات العسكرية.

(E)= القدرات الاقتصادية.

(C)= القدرات المتعلقة بالمساحة و السكان.

(S)= الأهداف الاستراتيجية.

(W)= الإرادة.

هذه المعادلة التي وضعها ري كلاين Ray Cline لمحاولة قياس قوة الدولة تجد بعض القبول لدى بعض الأكاديميين في مجال العلاقات الدولية، إلا أنها بالوقت نفسه تتعرض للعديد من الانتقادات، أهمها: أنها تساوي بين العوامل المادية و العوامل غير المادية. أيضاً هذه المعادلة تحتوي على القسم الأول الذي يمكن قياسه بالأرقام مثل الناتج القومي أو الإنفاق العسكري وعدد الطائرات و الدبابات. أما الجزء الثاني، فيحتوي على العوامل التي يصعب قياسها مثل: الإرادة أو الأهداف الاستراتيجية[٥٠]. وقد زاد من صعوبة مهمة الباحثين في مجال قياس القوة التنوع في وجهات النظر حول الموضوع، و خاصة بعد الحرب الباردة، فنجد جوزف ناي يطرح مفهوم القوة الناعمة التي أشرنا إليها في هذا الفصل، كذلك مفهوم القوة الذكية كمايعرفها ناي بأنها حسن استخدام عوامل القوة المادية و غير المادية في تحقيق المصلحة الوطنية. كذلك ثمة انتقاد للمعادلة الأولى في قياس قوة الدولة إذ يشير بعض الأكاديميين إلى دولة مثل اليابان القوية اقتصادياً قد تبدو أقوى من دولة أقوى في المجال العسكري، وهذا لا يعكس الواقع للدولتين. ففي ظل نظام دولي مازالت القوة العسكرية هي الأهم يجب أخذ هذا الجانب بعين الاعتبار.

---

[50] Ibid 54-55

ايضاً انظر : Wayne H. Ferris, The Power Capabilities of Nation-States, Washington D.c, Lexington, 1973

النظام: System

النظام مفهوم استعاره الأكاديميون في العلوم الاجتماعية من العلوم الطبيعية ليشير إلى مجموعة من الأجزاء أو الوحدات التي تتفاعل مع بعضها بشكل مستمر و يؤثر كل منها بالآخر بحيث إذا تغيّر سلوك أحد هذه القوى قد يؤثر في طبيعة العلاقات الكلية للوحدات الأخرى. و الحقيقة أن الوظيفة الأساسية لمفهوم النظام هي جعل الواقع من حولنا أسهل للفهم والدراسة. فعلماء العلاقات الدولية وخاصة أتباع بعض النظريات الوضعية، ومنها الواقعية الجديدة لهم نظرة خاصة حول مفهوم النظام. بينما هناك بعض منظّري العلاقات الدولية يعتقد أن استخدام مفهوم النظام قد يقود إلى أخطاء في دراسة العلاقات بين الدول. و يأتي بنتائج عكسية. فليس كل الواقعيين لديهم النظرة نفسها لمفهوم النظام الدولي. الواقعيون البنيويون (أتباع الواقعية الجديدة) باتجاهاتهم المختلفة من واقعية هجومية أو واقعية دفاعية هم من يركز على النظام الدولي كنقطة انطلاق في تحليلهم للعلاقات الدولية. فالنظام الدولي بالنسبة لهؤلاء العلماء تغيب عنه السلطة المركزية Anarchy القادرة على إنصاف المظلوم ومعاقبة الظالم. ولذلك تسعى كل دولة لحماية أمنها القومي بزيادة قوتها. وهذا الوضع يقود إلى عدم الثقة والشعور بعدم الأمان، وتصبح كل زيادة بقوة أيّ دولة مصدر خطر وتهديد للأمن القومي للدول الأخرى، و هذا ما يسميه أساتذة العلاقات الدولية بالمعضلة الأمنية Security Dilemma .

أما بنية النظام الدولي؛ فتتحدد بتوزيع القوة بين القوى الكبرى، فإذا كان هناك دولة عظمى وحيدة يسمى النظام أحادي القطبية كما هو الحال بعد الحرب الباردة، و عندما يكون هناك تمركز للقوة في دولتين يسمى النظام بالثنائي القطبية كالنظام الذي ساد خلال الحرب الباردة، أما إذا كان هناك أكثر من دولتين، فالنظام الدولي هو متعدد الأقطاب. ومثال ذلك النظام الدولي الذي سبق الحرب العالمية الأولى.

إن الجدل حول أثر بنية النظام الدولي في سلوك الفاعلين يشكل جزءاً هاماً من أدبيات العلاقات الدولية. فبينما يرى الواقعيون الجدد أن بنية النظام الدولي تؤثر بشكل كبير في العلاقات الدولية و استقرار النظام، وحتى الأزمات الدولية و الصراع و الحروب. فبينما يرى كينث ولتز Kenneth Waltz -الذي يعد مؤسس الواقعية الجديدة و أكثر أساتذة العلاقات الدولية المعاصرين تأثيرا في هذا المجال- أن النظام الدولي ثنائي القطبية أكثر أنواع النظم استقراراً وأقلها احتمالاً لوجود صراعات، وذلك لما فيه من توازن القوى بين القطبين. أما ديفد سنغر David Singer و مجموعة أخرى من أساتذة العلاقات الدولية يعتقدون أن النظام الدولي متعدد الأقطاب الأكثر استقراراً. في حين يرى بعض المفكرين؛ و خاصة أتباع نظرية الاستقرار الناتج عن وجود قوة مهيمنة Hegemonic Stability Theory أن النظام الدولي

أحادي القطبية هو الأكثر استقراراً و خاصة ما دام القائد المهيمن قادراً على القيادة. فبالنسبة لأتباع هذه النظرية إن القوة المهيمنة التي هي القائد للنظام الدولي، تصبح المسؤولة عن التصدي لأغلب القضايا العالمية التي تؤثرفي بنية النظام بكامله. فالقائد هو المسؤول عن إدارة العلاقات الدولية بما يكفل المصلحة ليس للقائد فقط بل بما يقود لاستمرارية هذا النظام، وضمان استقراره بإقناع الدول الأخرى بأن مصلحتها تخدم من خلال هذا النظام، ولا داعي للتحدي أو التغيير. وهنا النظام يبقى مستقراً مادام القائد للنظام قادراً على القيام بمهامه، وفي حال تراجعه و صعود قوى جديدة متحدية يصبح النظام عرضة للتغيير و عدم الاستقرار. هنا يجب الإشارة إلى أن مفهوم الاستقرار يعني بالنسبة لهذه النظريات غياب الحروب بين القوى العظمى؛ لأنها الوحيدة التي تؤثر في توازن القوى.

المصلحة الوطنية National Interest

على الرغم من أن مفهوم المصلحة الوطنية يُعدّ من أهم المفاهيم في العلاقات الدولية إلا أنه ايضاً يُعدّ من أكثر المفاهيم غموضاً. فبينما يشير قاموس العلاقات الدولية إلى أن المصلحة الوطنية عادة يستعمل إما كأداة تحليل لتحديد أهداف السياسة الخارجية للدولة، أو كمفهوم يستخدم في الخطاب السياسي لتبرير سياسة معينة أو قرارات اتخذها السياسيون في مرحلة من المراحل[51]. في كلا الحالتين نجد أن المفهوم يشير إلى المحددات و الدليل الذي يقود سياسة الدولة في علاقاتها الخارجية. وهو في أغلب الأحيان يشير إلى المصالح التي تتعلق بالسياسة الخارجية للدولة. بينما القضايا المتعلقة بالشؤون الداخلية عادة ما تدعى "المصلحة العامة". أما هانس مورغنثاو الذي جعل هذا المفهوم يحتل مكانة هامة في العلاقات الدولية، فيرى أن المصلحة الوطنية دائماً معرّفة بالقوة التي تعد الدافع الأساسي لسلوك الدول. وقد كان مورغنثاو يؤكد على العوامل العسكرية و الاقتصادية في تعريفه للقوة في حين لم يعطِ العوامل غير المادية مثل القيم و الثقافة الأهمية نفسها. لذلك يرجع العديد من الإكاديميين مفهوم المصحة الوطنية إلى أعمال أتباع النظرية الواقعية أمثال مورغنثاو، و إدوارد كار، و غيرهما[52]. ولكن في الحقيقة أن معنى المصلحة الوطنية يختلف من نظرية إلى أخرى. فبالنسبة للواقعيين المصلحة الوطنية دائماً مُعرّفة بالأمن القومي، بينما الليبراليون يعتقدون أن المصلحة الوطنية متعددة الجوانب فهي ليست بالضرورة دائماً معرفة بالأمن القومي، وإنما الاقتصاد، والبيئة،و التعاون الدولي بعض الأحيان تأتي ضمن المصلحة الوطنية .أما النظريات الراديكالية، فترى أن المصلحة الوطنية تُعرّفها الطبقات البرجوازية بما يخدم مصالحها، وليس الطبقة العاملة. في حين أن أتباع البنائية يشيرون إلى أن المصلحة الوطنية للدولة تتحدد من

---

[51] Graham Evans, Dictionary of International Relations, London, Penguin, 1998, p. 344

[52] Ibid 345

خلال الهوية للفاعل. و الهوية بدورها تتحدد عن طريق التفاعل بين الفاعل و البناء المحيط به، وهو بهذه الحالة النظام الدولي.

ومهما اختلفت وجهات النظر حول مفهوم المصلحة الوطنية، فهي بالنهاية المعيار و المقياس الذي تلجأ إليه الدولة عند الحكم على إجراءات أو قرارات تتخذها الدولة في علاقاتها الخارجية. فحينما تكون الدولة أمام خيارات معينة، و يجب اتخاذ إجراء معين فيكون السؤال الأساسي لأي إجراء هو هل يخدم المصلحة الوطنية أم لا؟ و الحقيقة أن التاريخ البشري يشير إلى أن الحروب بدأت تحت شعار المصلحة الوطنية، و سياسات عظمى رسمت باسم المصلحة الوطنية.

الأمن القومي

لا يمكن لأحد أن ينفي أن الأمن سواء كان على مستوى الفرد،أو الدولة، أو العالم يشكل أهم المعضلات التي تواجه الإنسانية. و كون أن الدولة مازالت هي الفاعل الأساسي و القادر على التأثير في الأمن لكلا المستويين الآخرين، فإن الأمن القومي يعد بشكل خاص في مقدمة اهتمام الدول. والتاريخ يشير إلى أن الدول كانت دائماً تشعر بالخطر الذي يهدد أمنها القومي من كل زيادة لقوة الدول الأخرى. أي أن كل الإجراءات العسكرية و الاقتصادية التي تتخذها الدول تقود إلى تضارب في المصالح، و قد يقود إلى حروب. ومن أجل فهم الأمن القومي لا بد من تحديد مفهوم الأمن و تعريفه. يرى بيرى بوزان(Barry Buzan) أن مفهوم الأمن خلال الفترة التي سبقت الثمانينيات من القرن العشرين كان يُنظر له من زاويتين مختلفتين إذ رأى فريق من العلماء أن الأمن يُستمد من القوة و أن الدول من أجل أن تشعر بالأمن لا بد من أن تكون قوية. في حين رأى فريق آخر أن الأمن يأتي من السلام[53]. وقد طغت الرؤية الأولى على مفهوم الأمن و خاصة بعد الحرب العالمية الثانية حيث ركزت الدراسات الأمنية على المفهوم العسكري للأمن القومي. والذي يتلخص بحماية الدولة من أي اعتداء خارجي، و الحفاظ على وحدة الأراضي للبلاد. وهذا يتطلب القدرة العسكرية الكبيرة، و استمرار التفوق في مجال التكنولوجيا العسكرية. ولذلك كانت الدول تخصص نسبة كبيرة من الميزانية العامة للسياسات الدفاعية والأمنية. وقد أدت هذه السياسات إلى سباق تسلح بين الدول خلال الحرب الباردة لا سيما بين القطبين: الولايات المتحدة الأمريكية و الاتحاد السوفيتي. ومع بداية الثمانينيات من القرن الماضي بدأت الكتابات تنتقد هذه النظرة الضيقة لمفهوم الأمن القومي كونها وحيدة الجانب ولا تأخذ بعين الاعتبار العوامل الأخرى التي تعتبر جزءاً مهماً - بنظرهم- من أمن الدولة و المواطن. وقد كانت مقالة ريتشار أولمان Richard Ullman من الدراسات الأولى التي دعت إلى إعادة النظر بمفهوم الأمن القومي، وضرورة

---

[53] Barry Buzan, People, States, and Fear, 2ed, Boulder, Lynne Rienner, 1991,p.2-3

توسيعه ليشمل عوامل أخرى مثل: البيئة، والمناخ، والاقتصاد، وعوامل اجتماعية أخرى[٥٤]. والمنطق الذي تستند إليه هذه الدعوة هو التساؤل حول من نحاول أن نؤمن؟ هل نؤمن الأنسان أم الأبنية والأرض؟ فإذا كان هدف الأمن هو الفرد أو الإنسان، فهناك العديد من مصادر الخطر على أمن الفرد التي يجب الانتباه لها، مثل: البطالة، الأمراض السارية، البيئة، الاحتباس الحراري، غياب الديموقراطية . والجدول التالي يبين طبيعة الجدل حول توسيع مفهوم الأمن.

الجدول ٢: الجدل حول مفهوم الأمن: (ضيق- واسع)

طبيعة مواضيع التحديات	
عسكرية	غير عسكرية
الهدف من الأمن استخدام وسائل عسكرية	تحل بوسائل غير عسكرية
الدولة ضيق	واسع
قوى فاعلة غير الدولة	مدرسة كوبنهيكن
الفرد	الأمن الإنساني

المصدر: Peter Hough, Understanding Global Security, London, Routledge, 2004, P 12

من الجدول السابق نلاحظ أن هناك اتجاهين مختلفين حول مفهوم الأمن، الأول يرى بمصادر الخطر العسكرية و الخارجية كأولوية للدولة، و القوة العسكرية هي الرد الوحيد ضد هذه المصادر. و الهدف من الأمن هو أمن الدولة (الأمن القومي). في

[54] Richard Ullman, "Redefining security", *International Security*, Vol. 8, 1983, p. 29

حين يرى الاتجاه الثاني أن هناك مصادر أخرى للخطر و هي غير عسكرية، وهدف الأمن هو الإنسان؛ ولذلك يسمى الأمن الانساني.

إن ما يثير القلق هذه الأيام هو الاستخدام لمفهوم الأمن الإنساني و ما جرّ معه من حالات" تدخل إنساني" و الذي أدى إلى تدمير دول و قتل ملايين المواطنين في بلدان العالم الفقير؛ و خاصة في أفريقيا و آسيا.

الواقعية ونظرية اللعبة Realism and The Game Theory

يستخدم أتباع النظرية الواقعية بعضاً من أشكال نظرية اللعبة البسيطة للدلالة على طبيعة العلاقات الدولية التي- بنظرهم- تتم في ظل نظام دولي تغيب عنه السلطة المركزية، وتتسم بالتنافس و الصراع. وفي هذا الصدد يشير الواقعيون إلى نموذجين من نظرية اللعبة.

النموذج الأول يعتمد القصة التي كتبها جان جاك روسو حول مجموعة من الأشخاص عددهم خمسة في حالة تغيب عنها السلطة المركزية؛ أي الحكومة وفي حالة صيد و الكل يعاني من الجوع وفي هذه الحالة كل شخص أمامه خياران: هل يذهب وراء ظبي ليطعم الكل أم يرضى بصيد أرنب ليسد جوعه فقط؟ الفكرة هنا هي هل المصلة الذاتية أم المصلحة العامة هي التي تحكم سلوك الفرد؟ الخيارات كما يصورها الواقعيون مبينة في الجدول التالي:

الجدول٣: قصة جان جاك روسو حول صيد الظبي أو الأرنب: معضلة الخيار العقلاني.

	المصلحة الشخصية	المصحلة الجماعية (العامة)
	يذهب لصيد الأرنب	يذهب لصيد الظبي
المدى القريب	يخدم المصلحة الذاتية الآنية	ربما يساهم بشيء من احتمال تعاون في المستقبل
المدى البعيد	لا وجود لأساس التعاون في المستقبل	يخدم المصلحة الجماعية على المدى البعيد

المصدر: Paul Viotti, Mark Kuppi, International Relations Theory, London, Pearson,2010. P.58

بهذه الصورة يرى أتباع الواقعية أن العلاقات الدولية هي حول المصلحة الذاتية للدولة، وهذا هو الخيار الأمثل في ظل هذا النظام الدولي "الفوضوي"

معضلة المساجين: Prisoner's Dilemma

يرى أتباع الواقعية أن معضلة المساجين تقارب في خياراتها واقع العلاقات الدولية. وتتلخص المعضلة بوجود مُتّهمَين بجريمة واحدة ، حيث وُضع كل منهم في غرفة منفصلة بدون وسيلة اتصال بينهم، و أُعطي كل منهم الخيارات التالية: إذا اعترفتَ على الآخر تذهب حراً، ويحصل الآخر على السجن. وإذا أعطي كل خيار رقماً يمثله حيث البراءة ١٠والسجن ٠ نجد أن المساجين في معضلة هل يعترف كل منهم على الآخر أم لا؟ الجدول التالي يمثل الخيارات لكليهما:

الجدول ٤: معضلة المساجين

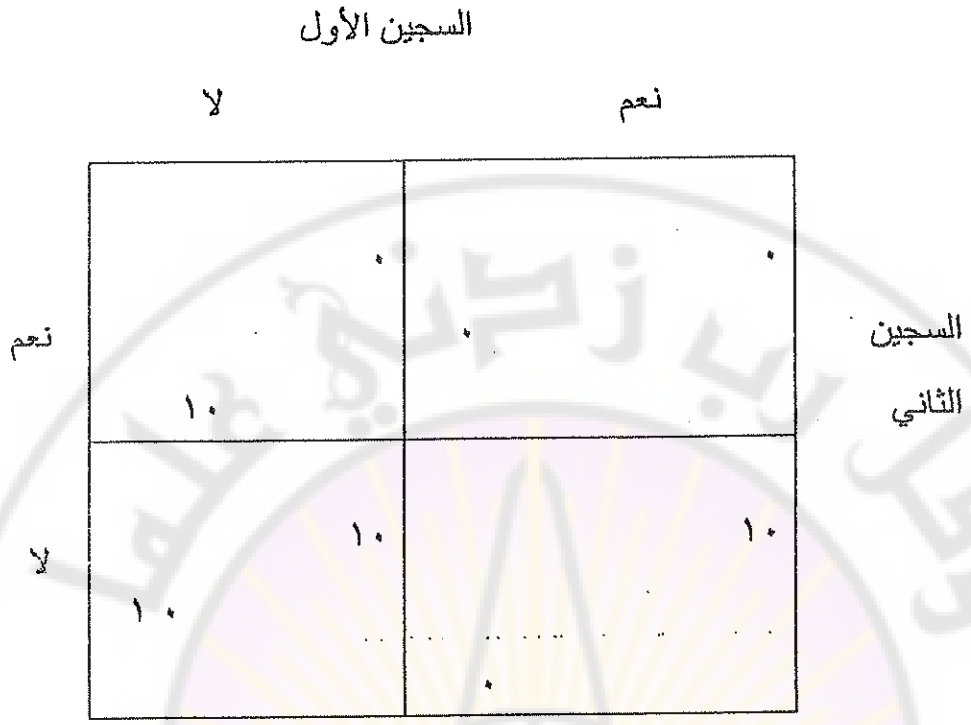

المصدر: Paul Viotti, Mark Kuppi, International Relations Theory, London, Routledge, 2010,p. 54

من الواضح أن طرفي اللعبة لديهما وضع مثالي بألا يعترف أي منهم على الآخر، ولكن بسبب عدم الثقة و عدم الوضوح يلجأ كل فاعل إلى تحقيق مصالحه الشخصية.كذلك بالنسبة للواقعيين: العلاقات الدولية أشبه بوضع المساجين حيث لا يوجد وضوح واتصال بين الأطراف؛ بالإضافة إلى عدم الثقة.بين اللاعبين. فالدول تتفاعل مع بعضها في بيئة يسودها عدم الثقة و عدم الوضوح. لذلك ينظر الواقعيون إلى العلاقات الدولية على أنها علاقات صفرية أي مايربحه طرف يخسره الطرف الآخر أي Zero Sum game .

تُستخدم نظرية اللعبة عادة لتصوّر حالات في العلاقات الدولية؛ و خاصة في نظرية الردع و صنع القرارات في حالة الأزمات العسكرية. لكن أتباع النظرية الليبرالية يردون على الواقعيين بأن العلاقات الدولية ليست كمعضلة المساجين لمرة واحدة One Shot or One Time تجمع متهمين في قضية معينة؛ بل العلاقات الدولية هي عملية مستمرة فيها عملية تعلم يتم من خلالها بناء الثقة بين الدول و الدول التي لا

تلتزم بالقواعد ستخسر سمعتها. و من الصعب أن تجد تعاوناً من قبل الدول الأخرى في المرات القادمة.

توازن القوى Balance of Power

إن مفهوم توازن القوى من أهم المفاهيم للواقعيين، و خاصة أتباع الواقعية الجديدة، إذ يلعب دوراً كبيراً في تحليل و شرح نماذج تتكرر في سلوك الدول. ثلاثة أسئلة تكون محور الجدل حول مفهوم توازن القوى: كيف يُعرّف توازن القوى؟ هل توازن القوى يحدث بشكل أتوماتيكي أم من خلال عمل القادة للدول؟ و أخيراً أي التوازنات (أحادي –ثنائي- متعدد) يُعدّ أكثر استقراراً؟

بالنسبة للتساؤل الأول يرى هانس مورغنثاو أن هناك أربع حالات على الأقل يُستخدم بها مصطلح توازن القوى: (١) سياسة تسعى من خلالها الدول لوضع معين. (٢) وضع بين الدول. (٣) تقريباً توزيع متساوٍ للقوى بين الدول. (٤) أي توزع للقوى بين الدول[٥٥]. وبالمقابل هناك من يشير إلى أن مصطلح توازن القوى يكتنفه الغموض إلى حد أن هناك أكثر من ثمانية أشكال لأستخدام توازن القوى . فعلى سبيل المثال انتقد إرنست هاس استخدام الواقعيين لمفهوم توازن القوى إذ أشار إلى أن هذا المصطلح يحتاج إلى المزيد من الدراسة لإيجاد تعريف دقيق يمكن أن يشكل أساساً لدراسة بعض أنواع السياسات الدولية[٥٦]. ويبين هاس أن هناك ثمانية تعاريف لتوازن القوى؛ فبالإضافة إلى ما ورد في تعريف هانس مورغنثاو يورد هاس بعض التعاريف فيرى أن هذا المصطلح يُستخدم بعض الأحيان في الخطاب السياسي من قبل الساسة لتسويغ سياسات معينة. وفي بعض الحالات يستخدم لوصف حالة من الاستمرارية في السياسة الدولية نحو التوازن.

أما فيما يتعلق بالسؤال الثاني، فيرى هنري كيسنجر أن التوازن يحدث بسبب تصرفات القادة في السياسة الخارجية، فهو لايحدث بشكل أتوماتيكي كما يعتقد البعض. فبالنسبة لكيسنجر صناع القرار ليسوا رهينة توازن القوى؛ بل هم من يصنعه. في المقابل كان كينث ولتز (مؤسس الواقعية الجديدة) يرى أن الدول تتأثر بشكل حتمي بتوازن القوى، وأن صانع القرار محتموم بخيارات مفروضة عليه بسبب توازن القوى في النظام الدولي[٥٧].

وللإجابة على السؤال الثالث هناك تيارات عديدة و مختلفة حول أثر توازن القوى في الاستقرار. فكما تم التنويه إليه في هذا الفصل، أن هناك من يعتقد أن النظام الدولي

---

[55] Paul Viotti, Mark Kuppi, International Relations and World Politics, London, Pearson, 2007, p. 45

[56] Ibid, Ibid, 45-46

[57] Ibid

متعدد الأقطاب أكثر استقراراً، و يمثل هذا التيار ديفد سينغر. بينما هناك تيار آخر يرى أن النظام الثنائي القطبية هو الأكثر استقراراً، ويمثل هذا التيار كينث ولتز. في حين يعتقد فريق ثالث أن النظام أحادي القطبية هو الأكثر استقراراً، ويمثل هذا التيار أتباع نظرية الاستقرار عن طريق قوة مهيمنة Hegemonic Stability Theory .

ولكن المهم هنا التركيز على مفهوم توازن القوى كأداة تحليل يوظفه الواقعيون للإشارة إلى إحدى الحالات التالية.

أولاً: التوازنات كتوزيع للقوى: بمعنى من يمتلك مصادر القوة في الوضع الراهن أي التوزيع القائم للقوى في العالم.

ثانياً: توازن القوى كسياسة: وتعني أن الدول ستمنع أي دولة من أن تحرز وحدها أي تفوق في القوى.

ثالثاً: توازن القوى كأنظمة متعددة الأقطاب: وهنا يشير المصطلح إلى حالات تعدد أقطاب القوة في تاريخ العالم.[58]

و من الجدير بالذكر أن الواقعيين الجدد أمثال كينث ولتز يرون أن توازن القوى يشكل عامل استقرارفي النظام الدولي فهو كالأيدي الخفية في اقتصاد السوق حيث تؤدي قوى العرض والطلب عامل الاستقرار فيه.

الطرق والوسائل التي تستخدمها الدول في سياسة توازن القوى

تسعى الدول في سبيل زيادة قوتها والحفاظ على أمنها القومي دائما إلى أن يكون ميزان القوى لصالحها أو على الأقل ليس ضدها. ولتحقيق ذلك تلجأ الدول لاتخاذ مجموعة من الإجراءات والخطوات التي تضمن لها نوعاً من توازن القوى وأهم هذه الخطوات هي:

١- زيادة قوتها كماً ونوعاً: إن أفضل وأنجع السياسات في ظل نظام دولي تغيب عنه السلطة المركزية هي سياسة الاعتماد على الذات وزيادة القوة الذاتية للدولة. فالدول لديها موارد وإمكانيات لإتخاذ خطوات تستطيع من خلالها زيادة قوتها العسكرية من خلال التصنيع أو شراء السلاح من دول أخرى، أو تطوير أنواع جديدة من السلاح أكثر تقدما.من الناحية النوعية هذا في جانب الأسلحة التقليدية. أو يتم تطوير أسلحة غير تقليدية مثل الأسلحة النووية أو الكيماوية والجرثومية. هنا تجدر الإشارة إلى ضرورة التفريق بين توازن القوى و توازن الرعب. ففي الحالة الأولى تسعى الدول إلى محاولة توازن القوى مع الطرف أو الأطراف الأخرى، أي تقليل حجم الفجوة من حيث القوة

[58] Joseph S. Nye, David Welch, Understanding Global Conflict and Cooperation, London, Pearson, 2011, P. 76

مع الدول الأخرى، أما في الحالة الثانية فهي تطوير نوع من الأسلحة أو الخيارات الأخرى ترسل الدولة من خلالها رسالة إلى الطرف الآخر بأنها قادرة على الرد وإيقاع الأذى عليها فيما إذا بدأت الدولة الثانية بأي خطوات عدائية.

٢- سياسة الأحلاف: يُعرّف الحلف بأنه إتفاقية بين دولتين أو أكثر يتعهد من خلالها الأعضاء بمواجهة عدو معروف و محدد فيما إذا اعتدى هذا العدو على أية دولة من الدول الأعضاء. وهنا يجب أن نفرق بين الحلف وسياسة الأمن الجماعي. ففي الحالة الثانية يتعهد أعضاء الاتفاقية على مواجهة أي إعتداء على الدول الأعضاء حتى ولوكان الاعتداء من داخل أعضاء الاتفاقية. مثال ذلك نظام الأمن الجماعي لعصبة الأمم أو الأمم المتحدة. أما في الحالة الأولى فيكون الحلف عند تأسيسه موجها لمواجهة عدو معروف ومحدد مثل حلف الناتو أو وارسو.و يدور جدل بين أساتذة العلاقات الدولية حول أهمية الأحلاف، وأثرها في السياسة الدولية. فبينما يرى فريق أن الأحلاف تزيد من أستقرار النظام، وتخفف من احتمالات الحروب؛ لأنها تردع الطرف الآخر من الاعتداء، يرى فريق آخر أنها تقود إلى عدم الاستقرار و إلى الحروب كونها تزيد من قوة وثقة الدول المتحالفة بالنصر.

٣- يذكر بعض أساتذة العلاقات الدولية وسائل أخرى تستخدم لتحقيق توازن القوى مثل إيجاد دول عازلة بين الطرفين، أو تفكيك تحالف في الطرف الآخر وسياسة التفرقة[٥٩].

الواقعية و التغيير في النظام الدولي Realism and Change

على الرغم من أن النظرية الواقعية تُنتقد وتُتهم بأنها أغفلت مسألة التغيير، إلا أن الواقع يشير إلى العكس، فقد قدمت أدبيات الواقعية العديد من الدراسات الرائدة في مجال الاستقرار و التغيير في بنية النظام الدولي. في هذا الإطار يكفي أن نذكر بعض النظريات مثل نظرية كينث ولتز في (توازن القوى والاستقرار)، ونظرية روبرت غلبن في (الحرب و التغيير في السياسة العالمية)، ونظرية ألفرد أورغانسكي (تحول القوة)، لشرح مدخل الواقعية للتغيير.

نظرية كينث ولتز (الواقعية الجديدة)

شكّل كتاب كينث ولتز "نظرية السياسة الدولية" Kenneth Waltz, Theory of International Politics نقطة تحول كبيرة في مسيرة النظرية الواقعية إذ يعد البداية للواقعية الجديدة التي تتميز عن الواقعية التقليدية بالتركيز على بنية النظام

[59] سعد حقي توفيق، مبادئ العلاقات الدولية، دار وائل للنشر، عمان، ٢٠٠٦، ص ٢٣٤

الدولي كونه الأهم في مستويات التحليل لدراسة العلاقات الدولية. فبالنسبة لولتز توزيع القوة بين القوى العظمى يحدد طبيعة العلاقات بين الدول. فهو يقول إن العلاقات الدولية المستمرة تشكل نظاماً دولياً. فالنظام الدولي إما أحادي أو ثنائي أو متعدد الأقطاب تبعاً لتمركز القوة بين الدول. وقد استعار ولتز مفهوم السوق من الاقتصاد ليبني نظريته في السياسة الدولية. فكما الأيدي الخفية المتمثلة بقوة العرض و الطلب تولد استقرار السوق فإن توازن القوى يولد الاستقرار في النظام الدولي[60].ولذلك يَعتبر ولتز النظام الدولي ثنائي القطبية أفضل النظم؛ لأن القطبين يستطيعان أن يحافظا على توازن القوى بعكس النظام متعدد الأقطاب الذي يصعب السيطرة فيه على سياسة التحالفات، والتغيير في تكتلات الأقطاب؛ ولذلك يكون النظام الدولي متعدد الأقطاب أكثر عرضة لاختلال التوازن وعدم الاستقرار.

نظرية روبرت غلبن الحرب والتغيير في السياسة الدولية

يُعدّ روبرت غلبن من أهم أساتذة العلاقات الدولية الذين تناولوا مسألة التغيير في بنية النظام الدولي. إذ قدّم في كتابه "الحرب و التغيير في السياسة العالمية" Robert Gilpin, "War and Change in World Politics" إطاراً نظرياً يشرح من خلاله نظريته التي يرى فيها أن طبيعة العلاقات الدولية لم تتغير على مدى آلاف السنين، ويوظف نظريات علم الاجتماع، والاقتصاد، و التاريخ لتحديد القوى التي تُحدث التغيير في النظام الدولي. حيث يرى في تباين نسب نمو القوى و خاصة العسكرية و الاقتصادية للدول، العامل الأساسي في عملية التغيير. فالتباين في نسب النمو بين القوى العظمى يقود إلى اختلال في ميزان القوى الذي يقوم عليه النظام السائد، ويبدأ التنافس بين القوى الصاعدة والقوى المهيمنة بحيث تشعر الدول الصاعدة بتراجع القائد للنظام، وتشعر هذه الدول بفرصة ذهبية للتغيير لصالحها. وينطلق غلبن في نظريته من الافتراضات التالية:

١- يكون النظام الدولي مستقراً (اي في حالة توازن) إذا لم تعتقد أي دولة بأن التغيير لصالحها

٢- تسعى دولة ما إلى التغيير في النظام الدولي عن طريق التوسع الإقليمي والسياسي والاقتصادي حتى تتساوى التكاليف الحدية لأي تغيير إضافي مع المنافع الحدية أو تزيد عليها.

٣- تسعى دولة ما إلى تغيير في النظام الدولي إذا كانت الدولة تتوقع بأن المنافع المتوقعة تزيد على التكاليف.

[60] Kenneth Waltz, Realism and International Politics, New York, Routledge, 2008, p. 99

٤- عندما يتم التوازن بين تكاليف المزيد من التغيير و التوسع ومنافعه، يصبح هناك ميل لأن ترتفع التكاليف الاقتصادية للمحافظة على الوضع الراهن بصورة أسرع من القدرة الاقتصادية على دعم الوضع الراهن.

٥- إذا لم يُحل انعدام التوازن في النظام الدولي، فسيتغير هذا النظام ، وينشأ توازن جديد يعكس إعادة توزيع القوى[٦١].

بناءً على هذه الافتراضات يشرح غلبن عملية تغيير النظام الدولي. فهو يقول إن النظام الدولي يكون في حالة توازن واستقرار مادامت الدول الأكثر قوة في النظام راضية عن الترتيبات السياسية، و الإقليمية، والاقتصادية القائمة. أي أن هذه الدول قانعة بدورها، و بموقعها، و مكاسبها ضمن الترتيب الراهن. وعلى الرغم من وجود إمكانية حدوث بعض التغييرات الطفيفة إلا أن حالة التوازن تبقى سائدة طالما أنه لا يوجد دولة كبرى ترى مصلحة عظمى في التغيير تفوق التكاليف.

الشكل ٤ يبين نظرية غلبن في التغيير:

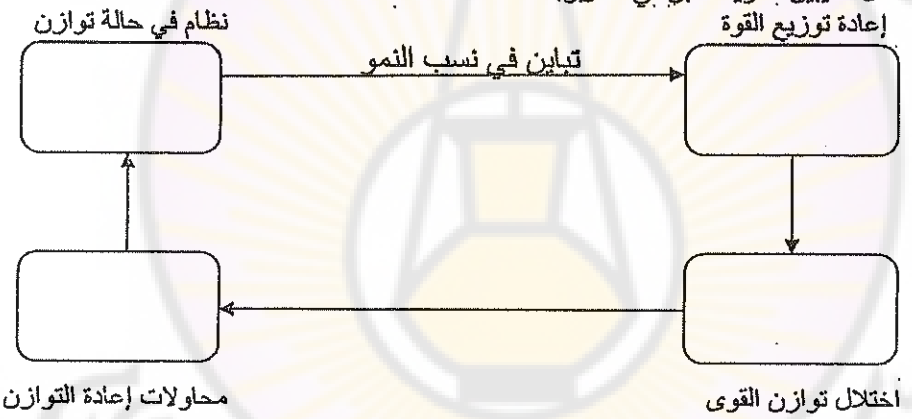

المصدر: Robert Gilpin, War and Change in World Politics, New York, Cambridge, 1991

[61] Robert Gilpin, War and Change in World Politics, New York, Cambridge University Press, 1991,p11

نظرية أورغانسكي "تحول القوة" Power Transition

في كتابه "السياسة العالمية" المنشور عام ١٩٥٧ أوضح أورغانسكي نظريته التي يرى فيها أن تحول القوة في الدولة مرده بشكل كبير إلى التطور التكنولوجي الذي يقود الدولة من مرحلة القوة الكامنة إلى مرحلة النضج الصناعي و التكنولوجي الذي يقود بدوره إلى تغيير توازن القوى في النظام الدولي، ومنه تحول في بنية النظام الدولي. وقد قسم أورغانسكي الدول في العالم إلى أربعة أنواع:

١- الدول القوية القانعة.
٢- الدول القوية غير القانعة.
٣- الدول الضعيفة القانعة.
٤- الدول الضعيفة غير القانعة.

في ظل هذا التقسيم يشير أورغانسكي إلى أهمية العلاقات بين الدول الصاعدة أو القوية غير القانعة، والدول القوية القانعة، حيث يتقرر مستقبل تحول القوة، ومعه بنية النظام الدولي بناءً على هذه العلاقات.

الانتقادات الموجهة إلى النظرية الواقعية

على الرغم من هيمنتها شبه الكاملة في دراسة العلاقات الدولية، والإنتاج التراكمي المعرفي الضخم الذي قدمته النظرية الواقعية، لم تسلم من الانتقادات من قِبل العديد من المفكرين أتباع التيارات الأخرى، وأهم هذه الانتقادات هي:

١- لقد ركّزت النظرية بشكل كبير على مفهوم القوة، وجعلته محور تحليلها للعلاقات بين الدول، وأغفلت العوامل الأخرى، وخاصة الاجتماعية منها. وقد بدا ذلك النقص واضحاً في عدم قدرة الواقعية على شرح وتفسير بعض الظواهر التي تدخل في مكوناتها المتغيرات الاجتماعية.

٢- لم يطور أتباع الواقعية تعريفاً موحداً أو متفق عليه لمفهوم القوة بحيث يعد مناسباً للبناء عليه. فبعض الواقعيين عرّف القوة على أساس أنها أداة ووسيلة لتحقيق الأهداف، وعلى رأسها الأمن القومي، فيما تبنى فريق أخر تعريفاً مختلفاً يجعل القوة هدفاً تسعى الدولة لزيادته.

٣- أيضاً مفهوم المصلحة الوطنية كما عرفه أتباع الواقعية يشكل نقطة خلاف، وخاصة ربط هذا المفهوم بالقوة.

٤- النظرية الواقعية تقوم على رؤية تعكس الواقع والتجربة الأوروبية التي تجسدت في صراع دائم في ظل غياب السلطة المركزية من النظام الدولي.

ملخص الواقعية

الواقعية نظرية أو تصور في العلاقات الدولية يرى أتباعها أن الوحدة الأساسية والفاعل الأساسي في النظام الدولي هي الدولة القومية. و العلاقات بين هذه الدول تتم في ظل نظام دولي تغيب عنه السلطة المركزية. وهذا يقود إلى أن الدول تسعى

لتحقيق مصالحها الوطنية المعرفة بالأمن القومي، وعلى رأسه البقاء من خلال زيادة قوتها النسبية. يركّز أتباع الواقعية على أن توازن القوى هو عامل الاستقرار في النظام الدولي. الجدول التالي يلخص النظرية الواقعية.

الجدول (٦) : ملخص لبعض مفاهيم الواقعية:

الفرد	أناني، عدواني، يسعى لتحقيق مصالحه الشخصية.
الدولة	الفاعل الأساسي، تتصرف بشكل عقلاني وبصوت واحد
المصلحة الوطنية	مُعرّفة بالأمن القومي، وعلى رأسه البقاء
النظام	تغيب عنه السلطة المركزية، فوضوي
التغيير	بطيء يأتي بسبب تحول القوة الناتج عن تباين نسب النمو أو تغيير في التكنولوجيا

الفصل الثالث

النظرية الليبرالية

مقدمة

على الرغم من هيمنة النظرية الواقعية في دراسة العلاقات الدولية لمدة تزيد على نصف قرن، إلا أن النظرية الليبرالية لديها ما يجعلها منافساً حقيقياً لها. فالليبرالية لديها تقليدٌ تعود بداياته إلى القرن الثامن عشر، وربما قبل ذلك في عصر التنوير. إذ يرى بعض المفكرين أن ظهور الليبرالية كان نصراً للمجتمع الإنساني فقد جاءت على أعقاب النظام الإقطاعي الذي قام على الاستبداد، و العبودية، وقهر حرية الفرد وحقوقه[٦٢]. وقد شكّلت الليبرالية بما فيها من منظومة قيمية جديدة أساساً للنظام الرأسمالي، إذ تركز على الحرية الفردية بشكليها الاقتصادي و السياسي. فعلى الصعيد الاقتصادي تدعو الليبرالية إلى إطلاق حرية المنافسة من كل قيد، وإبعاد الدولة عن التدخل في النشاط الاقتصادي ومطالبتها فقط بحماية الأمن الداخلي وأمن البلاد الخارجي. وآلية السوق سوف تحقق مصلحة المجتمع والأفراد. لأن الفرد عندما يسعى لتحقيق أهدافه و خدمة مصالحه، يخدم بالمجمل مصلحة المجتمع. وهذا ما أشار إليه آدم سميث عندما تحدّث عن أن هناك أيدي خفية في السوق تحقق الاستقرار و المنفعة للجميع؛ بالاضافة إلى ذلك تؤكد الليبرالية على أن تطور المجتمع يحتاج إلى تمكين الفرد من مزاولة أقصى درجات حريته في المنافسة، وكي يتم الانسجام والتوافق بين المصلحة الفردية و المصلحة العامة لابد من انتهاج سياسة عدم التدخل من قبل الدولة، أي إعطاء الفرد حرية العمل، وحرية التجارة وحرية التنافس؛ لأن هناك قوانين تعمل عملها في المجتمع وتؤدي دائماً إلى الوضع الأفضل. وعلى الصعيد الخارجي تدعو الليبرالية إلى فتح الأسواق، و حرية التجارة بين الدول وإلغاء قوانين الحماية؛ لأن ذلك يحقق المصلحة والاستقرار في المجتمع الدولي.
أما الجانب السياسي لليبرالية؛ فيشمل مجموعة من الحقوق الفردية، مثل حق العقيدة، والفكر، و التعبير، والمشاركة السياسية، وغيرها من الحقوق الأخرى[٦٣]. رغم أن الليبرالية الاقتصادية كانت هي محور اهتمام الطبقات الصناعية و البرجوازية؛ لأنها تخدم أطماعها، وتطلعاتها للحصول على أرباح كبيرة وتراكم في رأس المال، إلا أن الليبرالية السياسية بدأت و بشكل كبير تحظى بالاهتمام من قبل الليبراليين وخاصة بعد انتصار الليبرالية على الشيوعية، و التبشير بأن العالم يسير نحو تبني النظام الليبرالي كخيار أفضل للبشرية[٦٤].

في خضم الجدل حول طبيعة النظام الدولي الذي خلف الحرب الباردة، برزت كتابات الليبراليين تصوّر مستقبل العلاقات الدولية على أنه أفضل من الماضي وأن العالم و للمرة الأولى أمام فرصة ذهبية لبناء نظام عالمي قوامه الشرعية

---

[62] رمزي زكي، الليبراليةالمتوحشة، القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧ ص ١٩
[63] مرجع سابق ٢٠
[64] Frances Fukuyama, the End of History and Last Man, London: Hamish Hamilto,1992 P14

الدولية و التعاون الدولي. وفي هذا الإطار يهدف هذا الفصل لدراسة مساهمة النظرية الليبرالية في دراسة العلاقات الدولية.

الليبرالية في العلاقات الدولية

الليبرالية، الليبرالية الجديدة، التعددية، و الليبرالية الجديدة المؤسساتية أسماء تظهر في أدبيات العلاقات الدولية لتشير إلى تقليد فكري ونظرية في العلاقات الدولية أو تَصوّر لماهية هذه العلاقات. و على الرغم من أن هناك بعض الاختلافات بين هذه التيارات و المداخل، لكنها تشترك في افتراضات عديدة حول دراسة العلاقات بين الدول.

افتراضات النظرية الليبرالية

في رؤيتها للعلاقات الدولية تنطلق الليبرالية من مجموعة افتراضات أساسية، أهمها:

أولاً: الدولة القومية Nation-State والقوى الفاعلة الأخرى Non State Actors تؤدي دوراً مهماً في العلاقات الدولية.

على العكس من افتراضات الواقعية التي ترى أن الدولة القومية الفاعل الأساسي و الأهم، ترى الليبرالية أن القوى الفاعلة الأخرى، مثل: المنظمات الدولية، و المنظمات غير الحكومية، و الشركات متعددة الجنسيات تشكل جزءاً مهماً في العلاقات الدولية وأن هذه القوى ازداد دورها، و أهميتها خلال العقدين الماضيين منذ انتهاء الحرب الباردة. يستند الليبراليون في هذا الرأي إلى مجموعة من المعطيات أهمها ازدياد عدد المنظمات الدولية خلال القرون الماضية من بضع منظمات إلى ما يزيد على ٣٠٠ منظمة دولية مختصة، وتعاظم دور المنظمات الدولية في مجالات عدة من الحفاظ على البيئة إلى الأمن الدولي[٦٥].

ثانياً: ترفض الليبرالية افتراض الواقعية بأن الدول تتصرف بشكل عقلاني. يرى أتباع النظرية الليبرالية أن القرارات في الدول تأتي نتيجة تسوية لصراعات ومنافسات بين مؤسسات و مراكز قوى عديدة كل منها يسعى لتحقيق مصالحه؛ لذلك لايمكن لنا أن نفترض أن القرار عقلاني طالما أنه جاء نتيجة مقايضة و مساومة بين العديد من المؤسسات و البيروقراطيات، و مراكز قوى فاعلة داخل الدولة.

ثالثاً: لا تعترف الليبرالية بأن الدولة القومية تتصرف بصوت واحد. في هذا المجال يزعم الليبراليون بأن القرار الذي يُتخذ عادة ما يأتي ليخدم مصلحة قوى معينة داخل الدولة، و ليس بالضرورة المصلحة الوطنية. كذلك ينوّه الليبراليون إلى الجهات

---

[65] Jill Steans and Lloyd Pettiford, Introduction to International Relations, London, Pearson, 2004,p 23

العديدة التي تساهم في صنع القرار وآلية معينة تتبع لصناعته تجعل من المستحيل أن يكون القرار صادراً عن الدولة كوحدة متكاملة.
رابعاً: يفترض الليبراليون أن الدول تتصرف حسب مصلحتها الوطنية، ولكن هذه المصلحة ليست دائماً معرّفة بالأمن القومي كما يفترض الواقعيون؛ بل هي متعددة الجوانب و الأشكال، منها: الأمن القومي، والبيئة، و الاقتصاد، و حقوق الانسان، والديموقراطية. فما هو اليوم على رأس أجندة الدولة وأولوية للمصلحة الوطنية قد لا يكون كذلك في فترة زمنية ثانية.

خامساً: يعترف الليبراليون بأن طبيعة النظام الدولي تتسم بغياب السلطة المركزية، وأنه لا يوجد سلطة عليا أعلى من سلطة الدولة، ولكن ذلك، حسب رأي أتباع الليبرالية، يؤدي إلى تعاون دولي، و ليس بالضرورة صراع بين الدول.

سادساً: ينطلق الليبراليون من الافتراض أن الدول تسعى إلى الكسب المطلق، و ليس الكسب النسبي كما يفترض الواقعيون. أي أن الدول لا تنظر إلى العلاقات الدولية من منظور اللعبة الصفرية أي ما يكسبه لاعب دولي بالضرورة يخسره اللاعب الآخر (Zero-Sum Game) ولكنّ الليبراليين ينظرون إلى العلاقات الدولية على أنها (Win-Win) تفاعلات؛ أي أنه يمكن أن تربح جميع الأطراف، ولكن قد تكون نسب الربح متباينة.
وأخيراً، تنطلق الليبرالية من نظرة متفائلة بطبيعة الإنسان إذ يرى أتباع هذه النظرية أن الفرد بطبعه اجتماعي ومتعاون، على العكس من رؤية الواقعية المتشائمة حول طبيعة الفرد التى تصوّره على أنه أناني، و عدواني يسعى لتحقيق مصالحه بأي ثمن.
إن هذه الافتراضات تضع الأساس لتصوّر أو رؤية مختلفة للعلاقات الدولية. هذه الرؤية التي تطوّرت عبر مساهمة العديد من المفكرين، وخلال مراحل عديدة كان آخرها الليبرالية المؤسساتية، وفيما يلي لمحة سريعة للمراحل التي مرت بها النظرية الليبرالية.

من المثالية إلى الليبرالية المؤسساتية

منذ البداية الأولى لعلم العلاقات الدولية في مطلع القرن العشرين كانت المثالية تشكل أهم الاتجاهات النظرية لدراسة العلاقات بين الدول. إذ هيمنت آراء ما سمي بالتيار المثالي الذي مثله الرئيس الأمريكي في ذلك الوقت ودرو ويلسون على صياغة أهم قواعد العلاقات بين الدول، و تشكيل منظمة دولية هي عصبة الأمم لتكون المرجعية التي تعود إليها الدول في تنظيم علاقات بعضها ببعض. انطلق أتباع هذا التيار من أن الدول يمكن أن تتعاون في مواجهة المشاكل المشتركة. فتمت الدعوة إلى احترام قواعد القانون الدولي، و تنمية التعاون بين الدول بدلاً من الصراع. أي أن المثالية كانت تدعو إلى ما يجب أن تكون عليه العلاقات الدولية، و ليس ما هي عليه في الواقع. إن النظرة المتفائلة من أتباع الليبرالية لطبيعة الإنسان

واعتقادهم بقدرة الفرد على التعاون جعل التركيز الكبير ينصب على عقلانية الفرد في اختيار التعاون بدلاً من الصراع.

يعزو علماء العلاقات الدولية بروز المثالية في تلك الفترة إلى سببين:

أولاً: الخسائر الكبيرة التي خلفتها الحرب العالمية الأولى.

ثانياً: النتائج التي توصل إليها العالم من أن الحرب لن تجلب إلا الكوارث، وأن الحضارة الإنسانية ترفض الحرب كشكل لحل النزاعات الدولية[٦٦].

إلا أن هذا الاتجاه لم يلبث أن تراجع مع بداية الحرب العالمية الثانية لتحل محله النظرة الواقعية التي رأت بأن الدول تتصرف وفقاً لمصالحها الوطنية المعرفة بالأمن القومي، و على رأسه البقاء، ورأت بأن دراسة العلاقات الدولية يجب أن تتم من خلال دراستها كما هي على أرض الواقع و ليس ما يجب أن تكون عليه. و هذا ما تناوله الفصل الثاني.

ولكن رغم الزخم الذي تلقته النظرية الواقعية بعد الحرب العالمية الثانية و الذي ساعدها على أن تهيمن على دراسة العلاقات بين الدول، إلا أن أفكار المثالية عادت وبرزت مرة أخرى، ولكن بمفاهيم وفرضيات جديدة. أهم هذه المفاهيم و الطروحات هي التعاون الدولي المبني على المصلحة للدول بدلاً من الاعتماد على النية الحسنة في تفسير مظاهر التقارب الدولي و الاعتمادية بين الدول. أي اعتماد المصلحة الوطنية كأساس لتفسير التعاون بين الدول عوضاً عن الاكتفاء بالإشارة إلى القيم والطبيعة الجيدة للدول، وخاصة أن الواقعية انطلقت من المصلحة لبناء نظريتها في العلاقات الدولية. تبلورت الاتجاهات التي سميت بالليبرالية بالإشارة إلى أن الواقعية تغفل عوامل عديدة في العلاقات الدولية، فعلى سبيل المثال هي لاتستطيع تفسير ازدياد درجة الاعتمادية بين الدول، وأن هناك قوى يتعدى أثرها الحدود الجغرافية للدول. وهذا ما أسماه جوزف ناي و روبرت كوهيني ب Transnational Relations "العلاقات العابرة للحدود" والتي تلعب دوراً كبيراً في العلاقات الدولية، و تعد جزءاً مهماً منها[٦٧]. و سرعان ما طوّر كوهيني وناي أفكارهم في كتابهم Power and Interdependence "القوة و الاعتمادية" والذي يقوم على أسس، وفرضيات، أهمها:

١- هذه الاعتمادية هي شكل من الترابط المعقد بين الدول في النظام الدولي الذي يفترض بدوره وجود آلية، و قنوات وصول، و اتصال متعددة بين المجتمعات، بما في ذلك بعض مؤسسات و فروع داخل الدولة نفسها علاوة على القوى الفاعلة غير الدولة، و ذلك عكس افتراض الواقعية بأن الدولة هي الفاعل الأهم في العلاقات بين الدول.

٢- يعتقد أتباع الاعتمادية و الترابط المعقد أن القوة سيكون لها دور بسيط في العلاقات الدولية.

---

[66] Martin Hollis and Steve Smith, Explaining and Understanding International Relations, London, Oxford, 1990, p. 17

[67] Robert Keohane and Joseph Nye, Transnational Relations and World Politics, Cambridge, Harvard University Press, 1972, p 10-13

٣- يفترض الترابط المعقد (الاعتمادية) Complex Interdependence أنه لا يوجد هرمية في المواضيع و القضايا للدولة، فأي موضوع قد يكون على رأس الأجندة للدولة بعكس الواقعية التي ترى ان الامن القومي دائماً أهم المواضيع وعلى رأس اجندة الدولة[٦٨].

وإذ نذكر ذلك لايعني أن الليبرالية الجديدة قد رفضت جميع المفاهيم و الافتراضات للواقعية، بل على العكس، الليبرالية أخذت الكثير من مفاهيم الواقعية فعلى سبيل المثال مفهوم "القوة" الذي استخدمته الليبرالية الجديدة بشكل واسع يُعد أساساً في تحليل العلاقات الدولية، وإن كانت نظرتها للقوة تختلف من حيث الدور والاولية في الأهداف. فالليبرالية ترى أن الدول تسعى إلى الزيادة المطلقة Absolute Gain في قوتها، وليس الزيادة النسبية Relative Gain كما يرى الواقعيون. وهذا ما أشار إليه جوزيف غريغو Joseph Grieco في مقالته "Anarchy and the Limits of Cooperation" والتي انتقد الليبرالية، لأنها تقلل من أهمية القوة، و توازن القوى[٦٩].

ومع منتصف السبعينيات من القرن العشرين بدت الليبرالية الجديدة مرشحة لتصبح النظرية السائدة في العلاقات الدولية. وانتشرت الكتابات التي تنتمي إلى هذا التيار و تطورت ليصبح لها اتجاهات متعددة ضمن النظرية الواحدة. فكان هناك تيار يركز على نظريات التكامل و الاعتمادية، واتجاه آخر يركّز على دور التعاون الدولي، وخاصة دور المؤسسات الدولية، و ما يسمى" International Regimes"...وهنا يجب التنويه إلى الفرق بين النظام الدولي "International System" الذي أشرنا إليه في بداية هذا الكتاب والذي ينشأ عندما يكون هناك وحدتان أو أكثر بينهم علاقات مستمرة تتصف بالديمومة. والنظام الدولي الذي يشير إلى International Regime والذي عرّفه كوهيني و ستيفن كراسنر على أنه مجموعة القواعد والقوانين و المؤسسات التي تحكم موضوعاً معيناً في العلاقات الدولية (مثل النظام الدولي الخاص بالألبان الفردية)[70] . وتعد الليبرالية المؤسساتية آخر شكل تطورت إليه الليبرالية وضمت نتاج كتّاب كثر مثل: روبرت كوهيني، وجوزيف ناي،و أوران ينغ، وغيرهم الكثير. وقد شكّل الجدل الفكري بين الليبرالية المؤسساتية الجديدة و الواقعية الجديدة المجال الأكبر في دراسة العلاقات الدولية.

الجذور الفكرية للنظرية الليبرالية

22-11-2016

لقد كان من السهل تتبع الجذور الفكرية للنظرية الواقعية، إذ كانت مساهمات كل مفكر أو عالم سياسة أو قائد واضحة بشكل مباشر لها علاقة بالواقعية، أما بالنسبة للنظرية الليبرالية فالمسألة تصبح أعقد؛ لأن الكتابات أو المساهمات التي سنذكرها قد يكون لبعضها صلة مباشرة مع التصور الليبرالي العام للعلاقات الدولية، بينما البعض الآخر من المساهمات قد تكون علاقتها غير مباشرة مع الليبرالية. فالعديد

---

[68] Chris Brown, Understanding International Relations, London, Palgrave 2001, p. 44-45

[69] Joseph Grieco, Anarchy and the Limits of Cooperation, "International Organization"42,3(summer 1988): 422

[70] Robert Keohane, International Institutions, Boulder, Westview, 1990 P. 15

الدولة يجب ألا تتدخل في النشاطات الاقتصادية، و لا تقيد النشاطات السياسية للفرد. فمهمة الدولة بالنسبة لليبراليين هي الحفاظ على الأمن و حماية الأفراد. وهذا ما ظهر في كتابات جون لوك عام ١٦٨٩.

وقد هيمنت الليبرالية كأيديولوجية بوجهيها السياسي و الاقتصادي خلال القرنين الثامن عشر و التاسع عشر، وخاصة في بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الأمريكية، فبرزت كتابات آدم سميث الذي وضع في كتابه ثروة الأمم ما يمكن أن نعده أساس الفكر الليبرالي التقليدي، و تلاه ديفد ريكاردو الذي تابع كتابات سميث خاصة في مجال الاقتصاد و التجارة الدولية. ويضاف إلى هذه الأسماء جيرمي بنتام الذي كتب في القرن التاسع عشر مقالات عديدة أهمها النفعيون Utilitarians التي رأى فيها أن الفرد يتصرف بشكل عقلاني، وهو قادر على الحسابات و الحكم على ما هو نافع و مفيد و مما هو أفضل بالنسبة له. لذلك يرى الليبراليون أن الأفراد فيما إذا أعطوا الحرية الكاملة قادرون على اختيار الحكومة والنظام السياسي الأفضل.

إن تركيز الليبرالية التقليدية بشكل أساسي كان على ضرورة انسحاب الدولة من أي تدخل في النشاط الاقتصادي والاكتفاء فقط بتوفير الحماية للأفراد يعني أن أتباع هذا التيار كان لديهم الإيمان المطلق بالحرية الفردية و بقدرة الفرد على التعاون و قوى السوق من عرض وطلب هي أقدر على توفير الاستقرار للسوق، وليست الدولة. فالبضاعة جيدة النوعية وذات السعر المناسب تستطيع البقاء بينما البضاعة ذات النوعية السيئة و الأسعار العالية لايمكنها التنافس في السوق الحر، لذلك هذا النوع من البضاعة يخرج في ظل المنافسة الحرة.

ومن الجدير بالذكر أن الليبرالية التقليدية قد جاءت بعد أفكار الميركنتيلية Mercantilism التي ركزت على الحماية و التصدير أكثر من الاستيراد و على جمع العملات الصعبة و المعادن الثمينة؛ لأنها بنظرهم تشكل ركيزة قوة الدولة. و على الرغم من أن التسلسل التاريخي لليبرالية قد لايكون مهماً في مجالنا إلا أننا آثرنا تقديم بعض النقاط الأساسية لما فيه منفعة للطالب و خاصة في مجال الاقتصاد السياسي للعلاقات الدولية الذي أصبح فرعاً مهماً من موضوع الدراسة.

إن الليبرالية الجديدة برموزها، أمثال: آدم سميث، و ديفد ريكاردو اللذان دعوا إلى التجارة الحرة و فتح الأسواق و الاعتماد على الملكية الخاصة لم تمنع من بروز تيارات ليبرالية جديدة مع ستوارت مل الذي دعا الى تدخل الدولة في بعض النشاطات الاقتصادية و الاجتماعية. إذ يشار إلى أن هناك بعض أنواع الأنشطة التي لاتستهوي القطاع الخاص، و هي مهمة بالنسبة للدولة كالتعليم و الصحة والأمن. فهو يرى ضرورة تدخل الدولة لتقديم مثل هذه الخدمات و الاستثمار و العمل في هذه القطاعات الأساسية. إلا أن أزمة الكساد العالمي عام ١٩٢٩ وضعت الأفكار الليبرالية أمام اختبار كبير حيث لم يحقق السوق التوازن المطلوب. فجاءت نظرية كينز التي دعا من خلالها إلى ضرورة توفير الطلب الفعال و التوظيف حتى يكون هناك قدرة لدى الأفراد لشراء البضائع و تحريك الأسواق. و قد جاءت مساهمة كينز الكبرى في أعقاب الحرب العالمية الثانية حيث وضع مع خبراء اقتصاديين أمريكيين أسس النظام الاقتصادي العالمي "الدولي" لفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية الذي

منهم ليس فقط علماء سياسة أو علاقات دولية؛ بل هناك العديد منهم ينتمي إلى حقول متعددة من المعرفة، فهناك عالم الاجتماع، و عالم الاقتصاد، و عالم السياسة، و رجل الدين. ولكل منهم اهتمامات حول السياسة المحلية و فهم انعكاساتها على السياسة الدولية. وقد صنّف أساتذة العلاقات الدولية هذه الجذور الفكرية كالآتي:

١- المدرسة الرواقية.
٢- الليبرالية التقليدية.
٣- إمانويل كانت.
٤- ريشارد كوبدن.
٥- جوزيف شومبيتر.
٦- وفي العصر الراهن مايكل دويل، وجوزيف ناي، و روبرت كوهيني.

وفيما يلي نستعرض هذه المساهمات:

١- المدرسة الرواقية:

يضع بول فيوتي، و مارك كوبي المدرسة الرواقية كبداية للتصور الليبرالي لما تحمله رؤية هذه المدرسة من مبادئ و أسس أخلاقية. إذ يرى فيوتي أنه بينما تركّز الواقعية على ما يفرق الأفراد و الدول من خلافات وصراعات، تركّز الرواقية على ما يجمع الأفراد والدول. فرغم قِدم هذه المدرسة التي تعود إلى أيام الإغريق (٣٠٠ قبل الميلاد) إلا أن أفكارها كانت جلية في بداية التصور الليبرالي الذي وجد جذوره أيضاً في المثالية. إذ تدعو هذه المدرسة إلى ضرورة التحلي بالصبر، و القوة، والوقوف ضد المصاعب، والنكبات مهما كانت كبيرة، و مواجهتها بشجاعة، و التحلي بالقيم. كذلك يرى أتباع هذه المدرسة أنه مهما كانت الفوارق بين الناس؛ فإن هناك شيء أكبر يجمعهم وهو الإنسانية. فكلنا ننتمي إلى هذه الأسرة الكبيرة التي تتميز عن المخلوقات الأخرى بأن الله وهبها العقل و التفكير لتكون مختلفة عن المخلوقات الأخرى. وقد وهب الله الإنسان العقل القادر على المحاكمة و المنطق. و هذه عوامل تجمع الناس ولا تفرقهم، وتعطيهم القدرة على إيجاد القوانين و القيم المشتركة التي تتعدى الحدود الجغرافية والسياسية لتجمع الإنسانية كلها في مجتمع متكامل ومتعاون[٧١].

٢- الليبرالية التقليدية:

الليبرالية كأيديولوجية أو تقليد هي مجموعة من الأفكار السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية التي تحمل معها أهدافاً و تصورات حول القضايا التي تهم الإنسان. فبالنسبة لأتباع النظرية الليبرالية التقليدية يعد الفرد الأساس في تحليلهم ، أي أنه مستوى التحليل الأهم. فالفرد يجب أن يتمتع بجميع الحقوق السياسية و الاقتصادية من دون أي عائق. فالدولة يجب أن تؤدي دوراً بسيطاً جداً في مجتمع ليبرالي. أي أن

[٧١] Paul Viotti, Mark Kuppi, International Relations Theory, 4th ed, London, Pearson, 2010, p.120

يقوم على بناء مؤسسات اقتصادية دولية مثل البنك الدولي International Bank وصندوق النقد الدولي International Monetary Fund والغات GATT لتحرير التجارة العالمية. وقد دعا كينز إلى ضرورة إعطاء الفرد الحرية الكاملة ولكن بالوقت نفسه يجب على الدولة أن تتدخل في بعض النشاطات داخل الدولة. أما التجارة الدولية فهو يدعو إلى ضرورة تحريرها بشكل كامل. وقد عُرفت هذه السياسة بتسوية كينز في الجدل حول دور الدولة Keynesian Compromise [٧٢].

واستمرت هذه القواعد تحكم النظام الاقتصادي الدولي – حيث كانت العملات مرتبطة بالذهب، أي أن هناك سعر صرف ثابت تضمنه الدولة – حتى عام ١٩٧٠ حيث جاء الرئيس الأمريكي نيكسون إلى البيت الأبيض و اتخذ القرار بتعويم الدولار أي فك ارتباط الدولار بالذهب عام ١٩٧١، وأصبح الدولار خاضعاً للعرض و الطلب. و لكن نقطة التحول الكبيرة في الليبرالية هي وصول رونالد ريغان إلى سدة الحكم في الولايات المتحدة الأمريكية حيث كان من الجمهوريين المحافظين لذلك دعا إلى العودة إلى الليبرالية الكلاسيكية، أي خروج الدولة بشكل كامل من النشاطات الاقتصادية و الاجتماعية، و اتخذ إجراءات عدة عمد من خلالها إلى إلغاء جميع القيود و القوانين التي فرضت خلال السنوات الماضية على رأس المال و القوانين التي كانت لصالح النقابات. و سميت هذه السياسة بالكلاسيكية الجديدة، وقد اتفق مع ريغان بهذا الاتجاه رئيسة وزراء بريطانيا مارغريت تاتشر وشكّل الإثنان فريقاً يدفع السياسة الليبرالية التقليدية الجديدة التي تقوم على الحريات الفردية و إبعاد الدولة عن السوق. وقد شكّلت هذه السياسة المرجعية للسياسة الاقتصادية التي تبنتها إدارة جورج بوش الابن خلال فترتي الرئاسة(٢٠٠٠-٢٠٠٨). ويعتقد الكثيرون أن هذه السياسة كانت السبب في حدوث الأزمة المالية التي مرت بها الولايات المتحدة و العالم، و مازالت مستمرة حتى الآن (٢٠١١)- رغم الادعاء من قبل الإدارة الأمريكية الحالية (إدارة أوباما) بأن الاقتصاد الأمريكي بدأ بالتعافي. و يمكن أن يدخل مرحلة النمو ويعود إلى وضعه الطبيعي قريبا. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الجدل الحالي و المهم مازال يعكس التساؤل القديم نفسه و هو: ماهو حجم دور الدولة في النشاط الاقتصادي و الاجتماعي الذي يمكن أن تطلع به؟ هذا إذا كان هناك من دور للدولة؟ هنالك فريق يرفض تدخل الدولة و يرى إبعادها نهائياً و الاعتماد على قوى السوق كما وصف آدم سمث "الأيدي الخفية" ممثلة بالليبرالية التقليدية أو الكلاسيكية، وبين دعاة المركزية للدولة، والتخطيط الكامل، و الملكية العامة نجد التيارات الجديدة و المسماة بالطريق الثالث. وهي الاتجاهات التي ارتبطت بالكتابات المعاصرة لفترة ما بعد الحرب الباردة، وخاصة كتابات أنتوني جيدنز و غيره من المفكرين الاقتصاديين و الاجتماعيين. و ترى هذه الاتجاهات الجديدة على أن يكون هناك دور للدولة متعاظماً مع دور القطاع الخاص.

المقطع التالي يعطي بعض الأفكار لفرانسس فوكوياما حول الليبرالية بوصفها نهاية التاريخ،

---

[72] David N. Balaam and Michael Veseth, Introduction to International Political Economy, London, Pearson,2005,P.57

- في الكتاب الصادر في ١٩٩٢ (نهاية التاريخ والإنسان الأخير) The End of History and the Last Man مَجّد فوكوياما عولمة الرأسمالية الليبرالية. ولم يكن المقصود "بنهاية التاريخ" المعنى الحرفي؛ بل المعنى الفلسفي. لقد كان التاريخ برمته حتى الآن هو التفتح الذي لا يتوقف للفكرة الليبرالية. و قد جادل بأننا غير محكوم علينا بأن نعيش إلى الأبد في عالم واقعي من الصراع الحتمي. و يطرح فوكوياما تفسيرين سببين للتغير التاريخي المتدرج. فعلى الصعيد المادي تُسهّل المعرفة التراكمية للعلم التطور الاقتصادي المحتوم. حيث نجحت آلية السوق الحرة في توليد ازدهار مادي غير مسبوق على أساس شامل للعالم وقابل للاستمرار إلى مالانهاية مع حماس واندفاع سائر البلدان إلى عملية التحديث الاقتصادي وصيروزتها أكثر تشلبهاً بصورة متزايدة. و على صعيد الأفكار، يجادل فوكوياما (مثل هيغل قبله) بأن النضال التاريخي من جانب الأفراد من أجل نيل اعتراف الآخرين، أو ما يسميه النزوع الإنساني العام إلى الكرامة، يصل إلى نهايته مع انتصار الليبرالية. فللمرة الأولى في التاريخ، يستطيع الأفراد الحصول على الاعتراف المتبادل من دون إخضاعه لإرادة الآخرين(وبالتالي حرمانهم من الاعتراف بهم). وكما أن الليبرالية قد أحرزت تقدماً في المجتمع المحلي، فإنها غيرت العلاقات بين الدول الليبرالية في المجتمع الدولي.و كما هو الحال بالنسبة للدوليين الليراليين- الجدد الآخرين، فإن فوكوياما يعتقد بأن الدول الليبرالية قد أقامت اتحاد سلمياً أصبحت فيه الحرب أمراً غير وارد.

(هذا النص من: جون بيليس، عولمة السياسة العالمية، لندن، أكسفورد، ١٩٩٧ ترجمة مركز الخليج للأبحاث، ٢٠٠٤، ص ٣٣١)

هكذا نرى أن فوكوياما يعتقد أن نظاماً ديموقراطياً ليبرالياً قائماً على مبدأ سيادة الشعب، وضمان الحقوق الأساسية في ظل سيادة القانون هو المؤسسة السياسية الوحيدة القادرة على إشباع تللك الرغبة الكونية الشاملة في الحصول على الاعتراف بأن الإنسان ندّ مساو لأخيه الإنسان على قاعدة تشمل العالم كله[٧٣].

إمانويل كانت

إن نظرة الليبراليين للسياسة الداخلية، و نظرتهم للمجتمع الداخلي المحلي انعكست على نظرتهم للسياسة الدولية. فالليبراليون يعترفون بأن الحرب أحد الصفات الأساسية للعلاقات الدولية. فهم يشاركون أتباع الواقعية بأن غياب السلطة المركزية من النظام الدولي يولد بيئة تختلف عن البيئة الداخلية. وأن هذه البيئة تولد عدم الثقة بين القوى الفاعلة، وتضفي على العلاقات الدولية شيئاً من عدم الوضوح. ولكن اعتقد الليبراليون ان هناك انسجاماً في المصالح داخل المجتمع المحلي، فإن هذه الفرصة موجودة في المجتمع الدولي. أي أنه يمكن أن يكون هناك انسجام بالمصالح بين الدول و إسقاط السياسة المحلية على العلاقات الدولية، أي بشكل

[73] روبرت جاكسون، ميثاق العولمة، ترجمة فاضل جتكر، دار عبيكان، الرياض، ٢٠٠٣،ص ٧٠٢

أوضح تطبيق نظرة الليبراليين في السياسة المحلية على العلاقات بين الدول جاء واضحاً في كتابات إمانويل كانت (١٧٢٤-١٨٠٤) الذي يعد أحد أهم رواد الليبرالية، الذي بنى على كتاباته عدد كبير من الأساتذة و علماء السياسة ما يسمى بنظرية السلام الديموقراطي التي سيتم بحثها لاحقاً في هذا الفصل. لقد تأثر إمانويل كانت بأفكار المدرسة الرواقية؛ وخاصة مبدأ العالمية الذي قابله مفهوم كانت بالمواطنة العالمية، و دعوته إلى اتحاد فيدرالي بين الدول كطريق للسلام. لقد كانت رؤية كانت لعالم متعدد فيه دول عديدة، ولكن يمكن لهذا العالم أن يعيش بدون حروب. و على الرغم من هذه الرؤية إلا أن كانت لم يتجاهل الدولة الوطنية، فقد أشار إلى أن أي دراسة أو استراتيجية تتعامل مع النظام الدولي لا بد أن تقر بغياب السلطة المركزية وأن تعترف بوجود الدولة-القومية.

وبالنسبة لكانت، فإن إلغاء الدولة القومية أو إقامة وحة سياسية "شبه إمبراطورية" لن يحل مشكلة الحرب؛ لأن الجماعات المتحاربة ستتحارب حتى داخل الإمبراطورية الواحدة، ولكنه يختلف مع هوبس بتقييمه لأثر غياب السلطة المركزية حيث يرى هوبس بأن غياب السلطة سوف يقود إلى الصراع الدائم "الكل ضد الكل"، بينما يرى كانت أن التطور التدريجي للمجتمع البشري سوف يقود إلى مجتمع دولي، وأن تجارب البشرية سوف تعلمهم بأن الحرب لن تحقق أهدافهم، وأن السلام هو الأفضل لهم. لذلك دعا كانت إلى إقامة جمهوريات من أجل أن يتحقق السلام، و قد شكلت هذه الرؤية الأساس الفكري للنظريات الحالية المتعلقة بالسلام الديموقراطي[٧٤].

فيما يلي مقتطفات مما كتبه إمانويل كانت في سبيل سلام دائم:

"إن حالة السلام بين البشر الذين يعيشون جنباً إلى جنب ليست حالة طبيعية، الحالة الطبيعية هي الحرب. هذا لا يعني دائماً وجود عداوات صريحة، ولكنه يعني وجود تهديد متواصل بالحرب على الأقل.

حالة السلام- بالتالي – يجب أن توطد، ففي سبيل الأمن من العداوة لا يكفي ألا يرتكب العدوان، وما لم يتم ضمان الأمن من قبل كل جار لجاره(وهو ما لا يحدث إلا في حالة متمدنة) فإنه قد يعامل جاره الذي يلتمس منه هذا الأمن كعدو له.

المادة النهائية الأولى من أجل سلام أبدي.

(يجب أن يكون الدستور المدني لكل دولة جمهورياً)

إن الدستور الوحيد الذي يشتق من فكرة الميثاق الأصلي ، والذي يجب أن يستند إليه كل تشريع عدلي للشعب هو الدستور الجمهوري. هذا الدستور مؤسس أولاً: على مبادئ حرية أعضاء المجتمع (بوصفهم بشراً). ثانياً: على مبادئ تابعية الجميع لتشريع واحد مشترك (بوصفهم رعايا). ثالثاً: على قانون المساواة بينهم (بوصفهم مواطنين).

إن الدستور الجمهوري، إذن- فيما يتعلق بالقانون –هو الذي يكوّن الأساس الأصلي لكل أشكال الدساتير المدنية. والسؤال الوحيد الآن هو: هل هو الوحيد أيضاً الذي يمكن أن يقود إلى سلام أبدي؟

---

[74] Paul Viotti and Mark Kuppi, International Relations Theory, 4th ed, London, Pearson, 2010, p 122

الدستور الجمهوري، إلى جانب نقاء أصله (ولكونه نابعاً من الأصل النقي لمفهوم القانون)، يعطي أيضاً ملمحاً إيجابياً للمآل المنشود، أعني السلام الأبدي. وتعليل ذلك: إذا كانت استجابة المواطنين شرطاً لإقرار إعلان الحرب (وفي هذا الدستور لا يمكن إلا أن تكون كذلك)، فلا شيء طبيعي أكثر من أنهم سيكونون جدّ حذرين للشروع في هذه اللعبة البائسة، أي إقرار كل ويلات الحرب ضد أنفسهم. ففي النهاية سيكونون مضطرين للقتال ودفع نفقات الحرب من مواردهم الخاصة، وسيكون عليهم- بكل ألم – إصلاح ما تتركه الحرب من خراب وراءها، و سد النقص الذي تخلفه بأن يحملوا أنفسهم عبء دين وطني ثقيل سوف يجعل طعم السلام نفسه مراً، وهو ما لا يمكن سداده بسبب الحروب المتعاقبة في المستقبل. لكن من ناحية أخرى، في دستور غير جمهوري لا يكون فيع الرعايا مواطنين، فإن إعلان الحرب هو أكثر القرارات سهولة في العالم، ذلك أن الحرب لا تقتضي من الحاكم، بوصفه مالكاً للدولة لا عضواً فيها، أدنى تضحية بملذاته من الموائد، و مراتع الصيد، والخلوات الريفية، و حفلات البلاط، و ما في ذلك. إذ يمكنه لأكثر الأسباب تفاهة أن يعتزم الحرب كما لو كان يعتزم إقامة حفل، و لسوف يترك بلامبالاة كاملة، أمر تبريرها- الذي تقتضيه أصول اللياقة – إلى السلك الدبلوماسي المستعد دائماً لتزويده بمسوغات الحرب.....

المادة النهائية الثانية من أجل سلام أبدي.

(يجب أن ينشأ قانون الأمم على اتحاد الدول الحرة)

إن الشعوب ، بوصفها دولاً، هي مثل الأفراد، قد تحاكم بما ألحقته من ضرر بغيرها، بمجرد تعايشها في الحالة الطبيعية(أعني: طالما أنها غير خاضعة لقانون خارجي) فبإمكان كل شعب، من أجل أمنه، بل من واجبه أن يطال الآخرين بالانضواء معه في دستور شبيه بالدستور المدني، إذ تحت دستور كهذا يستطيع كل شعب تأمين حقه. وهو ماسيكون عصبةً للأمم، ولكنها لن تكون بالضرورة دولة واحدة تجمع الأمم، فذلك سيشكل تناقضاً، طالما أن الدولة تقتضي علاقة أعلى (المشروع) بأدنى (الخاضع)، أعني: الشعب.....لهذه الأسباب، لا بد من وجود عصبة من نوع معين، يمكن أن تدعى "عصبة السلام"، تكون متميزة عن معاهدة السلام في أن الأخيرة تنهي حرباً واحدة فحسب؛ بينما تسعى الأولى إلى وضع نهاية لجميع الحروب للأبد. هذه العصبة لا تعنى بأية هيمنة على سلطة الدولة، ولكنها تعنى فقط بصون وأمن حرية الدولة نفسها، والدول الأخرى في هذه العصبة، دون أن تكون هناك حاجة لكي تذعن للقوانين المدنية وإلزاماتها، شأن إذعان الأفراد في حالة الطبيعة."

(المواد ١-٢ مأخوذة من :كانت، من أجل سلام أبدي: مسودة فلسفية، ترجمة وتقديم عبد المنعم المحجوب، تونس، دار الأصالة المعاصرة، ٢٠١٠ ص٢٧-٣٨)

المادة النهائية الثالثة من أجل سلام أبدي.

(يجب أن يكون قانون المواطنة العالمية محدداً بشروط الوفادة الكونية)

وهكذا فإن شعوب الأرض قد انخرطت بدرجات متفاوتة في مجتمع عالمي و تطورت إلى حد أن يتم الشعور بأن انتهاكاً للحقوق في جزء ما من العالم هو انتهاك للحقوق في كل مكان. ففكرة الحق العالمي ليست خيالية ومبالغاً بها، بل هي عنصر متمم للمدونة غير المكتوبة للحق السياسي والدولي، إلى حق عالمي للبشرية .
(هذه المادة مأخوذة من كتاب عولمة السياسة العالمية للمؤلفين: جون بيليس، و ستيف سميث، لندن، أكسفورد ١٩٩٧ ص ٣٢٠)

ريتشارد كوبدن

يُعد ريتشارد كوبدن (١٨٠٤-١٨٦٥) من رواد الليبرالية التجارية التي تدعو إلى حرية التجارة مثله مثل آدم سميث وديفد ريكاردو وجون ستوارت مل. وقد أشار كوبدن إلى ثلاث حالات تؤثر التجارة الحرة في السلام (ثلاث طرق تؤثر من خلالها التجارة الحرة في السلام) .
أولاً: بالنسبة لكوبدن الحروب في أغلبها ناتجة عن تطبيق السياسات المركنتيلية التي كانت تطبقها الدول. فمن خلال التجارة الحرة التي تعد من أساسيات النظام الرأسمالي سوف يكتشف القادة أنهم يستطيعون أن يحصلوا على الثروة وكل ما يريدون من خلال طرق أفضل من الحرب و هي التجارة الحرة.
ثانياً: حتى في حال الحروب التي أسبابها ليست المنافسة التجارية فأن الدول التي تعاني من خسائر يسبب الحروب التي تنشب لن تلجأ إلى البدء أو المشاركة في حروب تعرف مسبقاً أنها ستخسر من توقف التجارة الحرة و خاصة الدول ذات الاعتمادية العالية في التجارة الدولية.
ثالثاً: يعتقد كوبدن أن مع التجارة الحرة سوف تزداد الاتصالات بين الشعوب والدول ذلك ينعكس بشكل إيجابي لينشر الصداقة بين الدول وزيادة الاعتمادية المتبادلة. وهذا بدوره يقود الى سلام دولي شامل[٧٥] .

جوزف شومبيتر (١٨٨٥-١٩٥٠)

يعتقد بعض المفكرين أن قوة إيمان وثقة إمانويل كانت بالديموقراطية، وإيمان كوبدن بالتجارة الحرة ، والنظام الرأسمالي اجتمعا في كتابات جوزف شومبيتر. إذ يرى شومبيتر أنه على العكس مما يعتقد البعض بأن الرأسماليين يذهبون إلى الحروب لزيادة ثرواتهم وتراكمها، فهو يرى أن الحروب تدمر رأس المال؛ و تقضي على الفرص؛ ولذلك فالرأسماليون سيكونون دائماً أكثر حرصاً على إيجاد نظام ديموقراطي وسلام دائم من خلال التجارة الحرة؛ لأن ذلك يخدم مصالحهم، ويحفظ لهم رأسمالهم، و ثروتهم. وبناء على هذه الرؤية السلام يعم من خلال توسيع

---

[75] Ibid 123

النظام الرأسمالي، و انتشار التجارة الحرة، و الديموقراطية بين الدول. كذلك يشير علماء العلاقات الدولية إلى نقطة مشتركة بين كوبدن، وكانت، وشومبيتر وهي أن طبيعة الدولة والنظام السياسي والأفكار و الإيديولوجية التي تشكل القاعدة أو المرجعية لهذه الأنظمة تؤدي الدور الأساسي في زيادة أو نقص احتمالات الحروب في العالم.

جماعات الضغط او جماعات المصالح

تمثل رؤية أتباع الليبرالية لمجموعات المصالح العاملة داخل المجتمع المحلي و أثرها في تحديد طبيعة السياسات العامة نقطة انطلاق مجموعة من الليبراليين الذين يعتقدون أن ما تمارسه هذه المجموعات وما ينطبق عليها من تحليل يمكن أن ينطبق على هذه المجموعات و مجموعات أخرى تعمل على الصعيد الخارجي أي السياسة الخارجية، لذلك هناك رفض من قبل هؤلاء الليبراليون للرؤية الواقعية في الفصل أو التقسيم بين السياسة الدولية و السياسة المحلية. فهم يرون أن الخط الفاصل بين المجالين المحلي و الدولي أصبح غير واضح أي أن ما هو محلي يؤثر في السياسة الخارجية، و ماهو خارجي يمكن أن يؤثر محلياً. يعد ديفد ترومان (١٩١٣-٢٠٠٣) أحد رموز هذا الاتجاه من الليبرالية الذي درس السياسة المحلية في الولايات المتحدة حيث بيّن أهمية جماعات المصالح المنظمة في جعل القرارات أفضل من الناحية الديموقراطية، فهو يرى أن هذه الجماعات على الرغم من الجوانب السلبية التي قد تأتي من الصراع فيما بينها إلا ن وجودها هو شيء صحي للديموقراطية، و أن هذا المدخل يكون صحيحاً بالنسبة لأثر هذه الجماعات على الصعيد الخارجي. والأمثلة على ذلك كثيرة في المجتمعات الديموقراطية.

وفيما يلي جدول يوضح الاتجاهات الأساسية لثلاثة مفكرين ليبراليين:

الجدول رقم (٨): المفاهيم الأساسية لبعض المفكرين الليبراليين

محط الاهتمام، وأهم المفاهيم لثلاثة مفكرين أوائل		
إمانويل كانت ١٨٠٤-١٧٢٤	جيرمي بنثام ١٨٣٢-١٧٤٨	جان لوك ١٦٣٢- ١٧٠٤

التقدم والسلام الدائم	التعاون والتبادل،القانون الدولي	التركيز على الدول الدستورية واحترام وقبول الغير

وقد ميز تيمثي دن بين ثلاثة تصورات لليبرالية وذلك حسب مستويات التحليل حيث يركز كل تصور على مستوى من مستويات التحليل.

١- التصور الأول الذي يركز على الطبيعة البشرية، و يمثله ريتشارد كوبدن الذي يرى أن أسباب الصراع تكمن في عمليات تدخل الحكومات على الصعيدين المحلي و الدولي والتي توقع الاضطراب في النظام الطبيعي، أما محددات السلام فيجدها كوبدن في الحرية الفردية، والتجارة الحرة، والازدهار، والترابط.

٢- التصور الثاني الذي يركز على مستوى الدولة، ويمثله رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في العقد الثاني من القرن العشرين وودرو ولسون ويرى أن أسباب الصراع تكمن بالطبيعة غير الديموقراطية للسياسة الدولية، لا سيما السياسة الخارجية و ميزان القوى، بينما يجد محددات السلام في حق تقرير المصير القومي، حكومات مفتوحة تتجاوب مع الرأي العام، والأمن الجماعي.

٣- أما التصور الثالث لليبرالية، فيركّز على بنية النظام، ويمثله جي أيه هوبسون (J.A. Hobbson) الذي يجد أن أسباب الحروب في نظام توازن القوى، و محددات السلام في حكومة عالمية، تتمتع بسلطة التوسط وتنفيذ القرارات.

والجدول التالي يلخص هذه التصورات.

الجدول (٩): بعض تصورات الليبرالية:

تصوّر الليبرالية	ممثل هذا التصور	أسباب الصراع	العناصر المحددة للسلام
التصوّر الاول: الطبيعة البشرية	ريتشارد كوبدن /منتصف القرن ١٩	عمليات تدخل الحكومات على الصعيدين المحلي و الدولي والتي توقع الاضطراب في النظام	الحرية الفردية، التجارة الحرة، الازدهار، الترابط

التصوّر الثاني: الدولة	وودرو ولسون/ اوائل القرن العشرين	الطبيعة غير الديموقراطيةللسياسة الدولية، لاسيما السياسة الخارجية، وميزان القوى	حق تقرير المصير القومي،حكومات مفتوحة تتجاوب مع الرأي العام، الامن الجماعي
التصوّر الثالث: بنية النظام	جي. آيه.هوبسون	نظام توازن القوى	حكومة عالمية، تتمتع بسلطة التوسط وتنفيذ القرارات

المصدر: تيمثي دن، الليبرالية، في كتاب جون بيليس و ستيف سميث، عولمة السياسة العلمية، لندن، أكسفورد، ١٩٩٧، ترجمة مركز الخليج للأبحاث، ٢٠٠٤، ص ٣١٦

وبعد هذا الاستعراض السريع لتطور الليبرالية في العلاقات الدولية، ولإعطاء صورة أفضل لفهم هذه النظرية، لابد من دراسة المفاهيم الأساسية للنظرية و كيفية استخدام هذه المفاهيم لشرح وفهم العلاقات بين الدول. و أهم المفاهيم التي سنستعرضها،هي : النظام، وميزان القوى، والاعتمادية،و صناعة القرار، والتغيير، والسلام الديموقراطي، و أخيراً الحداثة، والتطوّر.

النظام: System

كما الواقعية، يرى أتباع الليبرالية أن هناك وحدات فاعلة منها الدولة القومية و وحدات فاعلة غير الدولة تقيم فيما بينها علاقات متنوعة يشكل مجموعها النظام الدولي، وهذا النظام تغيب عنه السلطة المركزية أي ما يسمى Anarchy ولكن بعكس ما يفترضه الواقعيون أن طبيعة هذا النظام تقود إلى الصراع، فإن الليبرالية ترى أن غياب السلطة المركزية يجعل الدول تلجأ إلى التعاون لحل مشاكلها المشتركة. كذلك تنظر الليبرالية إلى النظام على أنه تفاعلات وعمليات تتكرر Process وليس بناء أو بنية Structure ثابتة لها حتمية التأثير على الدول .[٧٦] بالإضافة إلى ذلك لا يشكل النظام الدولي الأولوية لدى الليبراليين في مستويات التحليل، بل تركز الليبرالية على مستوى الفرد و مستوى الدولة.
ومن ناحية أخرى ينطلق أتباع الليبرالية من افتراض أساسي قوامه أن القانون الدولي والمنظمات الدولية تؤدي دوراً مهماً في العلاقات بين الدول، وهذا يخفف من طبيعة المعضلة الأمنية، و يساعد على بناء الثقة، وتخفيف أثر عدم الوضوح في العلاقات الدولية.

[76] Paul Viotti, Mark Kupi, International Relations Theory, London, Pearsons, 1999.p 194

ميزان القوى Balance of Power

يؤدي مفهوم ميزان القوى دوراً بارزاً في العلاقات الدولية فقد نظر إليه الواقعيون كما الأيدي الخفية في السوق، كما صورها آدم سميث، فالأيدي الخفية تؤمن الاستقرار في السوق، وميزان القوى يؤمن التوازن و الاستقرار في النظام الدولي؛ بالاضافة إلى ذلك يشكل هذا المفهوم أداة تحليل في العلاقات الدولية كما وظفها أتباع الواقعية الجديدة[٧٧]. إلا أن الليبرالية و الليبرالية الجديدة تنتقد هذا التضخيم لميزان القوى كمفهوم و كأداة تحليل و سياسة أو استراتيجية. وهذا منسجم مع افتراضاتها الليبرالية المتمثلة بإن التعاون الدولي هو الأساس في العلاقات الدولية وأن الصراع هو حالة استثنائية. و التركيز على افتراض أن الدول تسعى إلى الزيادة المطلقة في قوتها وليس النسبية وذلك لعدم اعتقاد أتباعها بأهمية توازن القوى كأداة وسياسة تستخدم دائماً من قبل الدول.

الاعتمادية المتبادلة Interdependence

إن مفهوم الاعتمادية يستخدم من قبل أساتذه العلاقات الدولية؛ وخاصة أتباع النظرية الليبرالية ليشير إلى أن حالة من التشابك بين الدول بحيث تتأثر كل دولة بما يجري في الدولة الأخرى. فلو نظرنا إلى بضاعة تنتج في بلد ما مثل الولايات المتحدة نجد أن بعض المواد الأولية الداخلة في التصنيع تستورد من دولة أخرى وتجمع أجزاء هذا المنتج في بلد آخر، و يباع في بلد ثالث. وقد أشار كتاب و مفكرون أمثال روبرت كوهيني و جوزف ناي في كتابهما القوة والاعتمادية Power and Interdependence إلى أن عالمنا يشهد ازدياداً في درجة الاعتمادية فيما بين الدول حتى أصبح هناك علاقات وتشابكات و تداخلات بين الدول تشبه شبكة العنكبوت التي تربط الدول بعضها ببعض، فما يجري في دولة ما يؤثر في الدول الأخرى. فالاعتمادية توجد عندما يكون تأثيراً متبادلاً حتى وإن كان غير متوازن بين الدول و الوحدات الفاعلة. بمعنى آخر إذا كان هناك قابلية للتأثير و الحساسية لدى دولة (A) بما يجري في دولة أخرى (B). و هنا يجب الإشارة إلى مفهومين أساسيين يستخدمهما الليبراليون و الواقعيون على حد سواء، ولكن بمعنى و تصور مختلف لكل منهم. المفهوم الأول Sensitivity هو حساسية الدولة A بما يجري في الدولة B . أما المفهوم الثاني Vulnerability.أي قابلية طرف من الأطراف لأن يكون ضعيفاً أو في موقف ضعف في لحظة معينة، :أن تكون الدولة الأولى في درجة من الاعتمادية أعلى من درجة اعتمادية الدولة الثانية؛ و لذلك تكون الدولة الأولى بموقف أضعف من الدولة الثانية. وهذا يعني أن صانع القرار في الدولة الأولى لا يستطيع اتخاذ القرارات بحرية كالدولة الثانية. و هذا يقودنا إلى التمييز بين نوعين من الاعتمادية، الأول الاعتمادية المتوازنة؛ أي أن الدول الأطراف تتمتع بدرجات

[٧٧] Kenneth Waltz, Theory of International Politics, Wesly, New York, 1979

متقاربة من الاعتمادية، أما النوع الثاني من الاعتمادية هو الاعتماد غير المتوازن والذي يعني أن أحد الأطراف يعتمد على الآخر بدرجة أكبرمن اعتماد الطرف الأخر عليه.

والأهم من هذا التوصيف هو ما يفترضه الليبراليون من آثار لهذه الحالة من الاعتماديةعلى العلاقات الدولية. فهم يعتقدون أن هذه الاعتمادية بين الدول تجعل العلاقات الدولية أكثر استقراراً و أقل عنفاً. فالاعتمادية تقلل من احتمالات الحرب؛ لأن الدول لن تضحي بمصالحها مع الدول الأخرى باستخدام العنف في علاقاتها الخارجية وخاصة مع الدول التي لها معها اعتمادية و علاقات كبيرة. هذا الرأي تعرض لنقد شديد من أتباع الواقعية الجديدة. إذ يرى كينث ولتز أنه على العكس مما يعتقده الليبراليون، فإنه كلما زادت درجة الاعتمادية، زاد احتمال الحرب[٧٨]. إذ يرى الواقعيون أن الاعتمادية لا تمنع حدوث الحروب فقط، بل يمكن أن تكون سبباً لها.

والحقيقة أن فكرة العلاقة بين الاعتمادية والسلام قديمة إذ أشار العديد من الكتّاب إلى أن فكرة التجارة الحرة تقود إلى السلام قد طرحها العديد من الكتّاب خلال القرن التاسع عشر و القرن العشرين. وفي النصف الثاني من القرن العشرين عادت هذه الفكرة لتحتل مكاناً متقدماً في اهتمام الكتّاب و المفكرين. فعلى سبيل المثال كتب رتشارد روسكرانس كتابه "صعود الدولة التجارية" الذي يقارن فيه بين عالمين الأول هو عالم الواقعية القائم على توازن القوى،والثاني هوعالم التجارة الحرة و الليبرالية مستخدماً نظرية اللعبة ليبين أن بروز عالم يقوم على التجارة الحرة أو عالم تجاري يؤسس لعالم تغيب عنه الصراعات و تقوم فيه أنماط من التعاون بين الدول، حيث تجد الدول أن فائدة التجارة الحرة تفوق بشكل كبير أي فائدة من سباق التسلح والإنفاق العسكري وخير مثال على ذلك اليابان[٧٩].وإذ يبين روسكرانس دور التجارة الحرة في الاستقرار و السلام في العلاقات بين الأمم، لا ينفي احتمالات بروز حالات الصراع لكنه يقول إن الدول ستجد أن التعاون في بناء نظام التجارة الحرة و الاعتمادية أكثر فائدة من الصراع.

وعلى صعيد تطبيق هذه النظرية نجد أن السياسات التي تبناها العديد من قادة العالم تستند إلى هذه النظرية. فعلى سبيل المثال الرئيس الأمريكي وليام جفرسون كلنتون William (Bill) Jefferson Clinton (١٩٩٢-٢٠٠٠) تبنى سياسة تقوم على توسيع التجارة بين الدول من خلال دعم منظمة التجارة العالمية والانخراط مع الدول الأخرى و خاصة الصين واليابان بعلاقات تجارية كبيرة. كما أسست الولايات المتحدة الأمريكية تكتلاً اقتصادياً (النافتا) (NAFTA) لزيادة التجارة بين دول شمال القارة الأمريكية، ودعمت إنشاء تكتلات مماثلة في مناطق أخرى في العالم لخلق المزيد من الاعتمادية بين الدول. وعلى الرغم من الانتقادات الموجهة إلى نظرية الاعتمادية، إلا أنها مازالت تحظى باهتمام كبير؛ و خاصة في ظل ما يسمى بعصر العولمة.

---

[78] Kenneth Waltz, In Robert Keohane, NeoRealism and its Critics, New York, Columbia Press, 1986

[79] Paul Viotti, Mark Kuppi, International Relations Theory, 4thed, London, Pearson, p. 2010, p.138

كما تم التنويه إليه في هذا الفصل فإن الليبرالية تركز على مستوى الدولة، و مستوى الفرد في تحليل العلاقات الدولية. وهذا يعني الدخول إلى داخل "الصندوق الأسود" أي داخل الدولة كمؤسسة ودراسة دور البيروقراطيات و المؤسسات الأخرى في الدولة في صناعة القرار. وبذلك تكون الليبرالية ركزت على مجموعة من العوامل الداخلية، أهمها: دور البيروقراطيات، وآلية صناعة القرار، والرأي العام، وجماعات الضغط، ومراكز الأبحاث. و يقصد بالبيروقراطيات المؤسسات داخل الدولة، مثل: الوزارات (وزارة الدفاع، و وزارة الخارجية،و وكالة الاستخبارت، و غيرها من المؤسسات) . في ذلك ينطلق أتباع الليبرالية من أن كل مؤسسة أو بيروقراطية لها مصالحها التي تحاول حمايتها وتحاول التأثير على صناعة القرار. ويشير علماء العلاقات الدولية إلى ثلاث طرق يمكن للبيروقراطيات من خلالها التأثير في صناعة القرار:

١- تصفية المعلومات Filtering Information

في محاولة للتاثير على صناعة القرار تقوم البيروقراطيات بتصفية بشكل انتقائي للمعلومات التي تعطى لصانع القرار. حيث توصل ما يخدم مصالح هذه البيروقراطيات من معلومات و إخفاء المعلومات التي تضر بمصالحها. وهنا يجب الإشارة إلى أن الأفراد العاملين في المؤسسات لهم مصالحهم أيضاً على الصعيد الشخصي إلى جانب مصالح المؤسسة. والمثال الواضح في هذا المجال ما قدمته وكالة الاستخبارات الأمريكية لصانع القرار من معلومات غير صحيحة حول أسلحة الدمار الشامل العراقية قبل الغزو الأمريكي للعراق في ٢٠٠٣ وظهر جلياً في جلسات مجلس الأمن عندما عرض وزير الخارجية الأمريكي السابق كولن باول صوراً ووثائق مزورة لتبرير الهجوم الأمريكي على العراق، و من ثم تبين أن هذه المعلومات غير صحيحة و أنه كان قد استُخدِم و كُذِب عليه من قبل وكالة الاستخبارات الأمريكية، وذلك ما اعترف به باول نفسه.

٢- التوصيات Recommendation

الوسيلة الثانية للتأثير في صناعة القرار هي التوصيات، و الاستراتيجيات أو الخيارات المتاحة التي توصي بها المؤسسات لصانع القرار. حيث تحاول هذه المؤسسات حصر الخيارات بعدد محدود و الإشارة إلى واحد من هذه الخيارات على أنه الأفضل. فمن المعلوم أنه لكل قضية أو مسألة هناك العديد من الخيارات التي يمكن لصانع القرار أن يختار منها، و لكن البيروقراطيات تعمد دائماً إلى الإشارة إلى خيار واحد على أنه أفضل الخيارات المتوفرة أمام صانع القرار؛ و ذلك لأن هذا الخيار يخدم مصالح البيروقراطيات.

٣- التنفيذ Implementation

وأخيراً تستطيع البيروقراطيات التأثير في القرار من خلال مرحلة التنفيذ. إذ تختار الطرق التي تخدم مصالحها في تنفيذ القرارات الصادرة. إذ يرى أتباع هذا التيار أن تنفيذ القرارات عادة يأخذ أشكالاً مختلفة، و يستغرق فترة زمنية يستطيع من

خلالها البيروقراطيون اختيار الطريقة الأنسب لهم. ويرجحون قراءاتهم لآلية التنفيذ، و طريقتها[80].

بالإضافة إلى دور المؤسسات و البيروقراطيات يشير الليبراليون إلى دور صانع القرار كفرد، و جماعة من خلال التركيز على العوامل المؤثرة سواء داخلية أم خارجية في اتخاذ القرار. فعلى سبيل المثال يشير رتشارد سنايدر Richard Snyder إلى أنه من أجل تحليل السياسة الخارجية يجب إعادة بناء البيئة التي صُنع فيها القرار، ويميز علماء السياسة بين نوعين من البيئة، البيئة المادية وهي البيئة المحيطة بصانع القرار من مستشارين وقوى أخرى تؤثرفي مُتخذ القرار، والبيئة النفسية لمُتخذ القرار؛ وذلك يتضمن تصوّره للموضوع،و شخصية القائد،و حسابات صانع القرار وغيرها من العوامل النفسية[81]. وقد لخص سنايدر نظريته في صنع القرار في السياسة الخارجية على الشكل الآتي:

أولاً:البيئة الداخلية لصنع القرار،و تشمل:

١- البيئة الغيرانسانيةالمحيطة بصانع القرار.

٢- المجتمع.

٣- البيئة الإنسانية: الثقافة، والسكان.

ثانياً: الاجتماعي والسلوك ويشمل:

١- القاسم المشترك الرئيس : التوجهات ، والقيم.

٢- المشترك الدستوري: النماذج.

٣- الخصائص الرئيسة للمنظمات الاجتماعية.

٤- دور الاختلافات والاختصاصات.

٥- الجماعات و الاختصاص، والوظائف.

٦- العمليات الاجتماعية المناسبة: تكوين الرأي العام ، المؤثرات الاجتماعية، والسياسية.

ثالثاً: عملية صنع القرار ، صناع القرار.

رابعاً: البيئة الخارجية لصنع القرار، وتشمل:

١- البيئة غير الإنسانية.

٢- الثقافات الأخرى.

٣- المجتمعات الأخرى.

٤- المجتمعات المنظمة، والموظفة.

في التركيز على هذه العوامل تكون الليبرالية قد أبرزت أهمية عوامل عديدة تؤثر في صناعة القرار تغفلها الواقعية الجديدة.

في هذا الإطار أيضاً يشير عدد من الباحثين إلى ما يدعونه نمط التفكير الجماعي الموحد الذي يتولد من خلال مجموعة صناعة القرار التي تجتمع دائماً، و تدرس الموضوع بعضها مع بعض، وبعد فترة يصبح هذا النمط من التفكير مشتركاً؛ وبذلك

---

[80] John T. Rourke and Mark A. Boyer, International Politics on World Stage, Madison, Il. Brown and Benchmarck Publications, 1996, p.74-75 .

[81] Paul Viotti and Mark Kuppi, International Relations Theory, London, Longman, 1999. P.205

نستطيع أن نفهم دور هذه المجموعة التي سماها أستاذ العلوم السياسية الأمريكي جانس(Groupthink) وإدراك النمطية في تفكير مجموعة صناعة القرار[٨٢]. حيث يرى إرفنغ جانس Irving Janis أن تعبير Groupthink يشير إلى أن هناك نمطاً من التفكير بين مجموعة من الأفراد ينتمون إلى مجموعة متماسكة وقريبة من بعضها البعض، فيصبح الهدف للأعضاء إرضاء بعضهم بعضاً بدلاً من محاولة البحث عن أفضل الحلول للمسألة المطرحة. فعلى سبيل المثال خوفاً من الاصطدام مع الأفراد الآخرين يقتصر الحديث حول بعض الخيارات التي لا تتعارض مع رؤية الآخرين. كذلك في سبيل اتخاذ القرار لا يستعان بخبراء من خارج المجموعة خوفاً من أن تطرح بدائل غير مرضية لأفراد المجموعة[83].

السلام الديموقراطي Democratic Peace

تشكل فرضية السلام الديموقراطي جزءاً مهماً من النظرية الليبرالية. إذ يزعم الليبراليون أن الديموقراطية تولد السلام، وفي هذا الاتجاه يشير أتباع هذه النظرية إلى غياب الحرب بين الدول الديموقراطية خلال الستين عاماً الماضية. ويعزو الليبراليون أسباب هذه الظاهرة إلى عدة عوامل، أهمها:

١- أن لدى الدول الديموقراطية ثقافة سياسية تقوم على احترام القانون وقبول الغير، و حل النزاعات بالطرق السلمية وهذا ينعكس على علاقاتها الخارجية مع الدول الأخرى. ولكن لا يستبعد الليبراليون احتمال الحرب ضد الدول غير الديموقراطية.

٢- أن النظام السياسي للدول الديموقراطية الذي يقوم على التعددية و التداول السلمي للسلطة و الانتخابات الحرة والدور الكبير للرأي العام يشكل عاملاً هاماً في كبح وضبط سلوك قادة هذه الدول الديموقراطية، فالقائد يعرف أنه اذا اتخذ قراراً مخالفاً لإرادة الشعب لا يعاد انتخابه، و إذا اتخذ قراراً خاطئاً سوف يحاسب أمام السلطة التشريعية.

٣- أن الدول الديموقراطية تشكل ما يسمى مجال السلام Zone of Peace فيما بينها، وتصبح هذه الدول رافضة لأي انتهاك للقواعد الحضارية السائدة في هذا المجال أو المنطقة التي تتبنى الديموقراطية.

وقد وصف أستاذ العلوم السياسية الأمريكي جاك ليفي فرضية السلام الديموقراطي بأنها أقرب ما يكون لقانون طبيعي في العلاقات الدولية[٨٤].

تعود جذور فكرة العلاقة بين الديموقراطية و السلام إلى الفيلسوف الألماني إمانويل كانت الذي أشار إلى عدة شروط من أجل سلام دائم أهمها أن تكون الدول جمهورية Republic أي ديموقراطية. والشرط الثاني هو أن تقيم الدول فيما بينها منظمة دولية لتنظيم العلاقات بينها. وقد طوّر عدد من المفكرين أفكار كانت وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية. وفي العقود الأخيرة من القرن العشرين برزت كتابات عديدة في هذا المجال كان أهمها كتابات بروس رست (Bruce Russet)، و مايكل دويل

---

82 Ibid 207

83 Paul Viotti. Mark Kuppi, International Relations Theory, 4thed, London, Pearson, 2010, p.459

84 Mark Levy, International conflict and Democracy,

(Micheal Doyle)، وجون أوين (Jhon Own) التي تشكل قاعدة نظرية مهمة لفرضية السلام الديموقراطي[٨٥].

لا ينفي أتباع الليبرالية إمكانية ذهاب الدول الديموقراطية للحرب ضد الدول غير الديموقراطية أو الدكتاتورية.

وقد شهدت العقود الأخيرة استراتيجيات مبنية على هذه النظرية. ففي الولايات المتحدة الأمريكية وظفت إدارة جورج بوش الابن بما مثلته من فكر محافظ النظرية لتبرير الاحتلال الأمريكي للعراق ٢٠٠٣. إذ دافع الأمريكون عن احتلالهم بقولهم إن نشر الديموقراطية في العراق ليس فقط نصراً وفيه فائدة عظيمة للعراقيين، إنما أيضاً سينعكس بالفائدة على المنطقة العربية، و الشرق الأوسط بشكل عام.

وعلى الرغم من أنه من الصعب الحكم على صحة هذه النظرية، فإنه من الأصعب نفيها من خلال الطرق العلمية بالملاحظة و التجريب.

التكامل Integration

ظهرت الاتجاهات الأساسية لنظرية التكامل في الأربعينيات من القرن العشرين؛ إذ برزت مجموعة من المساهمات الفكرية التي تشير إلى ظاهرة التعاون و التقارب الدولي. إذ تسائل ديفد متراني David Mitrany صاحب النظرية الوظيفية عن الآثار المترتبة على التطور التكنولوجي على العلاقات بين الدول. وفي هذا المجال يرى متراني أن الدول تجد نفسها عاجزة عن الاستجابة لتحديات المجتمع الحديث[٨٦]. وخاصة التقنية، الاقتصادية، و الاجتماعية. وقد اقترح متراني إعادة بناء النظام الدولي في تنظيم أفقي مؤلف من وحدات إدارية عوضاً عن التنظيم العمودي المعتمد على الدولة-الأمة. ويعتقد متراني أن ذلك سيساهم في التقليل من النزاعات الدولية. فالسيادة سوف تفقد معناها، والتعاون سوف يزداد، و التكنولوجيا سوف تضع الدبلوماسية في الظل[٨٧].

ومن ذلك نرى أن متراني كان مهتماً بدراسة أثر العلاقات التي تتعدى الحدود بين الدول ويعتقد بأنها ستقود إلى التكامل الدولي حيث يرى أن تراجع القومية سوف يزيد من فرص السلام الدولي. كما يشير متراني إلى أن الدول سوف تحاول أن تشكل نوعاً من التنظيم، والتعاون ليخدم المصالح المشتركة و خاصة بالمجالات الاقتصادية و التكنولوجية. وبعد أن ترى هذه الدول الجدوى و المنفعة الكبرى للتعاون الدولي في المجالات المذكورة تبدأ الدول بالتعاون في المجالات الأخرى، منها: السياسية و الأمنية تحت تأثير ما أسماه الانتشار أو Spill Over وهذا بدوره يقود ألى نشوء نوع من التكامل بين الدول. ويُعرف متراني التكامل على أنه نوع من استقراء طبيعة التطوّر الذي تشهده المجتمعات مركزاً على الجانب الفني و التقني. فهو يعد نظريته نظرية فنية تقنية وغير سياسية حيث يقول"إن تزايد التعقيد في النظم

---

[85] Mariam Fonda, Debating the Democratic Peace, New York, MIT Press,

[86] Ernst Haas, Beyond the Nation State, Stanford, Stanford University Press, 1964

[87] عبد العزيز السعيد، شارلز ليترش الاصغر و شارلز ليترش الثالث، مفاهيم السياسة الدولية في المنظور العالمي، ترجمة نافع ايوب لبس، دمشق، مركز الدراسات العسكرية، ٢٠٠٢ . ٤١٧

الحكومية أدى إلى تزايد كبير في الوظائف الفنية وغير السياسية التي تواجه الحكومات، ومثل هذه الوظائف لم تؤد فقط إلى زيادة الطلب على الاختصاصيين المدربين على المستوى الوطني، ولكنها أدت دوراً في المشكلات الفنية على المستوى الدولي، وإذا أصبح من الممكن إيلاء مثل هذه المشكلات للمتخصصين وفصل نشاطهم إلى حد ما عن القطاع السياسي، فإنه من الممكن والحالة هذه إنجاز التكامل الدولي"[٨٨]. من الواضح أن متراني يؤكد على دور المتخصصين التقنيين في الحقل الفني أو التقني في نقل التكامل من المستوى الوطني إلى المستوى الدولي. وللوصول إلى ذلك يقترح متراني تأسيس شبكة من المنظمات الاقتصادية والاجتماعية أعلى من الوطنية تساعد على زيادة الاعتماد المتبادل بين الدول والعمل على إقناع الجماهير بأهمية هذه المنظمات، و ضرورة دعمها لما تقدمه من مكاسب على المستوى الدولي.

أما إرنست هاس Ernst Haas الذي تنسب إليه الوظيفية الجديدة Neofunctionalism فيقول بأن الدول ستبدأ بالتعاون في مجالات كالاقتصادية أو التكنولوجية و السياسة بالوقت نفسه؛ لأن هذه النشاطات ماهي إلا سياسية تحكمها السياسات العامة[٨٩]. ويُعرف إرنست هاس التكامل على أنه " عملية تحاول بمقتضاها مجموعة من الوحدات السياسية تحويل ولاءاتها وأهدافها ونشاطاتها السياسية، والاجتماعية والاقتصادية إلى مركزٍ أو وحدةٍ أوسع وأشمل و التي تمتلك مؤسساتها أو تهدف إلى امتلاك شرعية قانونية على الدولة الوطنية المعنية"[٩٠]. من الواضح هنا من تعريف هاس لعملية التكامل أنه ينظر إلى هذه العملية على أنها استراتيجية أو سياسة عامة تتبناها الدول المشاركة من أجل تحقيق أهداف معينة تخلص بالنهاية للحفاظ على الأمن و السلم العالمي. وتعد هذه الأفكار جزءاً من أدبيات المنظمات الدولية التي طالما كتب حولها هاس طيلة حياته. وتقوم وظيفية هاس على ثلاثة مبادئ، هي : مبدأ الولاء للمنظمات الدولية و التنظيم الدولي والإقليمي، لأنه البداية في عملية التكامل الذي سيحقق السلم و الاستقرار. المبدأ الثاني هو عملية التسييس التدريجي للقضايا . فالتكامل قد يبدأ بأمور ومجالات فنية إلى أن يبدأ بالوصول إلى القضايا السياسية بشكل تدريجي. أما المبدأ الثالث، فهو مبدأ الانتشار الذي يعني بأن التكامل في قطاع معين سينتشر إلى القطاعات الأخرى.

و هنا يجب الملاحظة أن هناك فرقاً بين ديفد متراني و إرنست هاس. حيث يعتقد الأخير أنه لا يمكن فصل السياسة عن القضايا الأخرى؛ إذ يرى أن الفنيين ما هم إلا جزء من النخب السياسية.. أما متراني كان يعتقد أن الخبراء و الفنيين في مجالات التكنولوجيا هم القادرون على حل هذه المسائل المشتركة بين الدول حيث لا يستطيع الساسة الوقوف أمامهم؛ ولذلك سوف يقود تعاون هؤلاء الفنيين إلى التقارب بين الدول. وتعد نظرية التكامل و الوظيفية الأساس النظري لخطوات الاندماج الأوروبي منذ الخمسينيات من القرن العشرين والتي أدت بعد تطورات كثيرة إلى

---

[88] James Dougherty,& Robert Pflaltzgraff, Contending Theories of International Relations, Longman, London, 2001, P. 420

[89] Paul Viotti, 213

[90] James Doughertty, Ibid, 421

تأسيس الاتحاد الأوروبي. إذ بدأ المشروع الأوروبي بإقامة مجموعة الحديد والصلب عام ١٩٥١ ومن ثم تحولت هذه المجموعة إلى السوق الأوروبية المشتركة بمعاهدة روما ١٩٥٦، و بعد ذلك تطورت هذه السوق لتصبح الاتحاد الأوروبي . ورغم هذه الخطوات هناك من يرى أن خطوات التكامل مازالت بعيدة عن تأسيس دولة واحدة لاسيما بعد تصويت بعض الدول ضد الدستور الأوروبي. والحقيقة أن نظرية التكامل والوظيفية والوظيفية الجديدة كجزء من التقليد الليبرالي، أدى دوراً مهماً في دراسة العلاقات الدولية؛ و خاصة في الجوانب الاقتصادية خلال العقود الأربعة الأخيرة.

التغيير Change

على عكس الواقعية، النظرية الليبرالية تولي اهتماماً كبيراً بمسألة التغيير في النظام الدولي. إذ بدا ذلك واضحاً في تركيز النظرية على دور القوى الفاعلة غير الدولة (المنظمات الدولية، المنظمات غير الحكومية) والتكامل الدولي و الاعتمادية. ويرى علماء العلاقات الدولية أن الليبرالية ترغب في التغيير السلمي، و ذلك من خلال عدة طرق:

١- تعاظم دور القوى غير الدولة؛ وخاصة المنظمات الدولية بنقل النظام إلى شكل آخر .
٢- عن طريق التكامل الدولي الذي سيوجد وحدات جديدة أعلى من الدولة القومية التي قد تقود إلى التغيير.
٣- ازدياد الاعتمادية بين الدول والذي يمكن أن يقود إلى مجتمع دولي بدلاً من نظام دولي.

الانتقادات الموجهة للنظرية الليبرالية:

١- تُنتقد النظرية الليبرالية بأنها بعض الأحيان مثالية.
٢- يعتقد بعض المفكرين أن الليبرالية تقلل من أهمية القوة، وتضخم دور العوامل الاقتصادية.
٣- تعير الليبرالية أهمية كبيرة لدور القانون الدولي و المنظمات الدولية.
٤- تغفل الليبرالية دور توازن القوى في العلاقات الدولية.

ملخص الليبرالية

النظرية الليبرالية نظرية ترى أن هناك نظاماً عالمياً فيه عدد من الوحدات الفاعلة، منها: الدولة القومية، و منها: قوى فاعلة غير الدولة مثل المنظمات الدولية، المنظمات غير الحكومية، و الشركات متعددة الجنسية، والتي تؤدي دوراً هاماً إلى جانب الدول. وتغيب عن هذا النظام السلطة المركزية؛ مما يجعل الدول تتعاون فيما بينها و تشكل منظمات دولية لتساعدها في مواجهة المسائل المشتركة. أيضاً ترى الليبرالية أن المصلحة الوطنية متعددة الأشكال، و ليست دائماً معرفة بالأمن القومي كما يعتقد أتباع النظرية الواقعية. تشدد الليبرالية على أهمية الاعتمادية بين الدول، و

يرى أتباع هذه النظرية أنه كلما ازدادت درجة الاعتمادية قلت فرص الحروب. كما تولي الليبرالية اهتماماً خاصاً بمسألة الديموقراطية إذ يزعم الليبراليون أن الديموقراطية تقود إلى السلام، وذلك ما تجلى في فرضية السلام الديموقراطي حيث يقال: إن الدول الديموقراطية لا تحارب بعضها بعضاً. على العكس من الواقعية التي تصوّر العلاقات الدولية ككرات البلياردو القاسية التي تضرب بعضها بعضاً، و تحاول كل واحدة منها أن تحافظ على القشرة القاسية (السيادة والأمن القومي) في لعبة قواعدها الصراع والتنافس، يصوّر الليبراليون العلاقات الدولية كشبكة العنكبوت التي تمثل خيوطها التشابك والاعتمادية بين الدول. كذلك تنظر الليبرالية إلى العلاقات الدولية على أنها علاقات ربح للجميع Win-Win Game ، أي أن جميع أطراف العلاقات الدولية تربح من التعاون. بينما يرى الواقعيون العلاقات الدولية على أنها علاقات صفرية Zero Sum game أي ما يربحه طرف لا بد أن يخسره طرف آخر.

والشكل التالي يلخص أهم النقاط للنظرية الليبرالية.

المفهوم	كيف ترى الليبرالية هذا المفهوم
المصلحة الوطنية	متعددة الجوانب، وليست دائماً معرفة بالأمن القومي قد تكون البيئة أو الاقتصاد تبعاً للظروف.
الفرد	جيد ومتعاون وهو الأساس بالنسبة للنظرية الليبرالية، وليس كما يصوّره الواقعيون بأنه أناني و عدواني.
المنظمات الدولية	مهمة وتؤدي دوراً كبيراً في العلاقات الدولية.
النظام	تغيب عنه السلطة المركزية، ولكن هذا يقود إلى التعاون الدولي بعكس ما يعتقده الواقعيون بأنه يقود إلى الصراع.
التغيير	محبب و بالطرق السلمية من خلال الاعتمادية، والتكامل الدولي، وازدياد دور القوى الفاعلة غير الدولة.
الدولة	فاعل مهم في العلاقات الدولية، ولكن ليست الوحيدة ومعها قوى أخرى مهمة (المنظمات الدولية).
القانون الدولي	مهم ويجب على الدول احترامه.
الزيادة في القوة	تسعى الدول إلى الكسب المطلق، وبعكس الواقعية التي تعتقد بأن الدول تسعى للكسب النسبي.

بعض المفاهيم الأساسية للنظرية الليبرالية:

المثالية، الليبرالية المؤسساتية، النظام الدولي المتخصص بالألغام الفردية، التعاون الدولي، الزيادة المطلقة، الاعتمادية أو التشابك المتبادل، السلام الديموقراطي، التكامل.

أسئلة للدراسة:

١- ماهي افتراضات الليبرالية؟
٢- كيف تنظر الليبرالية إلى الفرد، الدولة، المصلحة الوطنية، النظام الدولي؟
٣- يعتقد البعض أن الاعتمادية تجلب السلام. هل تتفق مع هذا الرأي؟
٤- كيف تنظر الليبرالية إلى المعضلة الأمنية؟
٥- كيف يتم التغيير من وجهة نظر الليبرالية؟
٦- تحدث عن السلام الديموقراطي؟

Damascus University

الفصل الرابع
العالمية Globalism
البنيوية الاقتصادية Economic Structuralism

مقدمة

خلال الفصلين الثاني و الثالث تم استعراض النظرية الواقعية و النظرية الليبرالية على التوالي، ورأينا كيف تركّز اهتمام أتباع الواقعية بمسائل الأمن و الاستقرار في النظام الدولي، بينما انصب اهتمام الليبراليين على مسائل التعاون الدولي وكيفية استمرارية هذا التعاون في ظل الاعتمادية المتبادلة بين الدول، و التشابك المعقد للعلاقات بين الوحدات الفاعلة في النظام العالمي. في هذا الفصل سيتم تناول النظرية "العالمية" وبعض الأحيان تسمى "البنيوية الاقتصادية". و نقطة انطلاق هذه النظرية هي السؤال التالي لماذا لم تستطع مجموعة من الدول في افريقيا و آسيا و أمريكا اللاتينية (دول العالم الثالث) أن تتطور؟ ولماذا مازالت متخلفة بعكس الدول المتقدمة؟ الحقيقة أن تحت عنوان العالمية تندرج مجموعة من التيارات أو النظريات التي تُقدم مقاربات مختلفة لدراسة العلاقات الدولية وخاصة شرح التباين في نسب التطور بين الدول المتقدمة والدول النامية. و على الرغم من تعدد هذه الاتجاهات إلا أن جذورها واحدة وهي الاتجاهات الراديكالية و خاصة الماركسية.

الافتراضات الأساسية لنظرية "العالمية" او البنيوية الاقتصادية

تنطلق العالمية من مجموعة من الافتراضات، أهمها:

أولاً: أنه من الضروري أن نفهم الإطار الأكبر و الوعاء الذي تتم فيه التفاعلات والعلاقات بين الدول، وهذا الإطار الأكبر هو النظام الرأسمالي العالمي المؤطر بين من يملك ومن لا يملك. وبهذا نجد أن أنصار العالمية يركزون على بنية وطبيعة النظام العالمي؛ ولذلك يُطلق بعض المفكرين على هذه النظرية بالبنيوية الاقتصادية.

ثانياً: يركز أتباع العالمية على أهمية التاريخ في تحليل و فهم العلاقات الدولية و النظام الدولي. فقط من خلال تتبع تطورات النظام عبر التاريخ يمكن أن نفهم الشكل الحالي للنظام الدولي. حيث السمة الأساسية لهذا النظام بنظر أنصار هذه النظرية أنه رأسمالي يعمل لصالح قلة من الأفراد أو الدول على حساب الأغلبية في العالم. فالدول جميعاً بما فيها الدول الاشتراكية تجد نفسها مجبرة على العمل من خلال النظام الرأسمالي الذي يكرس الفرق بين الدول الغنية و الدول الفقيرة. حتى خلال الحرب الباردة فإن مسألة تقسيم العالم بين الشرق و الغرب لم يكن يعكس حقيقة النظام الرأسمالي بقدر التقسيم القائم على أساس الشمال و الجنوب الذي أساسه الصراع بين من يملك أدوات الأنتاج والثروة وبين الفقراء و العمال و الدول الفقيرة.

ثالثاً: يشير أتباع النظرية العالمية إلى وجود آلية هيمنة تمنع الدول الفقيرة في العالم الثالث من التطور، وتبقى حالة عدم التساوي بين الشمال الغني المتطور صناعياً، مثل: (الولايات المتحدة الأمريكية ...) من جهة و الدول الفقيرة في الجنوب، مثل: دول أمريكا الجنوبية، وبعض دول آسيا وأفريقيا.

رابعاً: من الواضح أن النظرية العالمية تركز على العوامل الاقتصادية؛ إذ يعتقد أتباع هذا التيار بأن هذه العوامل مهمة جداً لقياس تطوّر عمل النظام الرأسمالي العالمي التي تجعل حتى الدول الفقيرة ليست تابعة فقط بل تعمل لصالح الدول الغنية من خلال تقسيم العمل وتوزيع الثروات.

لا بد من الإشارة هنا إلى أن العالمية كنظرية في العلاقات الدولية تشترك مع النظريات الأخرى ببعض النقاط. فقد رأينا أن الواقعية الجديدة و العالمية تركزان على أهمية مستوى النظام الدولي في التحليل إذ يرى أتباع كلتا النظريتين أن النظام الدولي و طبيعته الرأسمالية يحددان سلوك الوحدات الفاعلة في النظام. ولكن الفرق بين هاتين الرؤيتين يكمن في أن العالمية ترى في طبيعة

هذا النظام جوهر أسباب التخلف للدول الفقيرة. حيث يرى أتباع العالمية عملية الاستغلال التي توجد في النظام الرأسمالي التي من خلالها تستغل الدول الغنية الدول الفقيرة. بينما يرى أتباع الواقعية الجديدة أن توزيع القوة بين القوى العظمى أو ما يسمى بقطبية النظام أي (أحادي- ثنائي- متعدد) يحدد و يؤثر في سلوك الوحدات الفاعلة في النظام الدولي. كذلك يبدو واضحاً أن أتباع العالمية يشددون على أثر طبيعة النظام الرأسمالي العالمي في السياسات المحلية بما فيها الفرز الطبقي بين من يملك من لا يملك.

وفي الجانب الآخر نجد أن هناك نقاط التقاء بين النظرية الليبرالية والنظرية العالمية يمكن إجمالها فيما يلي:

١- الموضوع الأول الذي تلتقي حوله وجهات النظر لكلتا النظريتين هو الاقتصاد السياسي كمدخل لتحليل وفهم العلاقات الدولية. أي أهمية العوامل الاقتصادية في تحديد سلوك الدول. ومن المعروف أن الواقعية تفرق بين ما يسمى السياسات العليا المتعلقة بالأمن القومي وبين ما تسميه السياسات الدنيا المتعلقة بالاقتصاد، و البيئة، وغيرها من القضايا. ولكن الليبرالية و العالمية ترفضان التمييز بين هذين النوعين من السياسات، و بعض الأحيان يعطيان الأولوية للعوامل الاقتصادية على العواسل الأمنية و السياسية. فالسياسة تعتمد على الاقتصاد ولا يمكن الفصل بين الاثنين.

٢- كلا النظريتين (العالمية والليبرالية) تعطي أهمية لما يجري داخل الصندوق الأسود أي ما يجري داخل الدولة ولا ينظران للدولة كفاعل مستقل عقلاني كما تفعل الواقعية. ويظهر ذلك بالنسبة للنظرية العالمية من خلال التدليل على علاقات الإنتاج السائدة في المجتمع و الصراع الطبقي الذي يعكس هذه العلاقات.

٣- الموضوع الثالث الذي يتم التركيز عليه من قبل أتباع كلتا النظريتين هو موضوع المجال الاقتصادي و الاجتماعي للأفراد داخل الدولة. فالعالمية تركز على تحرير الفرد من الهيمنة التي تفرضها علاقات الإنتاج الرأسمالية. و الليبرالية تركز على الفرد ووضعه الاقتصادي و ضرورة إعطائه حرية كاملة في التملك، و البيع ضمن آلية السوق.

ولكن الفرق بين النظريتين هو أن الليبرالية تؤمن بالتغيير السلمي و التحول التدريجي و التطور داخل المجتمع و النظام الدولي، أما العالمية فلديها نظرة متشائمة في التغيير إذ يرى أتباعها صعوبة بل واستحالة التغيير في طبيعة النظام الرأسمالي، لذا فالتغيير ينبغي أن يكون جذرياً و ثورياً.

إن المقارنة بين هذه النظريات أو التصورات كما يسميها بول فيوتي حول العالم تقود إلى إبراز نقاط الاختلاف ونقاط الالتقاء بهدف فهم الأسس التي تنطلق منها هذه التصورات في سبيل جعل العالم من حولنا أكثر قابلية للفهم وللتغيير.

رواد الفكر للنظرية العالمية

كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣)

على الرغم من أن كارل ماركس لم يكتب ما يمكن أن نسميه بالعلاقات الدولية، إلا أن كتاباته حول النظام الرأسمالي وآلية الاستغلال ومراحل وكيفية تطور هذا النظام تُعد المرجعية للكثير من النظريات التي اهتمت بدراسة المجتمع وتحرير الإنسان. فقد كتب ماركس في تطور المجتمع البشري عبر مراحل التاريخ إذ ميز بين خمس مراحل: أولها المشاعية التي تتمثل في المجتمع البدائي للإنسانية ثم العبودية أي الرق حيث أخذ بعض الأفراد يسيطرون على بعض أدوات

الإنتاج والموارد، والآخرون مُستعبدون لديهم. والمرحلة الثالثة هي الإقطاع حيث امتلك بعض الإقطاعيين أراضي شاسعة و أخذ الفلاحون يعملون لدى هؤلاء الإقطاعيين. المرحلة الرابعة تمثلت بالثورة الصناعية حيث أصبح رب العمل يملك أدوات الإنتاج من آلات و معامل والعمال يعملون لديه بأجر بسيط لا يكاد يكفي حاجاتهم اليومية. و يشير ماركس إلى أن الانتقال من مرحلة إلى أخرى كان يتم عندما يكون هناك تناقض بين علاقات الإنتاج السائدة والتطور الجديد لقوى الإنتاج أي التحديث والتصنيع، فبالنسبة لكارل ماركس صراع الطبقات هو المحرك الأساسي الذي يشكل آلية الانتقال من شكل لآخر.

ويرجع بعض علماء السياسة أسباب عدم وجود نظرية ماركسية في العلاقات الدولية إلى:

١- تركيز الماركسيين على البيئة الداخلية للمجتمع الواحد، اعتقاداً منهم بأن التحولات الأساسية تبدأ من التناقضات الداخلية للمجتمع الواحد.

٢- لا يفصل الماركسيون بين السياسة الداخلية والسياسة الخارجية للمجتمع الواحد، وبالتالي فإنهم عندما يدرسون المجتمع بكل تناقضاته الداخلية لا يعني تجاهلهم للبيئة الخارجية للمجتمع. وفي هذا الصدد يقول فلاديمير لينين :

"ليس هناك فكرة أكبر خطأ وأشد ضرراً من الفكرة المتمثلة في فصل السياسة الداخلية عن السياسة الخارجية".

٣- يهتم التنظير في العلاقات الدولية بجوانب أخرى فضلاً عن الجانب الاقتصادي الذي يعد محور تفسير الماركسيين للظواهر.

٤- عدم إلمام الماركسيين بكل الظواهر الدولية واقتصارهم على تفسير ظاهرتي الإمبريالية و الصراع الطبقي، وجعلهما كمتغيرين أساسيين في تحليلهم من خلال عدهم الطبقة كفاعل Actor والإمبريالية كقوة محفزة Motive

٥- رغم أن العلاقات الدولية هي علاقات بين الدول، فإن الماركسيين ينكرون دور الدولة بل يذهبون إلى حد دعوتهم بضرورة زوال الدولة، معتبرين أن الصراع ليس صراعاً دولياً أي بين الدول؛ وإنما صراع طبقي بين البرجوازية و طبقة البروليتاريا. و هو صراع أيديولوجي – اقتصادي[91].

جون هوبسون (١٨٥٨-١٩٤٠)

إن أفكار كارل ماركس حول الرأسمالية خلال القرن التاسع عشر كانت البداية والنواة التي طورها العديد من المفكرين، وقد أطلق البعض اسم الإمبريالية على آخر مرحلة من مراحل تطور الرأسمالية. فالإمبريالية بالنسبة لهؤلاء المفكرين هي مرحلة تتسم بتقسيم العمل على المستوى الدولي وتأطير بين الدول الغنية من طرف و الدول الفقيرة من طرف آخر.

ومن الغريب أن من أفضل الكتابات حول الإمبريالية جاءت من كاتب غير ماركسي هو جون هوبسون. فمع نهاية القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين رأى هوبسون أن المجتمعات الرأسمالية تواجه ثلاث مشكلات عضوية ومترابطة، هي:

١- زيادة في الإنتاج

[91] عبدالناصر جندلي، أثر الحرب الباردة على الاتجاهات الكبرى والنظام الدولي، مدبولي، القاهرة، ٢٠١١،ص ٢٠٨

٢- ضعف القدرة الشرائية

٣- زيادة في الادخار

تتمثل هذه المعضلة التي أشار إليها هوبسون بأن أرباب العمل ينتجون الكثير، وبالمقابل يدفعون أجرة قليلة للعمال لاتكفي لمعيشة هذه الطبقة، ولذلك تكون القوة الشرائية منخفضة، وهذا يقود إلى كساد الكثير من الإنتاج. إن علاقة الاستغال التي اتبعها أرباب العمل أدت إلى المزيد من تراكم رأس المال بأيدي الطبقات البرجوازية. وبذلك تبدأ هذه الطبقات بالبحث عن أسواق جديدة لمنتجاتها و مصادر للموارد الأولية لصناعاتهم. وقد وجد الرأسماليون ضالتهم بالعالم الثالث حيث الموارد الأولية و السوق الكبيرة لبيع فائض إنتاجهم. إلا أن هوبسون لم يوافق الماركسيين حول حتمية الاستعمار و الحروب بسبب هذه العوامل المذكورة[٩٢].

لينين

يُعد كتاب لينين "الإمبريالية : أعلى مرحلة من الرأسمالية" من أهم المراجع الفكرية للنظرية العالمية. فقد كتب هذا الكتاب خلال الحرب العالمية الأولى، وكان يهدف من ورائه أن يبين الية الاستغلال التي من خلالها تقوم الدول الغنية باستغلال الدول الفقيرة. كما أراد لينين أن يقدم دراسة لأسباب الحروب بين الدول الرأسمالية.
وفي تحليله للإمبريالية أخذ لينين من هوبسون واتفق معه حول مسألة الزيادة في الإنتاج والنقص في القدرة الشرائية لدى القوى العاملة. كما أخذ من رودلف هلفردنغ(١٨٧٧-١٩٤١) أن الإمبريالية تمثل قمة الرأسمالية، وتتمثل في احتكار الأموال الكثيرة. إذ يُعرف لينين الإمبريالية بقوله "إن الإمبريالية هي الرأسمالية في مرحلة من التطور تكون فيها الرأسمالية المالية واحتكارات القوى المهيمنة، يصبح فيها تصدير رأس المال في غاية من الأهمية وتقسيم العالم بين التروستات وهي المرحلة التي يكون فيها تقسيم جميع أراضي العالم بين القوى الرأسمالية الكبرى قد اكتمل"[٩٣]. بمعنى آخر أن الرأسماليين مالكي وسائل الإنتاج احتكروا رأس المال وأجبروا المشاريع الأخرى على الخروج من السوق. وتراكم رأس المال وأصبحوا مسيطرين على النشاطات الاقتصادية؛ و خاصة المالية منها؛ ولذلك كانت مضطرة للبحث عن أسواق خارجية بدل من الأسواق المحلية.

أنتونيو غرامشي (١٨٩١-١٩٣٧)

تُعد كتابات الماركسي الإيطالي أنتونيو غرامشي، وخاصة مذكراته في السجن مرجعاً مهماً لأتباع النظرية "العالمية". حيث تشكل هذه الكتابات مدخلاً مختلفاً عن الماركسية اللينينية التقليدية من حيث تفسيرها لعلاقة الهيمنة بين الطبقات الغنية والطبقة العاملة. أحد أهم المفاهيم التي تعامل معها أنتونيو غرامشي هو المنظومات الأيديولوجية أو التاريخية التي تشكل عقبة أمام التغيير الاجتماعي وتسمح باستمرارية الهيمنة في المجتمع، و في النظام الدولي. وقد أمل غرامشي بأن يولد هناك نوع من التحدي من قبل قوى المجتمع

[92] Paul Viotti, Mark Kuppi, International Relations Theory, London, Pearson, 2011, p.
[93] سمير أمين وآخرون، العالم الثالث يفكر لنفسه، دار ابن خلدون، ١٩٨١،ص٤٥

المدني لهذه المنظومات المهيمنة، وتقود إلى منظومة مضادة تفتح السبيل أمام مستقبل ما بعد الرأسمالية[94].

وفي محاولة لفهم العلاقات بين الشمال و الجنوب يوظف غريغ مرفي Graig Murphy مفهوم المنظومة الأيديولوجية في المدخل الغرامشي، فيرى أن هناك طبقات في الدول الفقيرة تصبح جزءاً من هذه المنظومة للدول الغنية المسيطرة؛ ولذلك تسهل سيطرة الدول الصناعية على الدول الفقيرة.

بالإضافة إلى المنظومات الأيديولوجية، يشير غرامشي إلى مفهوم جديد للهيمنة وهو الهيمنة الفكرية التي تُسهّل السيطرة ولا تولد المقاومة كالهيمنة التقليدية التي تعتمد على القوة والقسر.

روزا لوكسمبرغ (١٨٧٠- ١٩١٩)

لقد ساهمت رؤية روزا لوكسمبورغ بوضع أسس فكرية لليسار الماركسي في أوروبا؛ وخاصة آراءها حول التغيير الثوري مقابل الإصلاح في النظام الرأسمالي. حيث رفضت لوكسمبورغ فكرة الإصلاح كونه نوعاً من المساومة و التنازل للطبقات البرجوازية، وذلك يساعد هذه الطبقات على استمرارية الهيمنة. فقط الثورة، برأيها، القادرة على التغيير الجذري الذي يساهم في تحرير الطبقات العاملة[95].

. . . . .

الماركسية الجديدة ونظرية التبعية
Dependency Theory

في خضم الجدل في العلاقات الدولية حول مسألة التفاوت في مستويات التنمية و التطور بين الدول، برزت مجموعة من الكتابات، وخاصة في أمريكا اللاتينية و بعض دول العالم الثالث تُرجع أسباب هذا التباين إلى التبعية التي تحكم العلاقة بين دول الشمال الغني ودول الجنوب الفقير. و يُرجع معظم المفكرين البدايات لهذه النظرية إلى عمل اللجنة الاقتصادية حول أمريكا اللاتينية خلال الستينيات من القرن العشرين ومؤتمر الأمم المتحدة حول التجارة والتنمية (UNCTAD). حيث كل من هذين الاتجاهين كان يحاول أن يجيب على تساؤلات مهمة و إيجاد تفسير لبعض الظواهر في العلاقات الدولية وخاصة مايتعلق بمسألة عدم تطور الدول في العالم الثالث كما كان متوقعاً[96].

التبعية هي حالة تاريخية ناتجة عن السياسات الاستعمارية التي مارستها الدول الرأسمالية خلال القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين. فقد أدت التطورات التي شهدها النظام الرأسمالي منذ الثورة الصناعية إلى تراكم رأس المال. و هذا أدى بدوره إلى بروز العديد من أزمات الإنتاج والكساد في النظام الرأسمالي. وكان حل هذه الأزمات هو التوسع على حساب الدول الفقيرة في العالم الثالث. وقد أدت هذه الأزمات إلى التنافس الاستعماري بين الدول المصنعة لتقاسم أراضي الدول الفقيرة، ونهب خيراتها. حتى بعد استقلال معظم هذه الدول بقيت تابعة للدول الاستعمارية نتيجة للسياسات التي وضعتها هذه الدول خلال فترة الاستعمار.

يُعرف الماركسيون حالة التبعية على أنها" تلك الحالة التي من خلالها يكون اقتصاد بعض الدول تابعاً شرطياً لتطور وتوسع الدول الأخرى، علاقة الاعتماد المتبادل بين

---

[94] Paul Vioti ,Ibid, 198

[95] Ibid, 193

[96] Paul Viotti and Mark Kuppi, International Relations Theory, 5th, Pearson, 2011 ,p. 198

اقتصادين أو أكثر وبين هذه الاقتصاديات والتجارة العالمية يفرض شكلاً من أشكال التبعية عندما يكون بوسع الدول المهيمنة بسط نفوذها، بينما تكون الدول الأخرى التابعة خاضعة لهذا التوسع الذي سيؤثر إيجاباً أو سلباً على نموها وتطورها" [97].

مما سبق نجد أن الماركسيين يردون أسباب التبعية إلى عوامل خارجية تتعلق بطبيعة النظام الرأسمالي، وبطبيعة العلاقة بين الشمال و الجنوب، هذه العلاقة التي يصورها أتباع نظرية التبعية بالعلاقات غير المتوازنة، فهي علاقات استغلال من قبل الطرف الغني للطرف الفقير من خلال قواعد اللعبة التي وضعها الأغنياء. فتقسيم العمل كما حدده الأغنياء يُلزم الفقراء بأن يكونوا مصدراً للمواد الأولية لصناعات الأغنياء و سوق لبضائعه المتراكمة. حتى ضمن هذه القواعد لا يوجد نوع من الإنصاف. حيث يشير أحد المسؤولين في إحدى دول أمريكا اللاتينية بأن بلاده كانت تُصدّر ٢٠ بشلاً أو كيساً من البن لتستورد سيارة من الدول الصناعية، بينما بعد فترة من الزمن أصبحت بلاده تصدر ١٠٠ بشل لتستورد السيارة نفسها . والسؤال هو لماذا ارتفعت أسعار السيارة بشكل كبير ولم يجاريها ارتفاع و لو بنسبة أقل لأسعار البن؟ الجواب لدى أتباع التبعية يكمن في علاقات الاستغلال بين الطرفين؛ لأن الغني القوي يحدد قواعد هذه العلاقة.

تكمن أهمية نظرية التبعية بأنها تقدم دراسة للعلاقة بين الشمال (الدول الصناعية) والجنوب (الدول الفقيرة) من خلال تسليط الضوء على علاقة الاستغلال من قبل الدول الغنية و الخلل البنيوي في طبيعة النظام الرأسمالي. وقد دعا الماركسيون الجدد أو أتباع نظرية التبعية إلى تأسيس نظام اقتصادي دولي جديد (NIEO) New International Economic Order تكون العلاقات بين الدول أكثر عدالة بحيث تراعي واقع الدول الفقيرة. من أبرز رواد هذه النظرية: سمير أمين، غاندر فرانك، ودوس سنتوز.

ومن الجدير بالذكر أن نظرية التبعية جاءت في ظروف وواقع دولي ساهم في انتعاش مثل هذه الدراسات. ويرجع بعض الأكاديميون ظهور هذه النظرية لعدة أسباب، أهمها[98]:

١- تراجع أفكار نظرية التحديث حيث جاءت مساهمة أتباع نظرية التبعية كرد على أطروحات نظرية التحديث(Modernization) فيما يخص آراء النظرية حول المجتمع وطبيعة العادات والطبقات الحاكمة وأنظمة التعليم كلها كأسباب للتخلف.

٢- الاهتمام بمسألة التنمية في دول الجنوب وخاصة في فترة مابعد الاستعمار.

٣- تراجع المد الاستعماري وحصول العديد من دول العالم الثالث على استقلالها.

الحقيقة أن نظرية التبعية وهي تعرف أيضاً بالماركسية الجديدة هي جزء من نظرية أشمل تسمى العالمية كما رأينا في بداية هذا الفصل. وهي جزء من المنهج الماركسي أو التيار الماركسي في العلاقات الدولية. وبما أننا نوهنا لنظرية التحديث من المفيد أن نعطي لمحة عن بعض ما طرحته النظرية.

لقد تناولت أدبيات التنمية في الدول المتقدمة مسألة تخلف الدول النامية، و خَلُصت إلى أن هناك عوامل داخلية بنيوية تتعلق بطبيعة هذه المجتمعات حالت دون تطور هذه البلدان. ومن أهم هذه التيارات الفكرية أو النظريات هي نظرية الحداثة (التحديث) (Modernization) التي أرجعت أسباب التخلف إلى عدم قدرة هذه الدول على الانتقال من مجتمعات تقليدية Traditional Societies إلى مجتمعات حديثة Modern Societies .[99] فقد أورد أتباع نظرية التحديث بعض أسباب التخلف، وأهمها:

---

[97] عبد الناصر جندلي، أثر الحرب الباردة على الاتجاهات الكبرى و النظام الدولي، القاهرة، مدبولي، ٢٠١١،ص٢٢٧.

[98] عبد الناصر جندلي ،مرجع سابق، ص٢٣٠

[99] Paul Viotti and Mark Kuppi, International Relations Theory, Pearson, London, 2011 p. 203

١ ـ طبيعة الثقافة السياسية لهذه البلدان.

٢ ـ طبيعة أنظمة الحكم غير الديموقراطية.

٣ ـ نظم التعليم المتخلفة.

٤ ـ العادات والتقاليد في هذه المجتمعات.

٥ ـ الدين.

فبالنسبة لأتباع التحديث، إن نمط الثقافة المهيمن في المجتمعات التقليدية يعيق الانتقال إلى التحديث والتطور. فهذه الثقافة مبنية على عودة شعوب هذه المجتمعات إلى الماضي والتغني بالأمجاد، وغياب روح الإبداع وحب الاطلاع والمغامرة وعدم احترام الآخر وغياب حرية التعبير وانتشار الهويات الفرعية بدلاً من الهوية الوطنية فالعشائرية والطائفية أقوى من الهوية الوطنية. كذلك يشير هؤلاء الباحثون إلى دور القيم والدين كعوامل تحد من الحرية الفردية وتمنع الانتقال إلى مجتمع متطور. إذ يعتقد الحداثيون أن بعض الأديان تُكبّل الفرد ولا تعطيه الحرية الفردية للإبداع، فالإسلام و الدين المسيحي الكاثوليكي يجعل من رجل الدين مصدراً للمعرفة والواسطة مع الخالق. بينما البروتستانت يطلق الحرية للإنسان ليبدع و يُحجّم دور المرجعية الدينية (الكنيسة).

وفي سبيل تقديم دراسة علمية قدم أتباع نظرية التحديث دراسات مقارنة بين بعض الدول التي كانت ضمن دول العالم الثالث و انتقلت لتصبح من الدول الغنية لأنها انخرطت بالتحديث و التطور مثل بعض دول آسيا. كذلك يقدم أتباع نظرية التحديث اليابان كنموذج للتطور الذي لم تمنعه عاداته أو الدين من تبني خطوات التحديث.

على الرغم من أن نظرية التبعية تبدو وكأنها مدرسة واحدة إلا أنها تتكون من تيارات عديدة يلخص الدكتور عبدالناصر جندلي هذه التيارات بأربعة[١٠٠].

١ ـ تيار التخلف.

٢ ـ تيار الإمبريالية.

٣ ـ تيار المركز ـ المحيط.

٤ ـ تيار النظام العالمي.

تيار التخلف

تيار التخلف الذي يمثله أندريه غاندار فرانك، و مجموعة أخرى من الكُتّاب، إلا أن أبحاث غاندار فرانك التي تركزت على أسباب التخلف في دول أمريكا اللاتينية شكلت حجر الأساس لهذا التيار. فقد تميزت أبحاثه الميدانية التي جمعها في كتابه "تنمية التخلف" Development of Underdevelopment بقوة نقدها لنظرية التحديث التي سادت في أدبيات الغرب خلال فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. ففي رده على نظرية التحديث التي اشار أتباعها إلى أن التخلف يعني التخلف في البنى الاقتصادية، نوّه غاندار إلى أن التخلف هو حالة جاءت نتيجة للسياسات الرأسمالية التي من خلالها تم ربط اقتصاديات الدول النامية كتابعة للدول الغنية.

---

[100] عبدالناصر جندلي، مرجع سابق ص٢٣٤

فالتخلف ينتج بنى اقتصادية، اجتماعية و سياسية ضعيفة، ومنه هذه البنى تقود إلى مزيد من التخلف[101].

تيار الإمبريالية:

تعود جذور هذا التيار إلى كتابات هوبسون و لينين اللذين قدما دراسات تحليلية حول ظاهرة الإمبريالية كمرحلة من مراحل تطور النظام الرأسمالي العالمي و التي تمثلت بظاهرة تمركز المال بيد الشركات الكبرى و تصدير هذا المال لنهب ثروات الدول الفقيرة. و قد أوضح هوبسون ولينين أن ظاهرة الإمبريالية أدت إلى الاستعمار و الحروب في العالم. ولكن من الملاحظ أن هوبسون ولينين ركّزا على الجانب الاقتصادي للإمبريالية، بينما الماركسيون الجدد يرون بأن هناك أنواعاً و مظاهر عديدة للإمبريالية. فعلى سبيل المثال جون غالتنغ يشير إلى خمسة جوانب للإمبريالية هي: السياسية، الاقتصادية، العسكرية ، الإمبريالية الاتصالية ، وأخيراً الإمبريالية الثقافية. و الجدول التالي يوضح هذه الأنواع أو الجوانب للإمبريالية حسب رأي جون غالتنغ

الجدول رقم (٤): اشكال الإمبريالية عند غالتنغ

أشكال الإمبريالية	دول المركز توفر	دول الأطراف توفر
الإمبريالية الاقتصادية	عملية الانتاج ووسائله	المواد الأولية والأسواق
الإمبريالية السياسية	القرارات، النماذج..	الإخضاع و التقليد
الإمبريالية العسكرية	الحماية، وسائل التدمير	الانضباط والانصياع
الإمبريالية الاتصالية	الأخبار، وسائل الاتصال	أحداث، مسافرون، بضائع
الإمبريالية الثقافية	التعليم، وسائل الاستقلالية الثقافية	تلقين، تبعية ثقافية(غزو ثقافي)

المصدر: عبد الناصر جندلي، أثر الحرب الباردة على الاتجاهات الكبرى و النظام الدولي، القاهرة، مدبولي، ٢٠١١،ص ٢٣٧

إن الجدول السابق يشير إلى نمط تقسيم العمل الذي أفرزه النظام الرأسمالي، و نتج عنه هذه العلاقة من التبعية للدول الفقيرة على الدول الغنية وعلى دائرة الفقر و التخلف الذي تدور في فلكها الدول النامية ولا تستطيع كسر هذه الدائرة أو الحلقة.

تيار المركز و الأطراف

ينظر أتباع هذا التيار الماركسي الجديد إلى العلاقات الدولية على أنها علاقات بين دول المركز ودول الأطراف التي تقوم على استغلال المركز للأطراف. إذ يشير سمير أمين أحد رواد هذا الاتجاه إلى وجود طرفين تنمويين مختلفين كنتيجة للعلاقة غير المتكافئة التي من خلالها يسعى المركز إلى إبقاء الوضع القائم. فهناك مركز يملك التكنولوجيا و رأس المال وكل وسائل التطور، و أطراف (محيط) لا يملك سوى المواد الأولية التي يصدرها للمركز ثم يستوردها مصنعة بأضعاف الأسعار. وفي هذا الاتجاه يضيف جون غالتنغ وهو غير ماركسي بل يهتم بدراسات السلام، أن علاقة المركز و الأطراف أو المحيط أعقد مما يصوره أصحاب هذا التيار إذ يشير إلى تلازم المصالح بين مجموعة أو نخب داخل المركز مع مجموعة ونخب داخل المحيط. ويمكن تلخيص رأي غالتنغ بالنقاط التالية:

١- هناك انسجام للمصالح بين المركز في دولة المركز والمركز في دولة المحيط.

---

[101] Chris Brown, "Development and Dependency", in Margot Light and A. J. Groom, International Relations; Guide to General Theory, London, 1995, p. 62

٢- هناك تناقض أو تضارب في المصالح أكثر في دولة المحيط منه في دولة المركز.

٣- هناك تناقض أو تضارب في المصالح بين محيط المركزية ومحيط الدولة المحيطة[١٠٢].

من الملاحظ أن جون غالتنغ قد أضاف لأدبيات نظرية التبعية من خلال كتاباته حول الإمبريالية و المركز والمحيط، وإن كان هناك من يرى بأن نموذج غالتنغ للعلاقة بين المركز والمحيط يحتاج إلى مراجعة الأنه يقسم المركز والمحيط إلى مراكز و محيطات، و في الحقيقة هناك مركز واحد هو الشمال، و محيط واحد هو الجنوب، و العلاقة بينهما هي علاقة استغلال من قبل المركز[١٠٣].

تيار النظام العالمي:

يسمى عادة هذا التيار بنظرية النظام العالمي لإمانويل ولرستاين Immanuel Wallerstein الذي رأى بأن العالم مقسم إلى ثلاث مناطق: المركز Core ويتكون من الدول الغنية الصناعية، الأطراف Periphery وهي الدول الفقيرة و الدول شبه الأطراف Semi-periphery . وتعد مساهمة ولرستاين إضافة كبيرة إلى التيارات السابقة حيث أضاف العديد من النقاط الهامة، حيث سلط الضوء ليس على مسألة التخلف والتنمية في منطقة محددة من العالم بل حاول دراسة أسباب التخلف في العالم. وبهذا الإطار أشار ولرستاين إلى وجود انتشار عالمي للتنمية اللمتكافئة[١٠٤].
يرى ولرشتاين أن جذور الاقتصاد العالمي تعود إلى القرن السادس عشر الميلادي مع بروز التقسيم الدولي للعمل ومناطق العالم إلى ثلاث مناطق (مركز، شبه الأطراف و الأطراف).
وتعود هذه التقسيمات إلى وضع الدول في بنية النظام الدولي. فالدول الصناعية هي المركز، بينما الدول التي حققت بعض التطور الصناعي أو قفزة في مجال التصنيع فهي شبيهة بالأطراف، وأخيراً الدول الفقيرة و هي الأطراف.
ومن الجدير بالذكر أن أتباع الماركسية الجديدة بمختلف تياراتها يشيرون إلى وجود طبقة داخل دول الأطراف ترتبط مصالحها بمصالح الطبقات البرجوازية في الدول الصناعية، و تقوم بدور الوسيط لاستغلال بلدانها من خلال استيراد المواد المصنعة و تصدير المواد الأولية و تسهيل عملية الاستغلال وتسمى هذه الطبقة "الكومبرادور" "Comprador" وهي عادة الطبقات الرأسمالية في الدول الفقيرة.
لقد لاقت نظرية ولرشتاين قبولاً بين الوسط الأكاديمي؛ و خاصة في دول العالم الثالث، إذ أصبحت موضوع الدراسة و النقد و الإضافة لفترة طويلة خلال القرن العشرين.
والحقيقة أن مرحلة انتقال اقتصادات بعض الدول بعد الحرب الباردة إلى الاقتصاد الحر كشفت الكثير من المشاكل البنيوية في هذه الاقتصادات، والكثير من الفساد من قبل الطبقات الكومبرادورية. فقد استغلت هذه الطبقات عمليات الانتقال للمزيد من نهب ثروات البلد وتحقيق أفضل المكاسب الشخصية على حساب المصلحة الوطنية.
الشكل التالي يلخص نظرية ولرشتاين

---

[102] مرجع سابق، ص ٢٤٠
[103] مرجع سابق، ٢٤١
[104] مرجع سابق٢٤٢

الشكل رقم ١٠: الاقتصاد العالمي كمايراه ولرشتاين

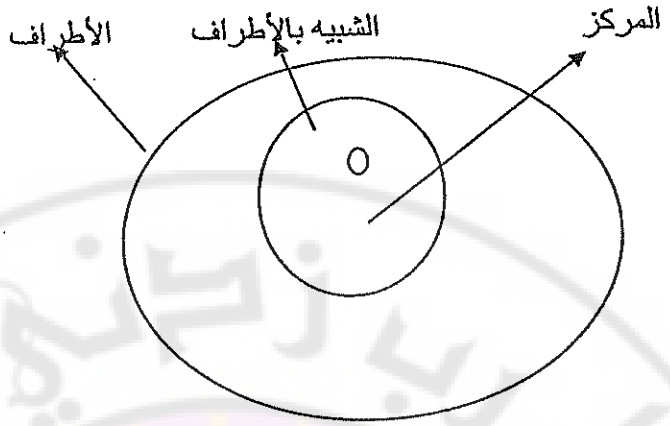

وفي سبيل توضيح عملية الاستغلال من قبل الدول الصناعية (المركز) يشير أتباع نظرية التبعية إلى مجمعة من الأدوات والمؤسسات الدولية التي تساهم في تسهيل هذه العلاقة غير المتكافئة وتعمل هذه المؤسسات كأدوات بيد الدول الغنية. وأهم هذه الأدوات و المؤسسات الدولية، هي[١٠٥]:

١- التبادل غير المتكافئ.

٢- تصدير رؤوس الأموال.

٣- المؤسسات النقدية الدولية.

٤- المنظمات الاقتصادية الدولية.

٥- الشركات متعددة الجنسيات.

٦- المعونة والمساعدات.

أولاً: التبادل غير المتكافئ:

تعد سياسة التبادل غير المتكافئ أحد أهم الأدوات لاستغلال دول المركز لدول المحيط. إذ لاتساهم فقط بالاستغلال بل تربط الدول الفقيرة بنوع من التبعية تجعلها تعتمد في نشاطاتها الاقتصادية و السياسية على دول المركز. في ظل عملية الاستغلال هذه، المركز ينمو ويتطور بينما الأطراف أو المحيط يبقى متخلفاً و تتسع الفجوة بين هذين العالمين. فدول المحيط تسعى دائماً للحصول على رأس المال من المركز كي تستطيع الاستمرار في توفير حاجاتها الاساسية، وبالمقابل تبقى هذه الدول مجبرة على تصدير المواد الاولية لدول المركز[١٠٦].

ثانياً: تصدير الأموال:

إن عملية التنمية لا تحتاج للمواد الأولية فقط ، وإنما تحتاج أيضاً إلى بنى تحتية كبيرة، وهذه بدورها تحتاج إلى رأس مال كبير. ولذلك دول الأطراف مجبرة على قبول الاستثمارات

---

[105] جندلي، مرجع سابق ٢٤٩

[106] مرجع سابق، ٢٤٤

الخارجية التي تأتي من دول المركز. ولكن المشكلة أن هذه الأموال عادة تستثمر في قطاعات تخدم مصالح الدول الغنية. وغالباً ما تكون في البترول أو مادة أولية تحتاجها دول المركز، وهي بذلك تكرس تقسيم العمل و تجعل هذه الدول تابعة لها. ولذلك نجد دول المركز تسعى لتصدير رأس المال إلى دول المحيط، و تتسابق على نهب ثرواتها، وجعلها تدور في فلكها. وقد يعتقد المرء بأن المال يأتي من دول المركز، و لكن في الحقيقة هي أموال وأرباح أخذتها هذه الدول من بنوك الدول الفقيرة واستثمرت بعضها بينما أرسلت جزءاً من الارباح إلى بلدانها أي المركز.

ثالثاً: المؤسسات النقدية الدولية

مع انتهاء الحرب العالمية الثانية بدأت الدول المنتصرة بتحديد معالم عالم مابعد الحرب. حيث سعت الدول إلى بناء مجموعة من المنظمات السياسية، والأمنية، والاقتصادية الدولية لتنظيم العلاقات الدولية في المرحلة الجديدة. في هذا الاتجاه كان تأسيس منظمة الأمم المتحدة لتكون المنظمة الدولية التي تتولى الحفاظ على الأمن والسلم العالميين. أما على الصعيد الاقتصادي فقد تم تأسيس مؤسستين دوليتين، هما: البنك الدولي للإنشاء والتعمير International Bank of Reconstruction and development ، وصندوق النقد الدولي International Monetary Fund. الفكرة الأساسية لهذه المؤسسات الدولية هي تقديم المساعدة للدول في أوروبا لإعادة إعمارها. هذا بالنسبة للبنك الدولي، أما بالنسبة لصندوق النقد، فهو مؤسسة تقدم القروض للدول التي تواجه أزمات مالية أو اقتصاداً متعثراً. على الرغم من هذه الأهداف النبيلة المعلنة وراء تأسيس هذه المنظمات، إلا أن الواقع يشير إلى غير ذلك، فقد أصبحت هذه المؤسسات أدوات قسر بيد الدول الرأسمالية لتنفيذ سياساتها العالمية. فقد أصبحت وصفة صندوق النقد الدولي للدول النامية التي تتضمن شروطاً لمنحها قروضاً مصدراً لعدم الاستقرار في العديد من هذه الدول. وتتضمن هذه الشروط بعض السياسات القاسية التي تسمى بإعادة الهيكلة للاقتصاد المتعثر:

١- تخفيض سعر العملة الوطنية.

٢- توقيف الدعم للكثير من القطاعات العامة.

٣- خصخصة القطاعات ذات الملكية العامة.

٤- فتح السوق المحلية أمام البضائع الأجنبية، والاستثمارات الخارجية.

٥- اتباع اقتصاد السوق.

٦- اتباع سياسة ضريبية جديدة تستطيع من خلالها الدولة زيادة إيراداتها.

وهكذا نرى أن المساعدات المقدمة من هذه المؤسسات المالية تزيد في تفاقم المشاكل الاقتصادية و الاجتماعية للبلدان الفقيرة. فمع الخصخصة وغياب الدعم الحكومي للعديد من المرافق، ،الخدمات: كالتعليم، والصحة، تنتشر البطالة ومعها الجرائم والأفات الاجتماعية كتعاطي المخدرات وكثرة حالات السرقة، والطلاق. وبذلك يتم تهديد الاستقرار الاجتماعي. ومن الناحية الاقتصادية تزيد مديونية الدولة المتلقية؛ وخاصة إذا تمت الجدولة؛ وتراكمت الفوائد، وانخفضت قيمة العملة الوطنية. وتعد تجربة كل من مصر والأردن مثالاً واضحاً على هذه السياسات المجحفة بحق دول العالم الثالث. إذ ينتج عن هذه العمليات تبعية وتدمير للبنى الاقتصادية للدول في الأطراف بينما تزداد دول المركز ثراء وقوة. وتصادف هذه الأيام من الشهر العاشر من عام ٢٠١٢ حالة جديدة تمر بها مصر بعد انتخاب الرئيس محمد مرسي، إذ طلبت حكومة مصر

قرضاً من صندوق النقد الدولي وبشروط سيئة تؤثر بشكل سلبي على قرار مصر السيادي وعلى السيادة الوطنية بشكل عام.*(هنا من المفيد أن ننوه إلى أنه يدور جدل كبير الآن حول نقطتين بما يخص مصر: الأولى هى ألم تستفد مصر من تجاربها السابقة مع صندوق النقد الدولي؟ والنقطة الثانية يطرحها بعض المراقبين حول الفائدة ومدى التزام حكومة الإخوان في مصر بالنص بأن الفائدة محرمة وخاصة أنها تذهب إلى أعداء الأمة. كما كانوا يذكرون قبل وصولهم للسلطة)

رابعاً : منظمات اقتصادية عالمية

بالموازاة لمحاولة بناء مؤسسات سياسية كالأمم المتحدة، حاولت الدول الغربية بناء مؤسسات اقتصادية دولية، و خاصة على صعيد التجارة الدولية. فكانت منظمة (جات) GATT و هدفها تخفيض الرسوم الجمركية بين الدول لتشجيع التجارة الحرة. من المعروف أن هذا الفكر في التجارة الحرة يعود إلى النظرية الليبرالية في الاقتصاد، و كتابات آدم سميث وديفد ريكاردو في القرن الثامن عشر، و بعدها في القرن التاسع عشر مع انتشار الفكر الليبرالي.
بعد عدة جولات من الاجتماعات الدورية لمجموعة الجات تحولت إلى منظمة التجارة العالمية (WTO). الحقيقة ما يهمنا في هذا الفصل هو كيف تُستخدم هذه المنظمة لاستغلال الدول الغنية للدول الفقيرة؟ فقد أصبحت هذه المنظمة؛ و خاصة بعد الحرب الباردة من أهم أدوات الهيمنة الرأسمالية وخاصة الأمريكية في مشروعها للبقاء قائداً للنظام العالمي و بناء (نظام ليبرالي عالمي) (Liberal Order). وتعد منظمة التجارة العالمية أحد الأركان الثلاثة لسياسة الولايات المتحدة العالمية (البنك الدولي، صندوق النقد الدولي، منظمة التجارة العالمية) في عصر العولمة. فالانضمام لمنظمة التجارة العالمية يحتاج إلى موافقة الولايات المتحدة. فمن خلالها تبتز الولايات المتحدة الدول الفقيرة و تفرض عليها شروطاً سياسية واقتصادية قاسية.
مع انتهاء الحرب الباردة لجأت الولايات المتحدة الأمريكية إلى إحياء المنظمات الاقتصادية الدولية، وخاصة منظمة التجارة العالمية التي أصبحت أداة لتنفيذ السياسات الأمريكية. ففي ظل نظام دولي أحادي القطبية سعت الدول إلى الانضمام إلى النظام العالمي الجديد كما صوّره جورج بوش. وأحد أهم مظاهر هذا الانضمام هو دخول منظمة التجارة العالمية. الحقيقة على الرغم من أنه في الظاهر تجني الدول فوائد كبيرة من التجارة الحرة، إلا أنه في الواقع الانضمام إلى المنظمة له محاذيره ومخاطره. فاقتصاديات الدول الفقيرة غير قادرة على المنافسة. والصناعات الناشئة في الدول الفقيرة تخسر، وتخرج من السوق في ظل المنافسة مع الصناعات للدول الغنية. إن فتح الأسواق أمام الصناعات الأجنبية يؤثر بشكل سلبي في الاقتصاد الوطني، ويجعل الدول تعتمد على الصناعات الخارجية. هذا يؤثر في السيادة إذا أخذنا بعين الاعتبار المواد والبضائع الاستراتيجية.

خامساً: الشركات متعددة الجنسيات

شهدت العقود الأربعة الأخيرة انتشاراً لظاهرة الشركات متعددة الجنسيات التي تعد من سمات النظام الرأسمالي. يبلغ عدد الشركات متعددة الجنسيات في العالم حوالي ٥٠٠٠شركة ٣٠٠ شركة منها أمريكية، مثل: جنرال موتورز و ٢٠٠ شركة يابانية أو أوروبية مثل مولكس[١٠٧].
تقوم هذه الشركات ببث الفكر الليبرالي و استغلال الدول الفقيرة، فهي تكرس الفقر في دول الأطراف كونها تعزز نظام تقسم العمل الدولي والتبعية الذي طوره النظام الرأسمالي.

[107] جندلي مرجع سابق ص ٢٤٨

المساعدات المالية

تستخدم الدول الغنية المساعدات المالية للدول الفقيرة في الأطراف لتعزيز التبعية و مصادرة قراراتها الوطنية. فالولايات المتحدة تقدم أموالاً و مساعدات للعديد من الدول، مثل: مصر و إسرائيل، ولكنها تتحكم بالسياسات الخارجية المصرية، وتجعل منها تابعا لسياسات الولايات المتحدة.

التغيير والعولمة لدى أتباع النظرية العالمية

إن مفهوم التغيير من أهم المفاهيم المستخدمة في دراسة العلاقات الدولية؛ وخاصة لدى العاملين في مجال النظريات. فالفهم الحقيقي لعملية التغيير في النظام الدولي يُمكن الباحث من التنبؤ ومعرفة مستقبل العلاقات الدولية. لقد ميّز أتباع العالمية بين التغيير في النظام العالمي الذي يتضمن تغيير طبيعة النظام و بين التغيير في جزئية النظام التي تبقي على السمات الأساسية للنظام. وفي هذا الاتجاه يشير الراديكاليون إلى ثلاثة أشكال من التغيير الداخلي.

١- الشكل الأول يتميز في تغير مواقع القوى الفاعلة داخل النظام حيث يشير إمانويل ولرشتاين إلى أن هناك دائماً نماذج من السلوك، والحركة لبعض القوى الاقتصادية وخاصة حول تركيبة النظام الرأسمالي الداخلية، مثل: من ينتج ومن يربح، ومَن يستهلك. بمعنى آخر التنافس الداخلي من يحصل على ماذا. ولكن الأهم هو تغيير وضع اللاعبين داخل النظام كما حصل في القرن السابع عشر عندما تنازلت هولندا للإمبراطورية البريطانية و من ثم إلى الولايات المتحدة الأمريكية في القرن العشرين.

٢- النوع الثاني من التغيير الداخلي الذي يشير إليه بعض الأكاديميين هو الدورات التي يمر بها النظام الرأسمالي. فالنظام يمر بدورات من النمو ودورات كساد وهي تؤثر في جميع المجتمعات. حيث يميز الباحثون إلى أن هناك فترة قد تصل إلى ٣٠ عاماً من النمو قبل أن يتعرض النظام إلى فترة كساد تؤثر على اللاعبين في النظام الرأسمالي.

٣- التغيير الثالث الذي يشير إليه علماء العلاقات الدولية الراديكاليون هو الإستعمار، و ضم مناطق جغرافية جديدة للنظام الرأسمالي، و توسعه إلى مناطق نفوذ جديدة قد يؤثر في تراتبية النظام الرأسمالي وعمله[١٠٨].

خاتمة:
العالمية أو البنيوية الاقتصادية هي تصوّر راديكالي للعلاقات الدولية. ينطلق أتباع هذا التصور في دراستهم من ضرورة البدء بدراسة النظام الرأسمالي العالمي كونه الوعاء أو البناء الذي تتم من خلاله العلاقات الدولية. تركز التيارات المختلفة للنظرية العالمية على علاقة التبعية التي خلّفها النظام الرأسمالي من خلال تقسيم العمل العالمي للدول الفقيرة. كما يركز الراديكاليون على آلية الهيمنة والاستغلال التي من خلالها تتمكن دول المركز من استغلال دول الأطراف. يشير أتباع هذه النظرية إلى أن الإمبريالية وهي أعلى درجات الرأسمالية التي تتميز بتصدير رؤوس الأموال، و نشر ثقافة الرأسمالية في الدول الفقيرة، تعد من أهم أسباب الحروب و التخلف للدول في العالم الثالث. إن النظام

[108] Paul Viotti, Mark Kuppi International Relations Theory, Pearson, London, 2012,p 204

الرأسمالي و الدول الصناعية خلقت خللاً بنيوياً في اقتصاديات دول الأطراف بحيث تجعلها دائماً تابعة لها.
باختصار، العلاقات الدولية بالنسبة لأتباع هذه النظرية هي علاقات استغلال من قبل دول الشمال الغني لدول الجنوب الفقير تنهب من خلالها الثروات والمواد الأولية لهذه الدول.

الجدول التالي يلخص نظرة العالمية إلى بعض المفاهيم الأساسية

الشكل رقم:١١ كيف تنظر العالمية لبعض المفاهيم الأساسية:

المفهوم	كيف تنظر العالمية إلى المفهوم؟
الفرد	حسب موقعه الطبقي، إما مالك لأدوات الإنتاج أو عامل.
الدولة	الدولة أداة بيد الطبقات الغنية البرجوازية.
النظام	رأسمالي مؤطر بين غني و فقير يساعد على الاستغلال.
المصلحة الوطنية	تمثل مصلحة الطبقات البرجوازية.
الأمن القومي	تعكس رؤية الطبقات الغنية وخاصة في دول المركز.
المنظمات الدولية	أداة بيد الدول الغنية.
التغيير	محبب وجذري، لكنه من الصعب جداً تغيير طبيعة النظام، قد يتغير وضع اللاعبين داخل النظام لكن لا يؤثر في طبيعة النظام بشكل كلي.

المصدر: المؤلف

الفصل الخامس
مداخل جديدة في دراسة العلاقات الدولية
مداخل مابعد الوضعية
New Approaches to the Study of IR
Postpositivist Approaches

مقدمة:

في الفصول الثلاثة الأخيرة تمت دراسة التصوّرات الوضعية أو النظريات التي تعتمد المنهج الوضعي في دراسة العلاقات الدولية. وفي هذا الفصل ينصب اهتمامنا على دراسة مجموعة من الاتجاهات الفكرية التي برزت بشكل كبير خلال الثمانينيات من القرن العشرين. إن المتتبع لتطور دراسة العلاقات الدولية يجد أن بداية الثمانينيات كانت نقطة تحول في هذا العلم إذ تعاظمت مساهمة عدد من الكتاب الذين ينتمون إلى اتجاهات متعددة. ولكن وعلى الرغم من هذا التعدد هناك عامل مشترك يجمع بين هذه المداخل أو التيارات. فقد صُنّفت جميع هذه الاتجاهات تحت عنوان "الاتجاهات النقدية" أو "الاتجاهات الجديدة" وبعض الأحيان "تيارات ما بعد الوضعية" والعامل المشترك الذي يجمع هذه التيارات هو نقد المنهج الوضعي الذي تبنته النظريات السابقة خلال فترة تزيد على النصف قرن متمثلاً بما سمي بالجدالات الكبرى في العلاقات الدولية. إلا أن نقطة البداية لهذه التيارات في انتقادها للنظريات الوضعية هي أن هذه التيارات لم تغطّ في الماضي ولم تَعد قادرة الآن على تغطية المجال الواسع لهذا العلم. إن استبعاد النظريات الوضعية للعديد من المداخل على أنها مثالية أو تشتمل على قيم لأنها لا تنسجم مع افتراضات الوضعية كما رأينا بأن الوضعية تفصل بين الذات والموضوع وتنطلق من افتراض العلمية للطرق التي يجب اتباعها بعيداً عن أي قيم أو آراء شخصية، كان أحد أهم الجوانب التي أدت إلى فشل التيارات الوضعية في تحقيق هدفها لتأسيس علم مستقل.
الحقيقة أن الانتقادات التي توجهها هذه التيارات تذهب إلى أعمق من ذلك إذ تصف التيارات الوضعية على أنها "نظريات لحل المشاكل "و"نظريات شارحة" Explanatory Theories و"نظريات الوضع الراهن" Statues que Theory أو "الحتمية" أي أنها لا تحاول تغيير الواقع وتؤمن بحتمية أثر البناء على الفاعل بالمقابل تطرح النظريات الجديدة (ما بعد الوضعية) نفسها على أنها نظريات بناءة Constitutive وهدفها هو نسف الواقع وتغييره وتسعى لتحرير الإنسان. وفيما يلي نتناول كل مفهوم على حدة.

أولاً: النظريات الشارحة- والنظريات البناءة
إن التمييز الأول الذي وضعه أتباع النظريات النقدية بينهم وبين النظريات الوضعية هو أن الأخيرة هي نظريات شارحة ترى العالم وكأنه وحدة مستقلة بعيدة عن تأثير الفاعل أو بعيدة عن النظريات التي تحاول أن تدرسه، وبالمقابل فإن النظريات النقدية أو النظريات البناءة ترى أن النظريات تساهم في بناء العالم وهذا الواقع الذي نحن بصدد دراسته.
على سبيل المثال إذا افترضنا"كما يفترض الوضعيون"أن الإنسان بطبيعته أناني، وعدواني، فهذا يجعلنا نتصرف باتجاه الأفراد بطريقة معينة، وكأن هذه الطبيعة حتمية، وبعيدة عن الارتقاء ولا يمكن التغيير فيها، ولكن الإنسان لديه عقل يستطيع من خلاله أن يفكر، ويختار، ويغير في البيئة المحيطة به. فالبيئة هي أيضاً نتاج تراكم تاريخي وتفاعل متبادل مع القوى الفاعلة فيها. فبدلاً من أن نؤمن بأن خياراتنا محددة لنا من قبل البيئة أو البناء، يمكن أن نكون أقدر على تحديد خياراتنا وجعل هذه البيئة أو البناء لصالحنا.

ثانياً: النظريات المحافظة- والنظريات الساعية للتغيير:
أما التمييز الثاني بين الوضعية والنظريات النقدية هي أن النظريات الوضعية تعد نظريات محافظة. بمعنى أنها تقوم على أسس وافتراضات كالافتراضات الموجودة في العلوم الطبيعية. أي أن حتمية العالم من حولنا يمكن أن تخضع للطرق نفسها التي تتبعها العلوم الطبيعية من حيث إمكانية أنها صح أو خطأ بشكل قطعي.
بينما النظريات النقدية أو النظريات ما بعد الوضعية، فهي تعتقد بأن هذه الحقائق أو الادعاء بوجود حقيقة مطلقة للأشياء لا يمكن أن يوجد مثل هذا المعيار الذي يفترضه الوضعيون.
فتخيل وجود جدل بين الواقعيين من جهة وأتباع النظرية النسوية من جهة ثانية حول واقع المرأة في العالم الإسلامي. كيف ينظر الواقعيون على أنه واقع داخلي للدولة حيث يهتم أتباع هذا التيار (الواقعي) بقوة الدولة وواقعها في النظام الدولي، وعلاقة وضع المرأة بذلك . بينما أتباع النظرية النسوية يرون أن وضع المرأة ما هو إلا نتيجة لعوامل تاريخية، قيمية، اجتماعية وتسعى هذه التيارات إلى تغيير هذا الواقع.
فبالنسبة للوضعية واقع المرأة أمر معطى يمكن دراسة أسبابه وتطبيق القواعد المستعملة في العلوم الطبيعية عليه، ولكن المهم هو أنه واقع، وأن هناك حقائق حول هذا الواقع يمكن كشفها بالطرق العلمية الموضوعية. بينما أتباع النظرية النقدية يجدون أنه من غير الممكن تطبيق الطرق الوضعية المطبقة في العلوم الطبيعية على هذه النقطة وخاصة أن الموضوعية من الصعب أن توجد.
من الملاحظ أن هناك جدلاً إبيستمولوجياً و أنطلوجياً بين هذين الاتجاهين، فبينما ينطلق الاتجاه الأول من افتراضات الوضعية التي ذكرناها في الفصل الأول والمتمثلة بوجود حقيقة مطلقة للأشياء، و أن هناك قوانين أو شبه قوانين تحكم هذه الظواهر. ثانياً إننا نستطيع اكتشاف هذه القوانين باستخدام العقل، والسبيل لاكتشاف هذه القوانين هي الطرق العلمية أي الملاحظة والتجريب. ثالثاً: تفترض الوضعية بأننا نستطيع فصل الذات عن الموضوع.
بالمقابل يعتقد أتباع النظريات النقدية بأنه لا يوجد حقيقة مطلقة للأشياء، وأنه من الصعب فصل الذات عن الموضوع بمعنى أن الإنسان لا يمكنه أن يكون موضوعياً. وهذه التيارات الجديدة تسمى ما بعد الوضعية.

هذا الفصل يتضمن ثلاثة اتجاهات نقدية، هي:

١- النظرية النقدية أو مدرسة فرانكفورت.
٢- ما بعد الحداثة.
٣- النظرية النسوية.

النظرية النقدية أو مدرسة فرانكفورت :Frankfurt School

تعود جذور هذه النظرية إلى أعمال مجموعة من الفلاسفة و الأكاديميين في بداية العشرينيات من القرن العشرين في فرانكفورت بألمانيا. ولكن هذه النظرية دخلت العلاقات الدولية مع بداية الثمانينيات من القرن العشرين. ومن أهم روادها أندرو لنكليتر(Andrew Linklater) و روبرت كوكس (Robert Cox) ورغم هذا فإن أغلب أساتذة العلاقات الدولية يرجعون بدايات هذه النظرية إلى كتابات ماكس هوركهايمر، و خاصة مقالته المنشورة عام ١٩٣٧ التي يمكن شرح أهم ما جاء فيها بالقول إن هوركهايمر يهدف إلى تغيير المجتمع، وقد تولدت لديه قناعة بأنه لايستطيع أن يفعل ذلك من خلال استخدام الطرق أو النظريات الحتمية بالعلوم الطبيعية. فقد رأى أن علماء الاجتماع أو العلماء العاملون في العلوم الإنسانية و الاجتماعية لا يمكن أن يكونوا مثل

علماء الطبيعة أو العلماء العاملين في العلوم الطبيعية من حيث الاستقلالية و الموضوعية، و عدم التأثر بموضوعاتهم، خاصة و أنهم جزء من مجتمعاتهم التي يدرسونها.
في أحد أهم مساهماته، هوركهايمر رأى أن هناك علاقة بين المعرفة و القوة، و في العلوم الاجتماعية أهم قوى التغيير هي القوى الاجتماعية و ليس هناك منطق مستقل أو افتراض مقبول بدون مناقشة حول الظاهرة المراد شرحها. بمعنى آخر يرى أن القوى الاجتماعية في المجتمع هي التي تحدد الطريقة التي ينظر بها الباحث إلى الظاهرة قيد البحث. وقد ميز بين نوعين من النظريات هما النظريات التقليدية و النظريات النقدية.
النظرية التقليدية تنظر إلى العالم على أنه مجموعة من الحقائق و الوقائع التي توجد خارج سيطرة الإنسان مستقلة تنتظر اكتشافها من خلال استخدام العلم. و هذا ما رأيناه عندما تحدثنا عن الوضعية، و في هذا الإطار يرى هوركهايمر أن أتباع الوضعية مخطئون بافتراضهم وجود حقائق مستقلة عن البنية الاجتماعية و بعيدة عن تأثير و تأثر الإنسان بهذه الحقائق، كما أنه يشير الى أن المنهج الوضعي يساهم في عبودية المحيط الذي نعيش فيه، أي يزيد من قناعة الفرد بأن الواقع خارج عن سيطرته، و أن المحيط الاجتماعي بالنسبة لأتباع الوضعية هو كالمحيط الطبيعي فيه قوانين أو شبه قوانين خارج إرادة الفرد؛ ولذلك يعجز هذا المنهج عن تحرير الإنسان. بدلاً من النظرية التقليدية يقترح هوركهايمر النظرية النقدية التي تختلف في منهجها ورؤيتها لمصادر المعرفة. فالنظرية النقدية كما يراها هوركهايمر لا ترى الحقائق مستقلة عن النسق الاجتماعي أو القوى الاجتماعية والتاريخية في مرحلة زمنية معينة بل تعد هذه الحقائق والنظريات النقدية جزءاً من هذه المداخل والحقائق؛ مما يسمح للمنظّرين أن يتعاملوا، ويحللوا، ويكتشفوا المصالح التي تُخدَم من قبل هذه النظرية. فالهدف الأساسي للنظرية النقدية هو تحرير الإنسان أو إعتاقه وهي بذلك تحمل سمات المثالية.
كما ذكرنا في بداية هذا الفصل أن النظرية النقدية تأسست من كتابات مجموعة من الكتاب الألمان الذين أطلق على أعمالهم اسم مدرسة فرانكفورت وهم إلى جانب هوركهايمر كل من ثيودور أدرنو، والتر بنجامين، ربرت ماركس، ليو لونثال، جيرغن هابر ماس.
أما في العلاقات الدولية، فقد تمثلت النظرية النقدية في كتابات العديد من أساتذة العلاقات الدولية وفي مقدمتهم أندرو لنكليتر، روبرت كوكس.
فقد كانت أولى مساهمات النظرية النقدية في دراسة العلاقات الدولية مقالة مهمة كتبها كوكس حيث وضعت الأساس لمجموعة من المقالات و الدراسات التي كونت ماعرف فيما بعد في النظرية النقدية في العلاقات الدولية. وقد اكتسبت مقالة كوكس أهميتها كونها انتقدت النظرية الواقعية بشكل عام و الواقعية الجديدة بشكل خاص. إذ اشار كوكس إلى أنه بدلاً من أن تكون النظرية الواقعية الجديدة موضوعية فهي تحمل الكثير مما أسماه الافتراضات المعيارية و خاصة افتراضها أن الدولة تتصرف بشكل عقلاني. كما أنه أشار إلى أن الواقعية عرّفت الدولة بناءً على جانب واحد وهو الجانب الأمني، ولم تتطرق بشكل كافٍ إلى الجانب الاقتصادي و الاجتماعي لهذه المؤسسة. وهو بذلك يقول إن النظرية الواقعية تمثل ما أسماه هوركهايمر بالنظرية التقليدية، وهي تهدف لحل المسائل وحسب. وهي تأخذ العالم كما تجده أو تراه بما فيه من علاقات قوى، وقوى اجتماعية، ومؤسسات كما هي مبنية. و هدف هذه النظريات هو استمرار عمل هذه المؤسسات و القوى الاجتماعية دُون أي مشكلة. فمهمة النظرية هو حل المشاكل لهذه البنى الاجتماعية أو المعلومات أو المنظومات دون محاولة التغيير أو حتى محاولة التساؤل حول هذه القوى الاجتماعية أو المنظومات الأخرى من أين أتت أو كيف وصلت إلى هذا الشكل. وبمعنى أوضح هذه النظريات تنظر إلى الدولة كما هي، معطاة، وكأنها أمر واقع دون مناقشة أو تساؤل عن العملية التاريخية التي أسهمت في تكوين هذه المؤسسة أو حتى كمفهوم.
وبما أن هذا النوع من النظريات يحاول أن يبقي على عمل المؤسسات، فهي تساعد على إعطاء صفة القبول والشرعية لمثل هذه المؤسسات والمفاهيم؛ لذلك توصف أيضاً بأنها تحافظ على الوضع الراهن. لذلك يرى كوكس أنه لا يوجد نظرية حرة كما يتصورها الوضعيون، فالنظرية

دائماً وُجدت من فرد أو أفراد أو نخب معينة، ولغرض معين. فالنظريات تنظر إلى العالم وتراه من منظار سياسي واجتماعي معين، فهي بذلك ليست مستقلة عن الوسط الذي تولد فيه سواء في الزمان أو المكان. من هذا المنطلق يدعو كوكس إلى معالجة النظريات كأيديولوجيات لبيان ما تخفيه من تصورات وأفكار وأهداف. بالنسبة لروبرت كوكس كأحد أتباع النظرية النقدية يرى أن البناء الاجتماعي أو البنية الاجتماعية هي نتاج تفاعل اجتماعي وعمليات مستمرة فيها من المشاعر والآراء والمواقف والقواعد والقوانين التي نتجت من تفاعل بين الفرد ومحيطه أي أن هذه البيئة ليست موضوعية أو خارجة عن إرادة الفرد؛ بل هي تعكس عمليات مستمرة من البناء حتى وصلت إلى هذا الشكل. وهو يقارن بين البناء الاجتماعي، والبناء المادي الذي يتألف من القوى العسكرية، والاقتصاد.....الخ وبين البناء الاجتماعي، ويرى أن الوضعيين لا يعيرون البناء الاجتماعي أهمية كالبناء المادي[٢٠٩].

***البناء الاجتماعي:** القوى الاجتماعية، القواعد، الأعراف، القيم، التقاليد...
***البناء المادي:** البناء، الأسلحة، القوة العسكرية، البنية التحتية، التجارة، الصناعة وتوزيع القوى....الخ

فالنظرية النقدية تقول إن البناء الاجتماعي هو الذي لا يحدد المفاهيم الموجودة لدى الفرد فقط؛ وإنما يحدد أيضاً الطريقة التي ينظر بها الفرد إلى المواضيع، ويرى من خلالها القضايا، ويرسم من خلال هذه الرؤية السياسات، ويحدد السلوك لهذا الفرد والدولة.

وعلى عكس ما يراه أو يفترضه أتباع النظريات الوضعية وخاصة الواقعية (الجديدة) بأن الدولة فاعل عقلاني دون النظر إلى مفهوم الدولة، وتطور هذا المفهوم أو المؤسسة نفسها عبر التاريخ، يرى أتباع النظرية النقدية أن الدولة عبر التاريخ أخذت أشكالاً مختلفة، وهي تختلف حسب الفترات الزمنية وهي نتاج قوى اجتماعية كأي بناء اجتماعي، والمهم لهؤلاء المفكرين (أتباع النظرية النقدية) هو دراسة كيف تتغير وتتحول هذه البنى الاجتماعية عبر الزمن. وكما يقول كوكس إن الاهتمام يجب أن يكون مركزاً على مفهوم طبيعة الهيمنة التي تشكل إحدى مراحل هذه البنى الاجتماعية. ومنذ أن نشر روبرت كوكس مقالته المذكورة آنفاً شهدت دراسة العلاقات الدولية العديد من المساهمات التي يمكن أن تنضوي تحت اسم النظرية النقدية. وبرزت أسماء عديدة مثل أندرو لنكليتر وكن بوث وريتشارد جونز كرواد للتيار النقدي . وقد مثلت كتابات كن بوث وجونز البدايات الأولى لحقل جديد من مجالات العلاقات الدولية وهو ما يسمى بالدراسات الأمنية النقدية. وتلا ذلك مساهمات أخرى كان التركيز فيها على الاتجاه الجديد في البحث في مجال العلاقات الدولية وخاصة علاقة القوة والسيطرة ليس فقط في النظام الدولي؛ وإنما داخل الأشكال الأخرى من النظم أو العلاقات بين الوحدات الأخرى، وبذلك يرى العديد من أتباع هذه النظرية أنها تصلح للوقت الحاضر؛ لأنها أقدر على دراسة علاقات التسلط والهيمنة في ظل العولمة.

إن هناك من يدّعي أن تطور التكنولوجيا والاتصالات وانتقال الأموال في عصر العولمة أحدث تغيراً كبيراً في طريقة الإنتاج عالمياً للبضائع والخدمات. وأحدث شكلاً جديداً من أشكال تقسيم العمل إذ جعل هناك مجموعة صغيرة في مراكز النظام العالمي تسيطر على الأموال والبحث العلمي وتطوير التكنولوجيا، بينما أطراف هذا النظام تابعة ومعتمدة على المركز.

هذا النوع من التقسيم مكّن المركز من أن يغتنم الفرصة في استغلال هذه المجموعات التي تتوزع في العالم وتتصرف في وحدات الإنتاج مقسمة ومتفرقة حسب العرق أو الجنس أو الدين إلى حد ما. يرى كوكس هذه المجموعات بأنها حلت محل ما أطلق عليه الماركسيون "البروليتاريا" أو الطبقة العاملة في الصراع الاجتماعي ضد الأغنياء في المركز. لكنه يشير إلى أن استمرار هذا النوع من الصراع الاجتماعي يجعل القوى الغنية تجتمع وتتقارب من أجل تحقيق الهيمنة مقابل

---

[109] John Baylis, Steve Smith, The Globalization of World Politics, London, Oxford, 1997, P.

القوى المتناثرة والمتفرقة الضعيفة التي لا تستطيع أن تقاوم. عندما نتكلم عن وجود تقسيم للعمل ووجود نوع معين من الهيمنة والسيطرة هذا يعني أننا نتحدث عن نوع من العلاقات النسقية أو الهرمية إلى حد ما تسمح بوجود نوع من النظام. ولكن المهم هنا بالنسبة لأتباع النظرية النقدية هو معرفة آلية التغيير، وكيف لمنظومة جديدة من القوى الاجتماعية والسياسية أن تبرز، وتصبح منتشرة أو مهيمنة إلى أن تحل محل المنظومة القديمة، وينتقل النظام من شكل لآخر.

تبلورت هذه الأفكار في كتاب روبرت كوكس "الدولة، الإنتاج، والقوى الاجتماعية". الذي يعد من أكثر الكتب والمقالات أهمية في أدبيات النظرية النقدية؛ لأنه أسس أيضاً إلى تطور دراسة الاقتصاد السياسي الدولي "النقدي".

بالإضافة إلى التأكيد على القوى الاجتماعية لكوكس كانت كتابات لنكليتر تركز على التحول و التغيير في المجتمعات السياسية "الوحدات السياسية" التي تطرح أيضاً نموذجاً جديداً من التوجهات بأن الإنسان عليه التزامات إلى أقرانه في العالم ليس فقط تجاه مواطنيه. في هذا الاتجاه كان لنكليتر يهدف إلى إيجاد ما يسميه المجتمع الجيد الذي لم يكن محدداً في الدولة- القومية. فقد دعا إلى العودة إلى أساسيات السياسة التي تعنى قبل كل شيء بتحرير الإنسان.

وأول درس في أساسيات السياسة هو تعليم كيف يكون الإنسان موضوعياً يقبل الغير، ويعرف كيف يحترم، ويتعامل مع الغير الذي هو مختلف عنه. بهذا الطرح يكون أتباع النظرية النقدية قد ذهبوا أبعد مما طرحته النظرية الماركسية حول الصراع بين القوى المهيمنة البورجوازية والطبقة العاملة إلى حد تسليط الضوء على التفريق والتمييز "العنصري" المبني على أسس العرق، أو الجنس، أو الدين ضد مجموعات كبيرة في المجتمع؛ بالإضافة إلى هذا المدخل للعلاقة بين المهيمنين والمُهيمَن عليهم يركز لنكليتر على ما يقوم به المهيمَن عليهم من أساليب المقاومة والرفض. وفي هذا الاتجاه استخدم مقاربة هابر ماس حول دور الجدل والتواصل والخطاب السياسي في التغيير، ليشير إلى أن القوى التي خضعت إلى أنواع عديدة من التمييز والظلم والهيمنة بدأت تستخدم التحرك السياسي والخطاب لتوصيل رأيها والسعي للتغيير.

مارك هوفمان لخص أفكار روبرت كوكس حول النظرية النقدية بالنقاط السبعة الآتية:

١ـ تقف النظرية النقدية بعيدة عن النسق أو المنظومة الاجتماعية الحالية أو النسق الدولي الحالي لتتساءل كيف جاء هذا النسق وأصبح بهذا الشكل. إنه تساؤل يركز على دور القوى الفاعلة في النظام والقوى الاجتماعية ومقاربة نقدية وليس مقاربة وضعية.

٢ـ تنظر إلى النظام الاجتماعي والسياسي كوحدة واحدة، ويسعى لفهم آلية التغيير للكل وللأجزاء.

٣ـ تركز بشكل كبير على التاريخ، وتنظر إليه على أنه عمليات مستمرة من الاستمرارية والتغيير.

٤ـ تشكك بشرعية، وأسس، ومقومات المؤسسات الاجتماعية والسياسية وتبحث في إمكانية التغيير في هذه المؤسسات، وتسعى لتحديد المقومات العالمية للنسق أو للنظام العالمي الذي يعد أداة استمرار وما هي المقومات التي تعد ذات أثر سلبي ويجب تغييرها.

٥ـ فيها من مقومات النظرية التقليدية بالإضافة إلى المقومات التي تركز على دور المعرفة والقوة وهي دائماً تعدل مفاهيمها حسب الموضوع الذي تحاول فهمه.

٦ـ فيها مقومات معيارية ومثالية بتركيزها على البحث عن أفضل النظم الاجتماعية والسياسية لتحرير الإنسان.

٧ـ إنها تشكل دليلاً لاستراتيجية علم الانتقال إلى نظام أفضل.

بهذه النقاط يشير هوفمان إلى أن أحد رواد النظرية النقدية يركز بشكل كبير على الافتراضات الأساسية لهذه النظرية، وهي القوى الاجتماعية وأثرها في تثبيت أو تغيير نسق اجتماعي أو سياسي في فترة زمنية معينة، وهذا يقودنا إلى الحديث عن بعض

الافتراضات التي يمكن أن تحمل من خلالها بعض الأسس التي تنطلق منها النظرية النقدية، وأهمها:

١-الطبيعة الإنسانية ليست محددة ومعطى ثابت كما يدعي الوضعيون. ولكنها نتيجة قوى أو ظروف اجتماعية لفترة زمنية معينة.

٢-الفرد يمكن أن يكون في جماعات معروفة ومحددة، وهذه الجماعات لها مصالح معينة مشتركة.

٣- أتباع النظرية النقدية يرفضون القول بأن هناك حقائق ثابتة حول النسق الدولي بل قيمنا تؤثر في رؤيتنا، وتفسيرنا، وشرحنا لهذا النسق الدولي.

٤-يؤمن أتباع النظرية النقدية بأن المعرفة متصلة بشكل كبير بمسألة تحرير الإنسان.

٥-على الرغم من الاختلاف في العرق أو الجنس أو الطبقة إلا أن الناس جميعاً في العالم لهم مصلحة في تحرير الإنسان لذلك تعد هذه النظرية "وكأنها مبدأ عالمي".

إن مجمل الافتراضات السابقة تعطي وبشكل مختصر أهم النقاط المشتركة بين الكتاب العديدين في النظرية النقدية، وهنا يجب الإشارة إلى التيار الذي يركز على الدراسات الأمنية النقدية والذي بدأ يأخذ دوراً كبيراً خلال العقدين الأخيرين. حيث أصبحت كتابات أتباع هذا التيار جزءاً لا يتجزأ من التيارات النقدية.

إن الدراسات الأمنية النقدية تنطلق من الحقيقة التالية: أن الدراسات الأمنية التي سادت العلاقات الدولية لفترة طويلة كانت نتيجة فترة زمنية محددة هي الحرب الباردة، وقد صبغت هذه الفترة بما فيها من تناقضات وتنافس بين القوتين العظميين وانقسام العالم إلى معسكرين طبيعة الدراسات الأمنية إذ ركزت بشكل كبير على مفهوم الأمن القومي بشكله التقليدي الذي يعتمد على النظرة العسكرية، وإقصاء وتجاهل عوامل عديدة يمكن أن تشكل جانباً آخر من الأمن القومي. فالدراسات الأمنية النقدية لا تدعو فقط لتوسيع مفهوم الأمن القومي لكي يستوعب عوامل أخرى تؤثر في الأمن القومي للدولة، مثل: الاقتصاد، والبيئة،.... وانتهاك حقوق الإنسان، بل تدعو لإيجاد نظرة حديثة ومدخل جديد للدراسات الأمنية كي تعكس طبيعة مرحلة ما بعد الحرب الباردة بما تحمل معها من تحديات متنوعة للجنس البشري، وليس فقط التهديد العسكري كما كان يعتقد في السابق. والجدول التالي يوضح رؤية النظرية النقدية لمفهوم الأمن مع مصادر الخطر وأنواعه.

الجدول ١٣: مصادر الخطر على الأمن

	المهددات			
التهديدات	الأفراد	جماعات	الحكومة	العالم
الأفراد	جرائم كراهية			
جماعات	جرائم كراهية	قتل جماعي	حروب أهلية	
الحكومة	انتهاك حقوق الإنسان	قتل جماعي سياسي	حروب عقوبات	حرب نووية
عالمي	مجاعة تلوث	احتباس حراري	احتباس حراري	
غير إنساني	أمراض كوارث طبيعية			تصادم كواكب

Peter Hough. Understanding Global Security. London. Routledge, 2004,p 18

نقاط هامة حول النظرية النقدية:

١ـ النظرية النقدية تطورت عن كتابات ما سمي بمدرسة فرانكفورت في بداية القرن العشرين ومن أشهر روادها ماكس هوركهايمر، وجرغن هابر ماس.

٢ـ تعد مقالة هوركهايمر المنشورة عام ١٩٣٧ التي ميز بين النظريات التقليدية والنظريات النقدية من أهم الجذور الفكرية للنظرية النقدية.

٣ـ ميز روبرت كوكس بين نوعين من النظريات الأولى نظريات لحل المشاكل، وهي الوضعية ونظريات نقدية تسعى إلى التغيير، وإلى تحرير الإنسان.

٤ـ يقول كوكس أن النظريات دائماً لفرد معين أو أفراد معينين، ولتخدم غرضاً معيناً، وليس هناك نظرية موضوعية حرة بعيدة عن محيطها الاجتماعي.

٥ـ ترى النظرية النقدية أن البناء الاجتماعي هو كالبناء المادي للنظام الدولي يؤدي دوراً هاماً وكبيراً في تحديد سلوك بلد معين[١١٠].

وفي النهاية لابد من التنويه إلى أن هناك بعض الاعتقادات الخاطئة حول النظرية النقدية:

١ـ يعتقد البعض أن النظريات النقدية تسمى النقدية فقط؛ لأنها تنتقد الوضعية بل هي نقدية لأنها توجه أنظار الإنسان لضرورة اتخاذ نظرة نقدية تجاه أي نوع من أنواع المعرفة؛ أي لا يقبل أي شخص أي شيء كما هو معطى بل بعد الدراسة والنقد.

٢ـ يعتقد البعض أن النظرية النقدية لا تؤمن بوجود بناء مادي أو عالم حقيقي من حولنا. بل على العكس من ذلك فأتباع النظرية النقدية يقرون بوجود مثل هذا العالم، ويقولون إن حقيقة هذا العالم ستحدد من خلال المفاهيم والأفكار وهي بالنهاية تعكس مصلحة النظرية النقدية وهدفها وهو كشف هذه العلاقة لمعرفة هذه الحقائق.

أهم الانتقادات الموجهة للنظرية النقدية:

١ـ لبعض المفكرين وأساتذة العلاقات الدولية النظرية النقدية لا تشكل "نظرية" برأيهم بل هي مجموعة من الاتجاهات والانتقادات الموجهة ضد منهج تستخدم في العلوم الاجتماعية وهو المنهج الوضعي.

٢ـ تنتقد النظرية النقدية بأنها مثالية لتركيزها كثيراً على تحرير الإنسان عالمياً.

٣ـ تنتقد النظرية النقدية بأنها تركز وتضخم دور القوى الاجتماعية، وتغفل قوى أخرى لها أثر كبير في فهم الحقائق من حولنا.

٤ـ أن النظرية النقدية لا تقدم منهجاً محدداً يمكن من خلاله أن يدرس الظاهرة الاجتماعية والسياسية بعيداً عن الوضعية.

---

[١١٠] Jill Steans, Lloyd Pettiford, An Introduction to International Relations Theory, London, Longman,2010, 120

مابعد الحداثة
Post-Modernism

مقدمة

كبقية الاتجاهات النقدية أو ما بعد الوضعية كان دخول ما بعد الحداثة إلى العلاقات الدولية متأخراً نسبياً، إذ بدأت الكتابات في هذا الاتجاه مع بداية الثمانينيات من القرن العشرين. ويُعد ريتشارد آشلي Richard Ashley من رواد هذا الاتجاه على الرغم من أن كتاباته الأولى كانت قد تأثرت بشكل كبير بأفكار جيرغن هابرماس من النظرية النقدية (مدرسة فرانكفورت) ولكن آشلي سرعان ما بدأ يميل نحو المدرسة الفرنسية أو فلاسفة فرنسيين، مثل: بيير بوردو Pierre Bourdieu و ميشيل فوكو Michael Foucault ومع بداية ١٩٨٧ كان آشلي قد انتقل كلياً من النظرية النقدية إلى ما بعد الحداثة، منضماً بذلك الى مجموعة من الكُتّاب منهم: روبرت وولكر Robert Walker و جيمس دير دريان James Der Derian اللذان كانا قد وضعا الأسس الأولى لهذا التيار في العلاقات الدولية. لقد كان كتاب دير دريان "في الدبلوماسية" On Diplomacy الذي نشر عام ١٩٨٧ و كتاب وولكر "عالم واحد، عوالم متعددة: الكفاح من اجل سلام عادل" One World, Many Worlds, Struggle for Just Peace الذي نشر عام ١٩٨٨ من الأعمال الأولى التي تبنّت ما بعد الحداثة في دراسة العلاقات الدولية. ومن ثم تلت ذلك كتابات عديدة في المجلات و خاصة مجلة الدراسات الدولية التي خصصت عدداً بالكامل حررّه ريتشارد آشلي و روبرت وولكر تحت عنوان "حديث أو كلام المُبْعد". وقبل الحديث عن هذا التيار وافتراضاته الأساسية، نجد من الواجب أن نعطي لمحة بسيطة عن الحداثة و مشروع الحداثة والتنوير حتى تكون نقطة الانطلاق للحديث عن أدبيات ما بعد الحداثة ومشروع التنوير أفضل و أوضح.

الحداثة: Modernism

كلمة الحداثة عادة تُستخدم لتشير إلى عمليتين مترابطتين. أولاً: للحديث عن التحولات المؤسساتية التي حدثت في الغرب. ثانياً: للحديث عن التحولات الجذرية في الفكر السياسي و الاجتماعي الذي حدث مع بروز العالم الحديث.

أما مصطلح التنوير، فيشير إلى فترة زمنية من تاريخ أوروبا يمتد من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر حيث برز خلال هذه الفترة تحدي العلم الحديث لكل التقاليد والمبادئ الدينية التي كانت سائدة في الفترات السابقة. ينبع هذا التحدي من رؤية جديدة للإنسان وقدرته على التفكير و المحاكمة العقلية والتطور القيمي والأخلاقي. كان علماء التنوير حريصين و بشكل كبير على استخدام السبل و الطرق العلمية، والمنطقية والعقلانية للحصول على المعرفة. ولم يقبلوا أي شكل من أشكال أو مصدر من مصادر المعرفة يناقض هذه الرؤية.

هذا بدوره شكّل تحدياً كبيراً للسلطة التقليدية التي كانت مهيمنة في أوروبا. هذه التطورات أفرزت ما يسمى بمشروع التنوير الذي يقوم من أجل تقدم و تحرير الإنسان. وقد ساهمت انطلاقة وتطور الصناعات الرأسمالية في تلك الفترة في إمكانية إقامة المؤسسات و التنظيمات البشرية على أساس "عقلاني" كما مهدت بدايات العلم الحديث لبروز "علم الاجتماع" والذي بدوره أدى إلى اكتشاف القوانين التي تحكم هذا المجتمع. هذا يعني أن تقوم دراسات معتمدة على أسس علمية "عقلانية" لدراسة القوى الاجتماعية معتمدة بذلك على افتراضات أساسية بأن هناك قوانين تحكم مسيرة و سلوك القوى الاجتماعية و تحدد طبيعتها و ما علينا إلا أن نكشف هذه القوانين باستخدام العقل، وهذا بدوره شكل نقيضاً للفكر السائد ذاك الوقت من أن هذه الظواهر والتفاعلات موجودة و منسقة وفق إرادة إلهية.

وقد كان إيمان فلاسفة التنوير قوياً، بأن التطور الدائم باستخدام العقلانية، وإلغاء الجهل سوف يؤدي بشكل تراكمي إلى وحدة الإنسانية سياسياً. هذا المشروع للتنوير وتحرير الإنسان كان مبنياً على الاعتقاد بأن هناك إمكانية لكشف حقائق عالمية. انسجاماً مع هذا المبدأ كانت الاتجاهات أو المبادئ التي توصف بأنها عالمية مثل الماركسية والليبرالية، تنادي بضرورة كسر القيود و تحرير الفرد و الإنسان و إنهاء معاناة الكثيرين من أفراد هذه الإنسانية بغض النظر عن الحدود الجغرافية و الزمان و المكان.

إن مشروع التنوير أيضاً شكل تحدياً لأشكال السلطة التي تتخذ من مفهوم "المصلحة العامة" ، أو شرف العائلة ، أو عظمة الآلهة وسيلة لحكمها، و تسلطها على الشعوب خلال القرون الماضية.

كما أن مشروع التنوير انسجم مع الأفكار التي رفض مبدأ قدسية حق الملك أو تقديس المحاربين والعظماء منهم الذي يقود إلى وضع هذه المجموعة من الأفراد في طبقة لها خصائصها و ميزاتها التي تفصلها عن بقية الناس. إن تاريخ البشرية يشير إلى أن التغيير الاجتماعي هو نتاج التفاعلات التي تتم في المجتمع أن أفضل أشكال هذه المجتمعات التي نعيش فيها هي التي تسمح بقدر كبير من تقدم الإنسان وتطوره. فالتنوير يرفع شعار الإنسانية، و العمل من أجل تحرير الإنسان من أشكال العبودية، و القمع، و التعسف من قبل السلطات غير الشرعية التي تحكم مجتمعاتها تحت اسم الدين - العائلة-و المصلحة العامة[111].

ولكن إذا كانت الحداثة و مشروع التنوير يحملان هذا الهدف لتحرير الإنسان، و الدعوة إلى وحدة البشرية ويدعوان إلى هذه القيم العليا و يؤسسان لقواعد و طرق علمية تضمن التقدم و الرفاهية و التحرير للفرد، لماذا إذاً هذه الإنتقادات للحداثة وتطوير نظريات تسمى ما بعد الحداثة؟

تنطلق ما بعد الحداثة كأي نظرية نقدية من أن المنهج الوضعي والافتراضات الإبستمولوجية للنظريات الوضعية أدت إلى إخفاقات و تراجع في مشروع تحرير الإنسان. ويعتقد أتباع ما بعد الحداثة أن ما قامت عليه الحداثة من مشروع التنوير حمل في طياته أسس التمييز بحيث وضع معياراً أو مقياساً واحداً ناتجاً عن التجربة الأوروبية، تقاس عليه الوحدات الدولية في العالم على الرغم من اختلاف ثقافتها و اتجاهاتها. كذلك يشير أتباع مابعد الحداثة إلى أن الوضعية كونها وليدة مشروع الحداثة تغفل العوامل الثقافية و الاجتماعية التي تساهم في تكوين وعي الإنسان. و قد برزت مساهمة مابعد الحداثة من خلال تسليط الضوء على بعض النقاط أهمها العلاقة بين القوة و المعرفة.

القوة والمعرفة في العلاقات الدولية: Power – Knowledge in IR

إن مفهوم القوة يشكل أحد أهم المفاهيم في دراسة العلاقات الدولية، إلى حد أن شبهه بعض أساتذة العلوم السياسية بأنه "العملة أو النقود" في التفاعلات الدولية كالنقود في السوق أي التعبير الحقيقي عن قوة المالك لهذه النقود في السوق . فقد اختلفت الآراء حول تعريف القوة و أثرها في العلاقات الدولية. في حين شكل مفهوم القوة نقطة انطلاق أتباع الواقعية بأشكالها المتعددة، إذ عدّه الواقعيون هدفاً وأداة للفاعلين الدوليين في علاقاتها مع القوى الأخرى في النظام الدولي، رأى أتباع الليبرالية أن الواقعيين قد بالغوا بأهمية ودور القوة و خاصة العسكرية منها، لأن القوة الناعمة للدول بما فيها من قيم و ثقافة و قيادة و إرادة تشكل القوة الحقيقية للدولة وخاصة في عصر العولمة.

أما بالنسبة لأتباع مابعد الحداثة فالقوة تأخذ وظيفة مختلفة عما يتداوله الوضعيون. فالقوة تولد المعرفة، و المعرفة بدورها تساهم في ترسيخ القوة. فالعلاقة بين القوة و المعرفة هي علاقة جدلية. هذه العلاقة التي نوه إليها وإلى أهمية دراستها الفيلسوف الفرنسي وأحد رواد مابعد الحداثة ميشيل فوكو. وقد أشار فوكو إلى أن عملية إنتاج المعرفة في المجتمع و دور القوة في إنتاجها قد أهملت من قبل أتباع النظريات الوضعية[112]. فالوضعيون ينطلقون من الفرضية

---

[111] Jill Steans nd LloydPettiford, International Relations, Long Man, London, 2005, p. 134

[112] Jill Steans. Ibd p. 135

الأساسية باستقلالية المعرفة عن العوامل الشخصية من قيم و مصالح و قوة و هذا ما يسمى بالمعرفة الموضوعية Objective Knowledge . هذه المعرفة بنظر الوضعيين معرفة غير ملوثة أو متأثرة بالعواطف و القيم، ولكنها مبنية على التفكير العلمي فقط. هذا الافتراض شكّل نقطة الانطلاق لأتباع مابعد الحداثة في نقدهم للتراكم المعرفي للنظريات الوضعية.

لإضاح العلاقة بين القوة و المعرفة يشير فوكو إلى أن الخطاب الذي نتناوله دائماً، وننخرط فيه يومياً ليس محكوماً و محدداً من قبل الأفراد فحسب؛ بل على العكس، يرى فوكو أن هذا الخطاب قوي و مؤثر إلى حد أنه ينتج معرفة معينة ضمنها مفاهيم أساسية وتعريف وتحديد لمسائل نتعامل معها يومياً وفي أغلب الأحيان نقبلها دون أي تساؤل أو نقاش. هذا يعني أنه لا يوجد حقيقة مطلقة حول الطبيعة أو الحياة الإنسانية. كل شيء نعتقد أننا نعرفه بالتأكيد مرتبطاً بالبيئة المحيطة بنا التي قد ساهمنا ببنائها. فنحن نعرف هذه الحقائق لأننا تعلمنا ذلك في المدرسة أو أخبرنا ذلك العلماء في ذلك المجال أو فنيون مختصون، أو بيروقراطيون أو صناع قرار أو نخب. فبينما الأقوياء في المجتمع هم في وضع يسمح لهم بأن يفرضوا وجهات نظرهم وآرائهم على البقية كحقائق، يستطيعون من خلال قوتهم فرضها ورفض وعزل وتهميش كل ما لايروق لهم، أو أي خيار آخر لأفكارهم. ومع ذلك ذلك هؤلاء لايستطيعون أن يتحكموا تماماً بالخطاب. والحقيقة أن ما يقوله الأقوياء ويصبح ذا معنى أو مقبولاً في ظل بيئة تسود فيها منظومة قيمية -تشكل وعاء لهذه الأفكار وتدعم قوة الأقوياء. إن دور الخطاب و المعرفة لدى أتباع مابعد الحداثة يقودنا إلى الحقيقة التالية " إن الهدف هو جعل إنتاج المعرفة و الحقيقة في صلب اهتمام التحليل السياسي والتاريخي و محاولة فهم الآلية التي من خلالها نستطيع دراسة كيف تنتج القوة المعرفة وكيف المعرفة ترسخ القوة. بناء على هذه الأفكار حاول ريتشارد أشلي و عدد من مفكري العلاقات الدولية أن يوظفوا هذا المنهج في دراسة بعض المفاهيم مثل السيادة، و المصلحة الوطنية، و غيرها. وكيف القوة التي أنتجت مثل هذه المفاهيم عبر القرون الماضية كانت بالوقت نفسه تحتاج إلى المعرفة لإنتاج وترسيخ القوة. إذ بدون سيادة لا يمكن استمرار القوة وبدون القوة لايمكن أن تكون هناك سيادة [112].

"جنيولوجي" Genealogy

بعد أن تم استعراض المحور الأول لدى أتباع ما بعد الحداثة وهو العلاقة بين القوة و المعرفة، ينفرد هذا القسم من الفصل لعرض مفهوم أو ركن أساسي من أركان نظرية ما بعد الحداثة وهو دور التاريخ في نقل وتحديد وكشف أثر العلاقة بين القوة والمعرفة عبر الزمان. تعود جذور هذا المنهج إلى نيتشه Nietzsche الذي كان أول من أشار إلى أن هناك منظومات من المعرفة تسود وتهيمن عبر التاريخ وبالمقابل هناك منظومات من المعرفة أو الحقائق تختفي. فالحقيقة بالنسبة لنيتشه هي ليس إلا غير الحقيقة، أو ليست الحقيقة ولكنها أصبحت عبر التاريخ من الاستخدام صيغت وأصبحت حقيقة خلال التاريخ الطويل الذي كرسها كذلك. بهذا المعنى جنيولوجي تعني الدعوة إلى التشكيك بالحاضر، و الدعوة إلى الكشف عن المنظومات القيمية "الحقيقة" التي استُبعدت في فترة، فجعلت منظومة من الأخلاق والحقائق تسود على حساب منظومات أخرى تم إقصائها في تلك الفترة. فالتاريخ بالنسبة لأتباع مابعد الحداثة يشكل مجموعة من السلسلات من العلاقات بين القوة والمعرفة.

"جنيولوجي" بالنسبة لأتباع ما بعد الحداثة هو منهج تاريخي يعيد الاهتمام لكل ما أبعد من قيم ومفاهيم و منظومات معرفية خلال كتابة التاريخ. بمعنى آخر نظرة نقدية لإعادة كتابة التاريخ من خلالها يتم تسليط الضوء على عمليات إقصاء و طمس بعض الحقائق لحساب حقائق أخرى مما يجعل هذه الطريقة تعيد للتاريخ سماته بأنه وحدة متكاملة لها بداية ونهاية ويسمح بكشف تدريجي للمعاني و الحقائق بدلاً من الاستمرار في تسخير التاريخ للهيمنة من قبل منظومة قيمية أو معرفية

[113] Andrew Linklater, International Relations theory, Ibid, P182

على حساب حقائق أخرى. وعوضاً عن الانغماس بقواعد و طرق المنهج الوضعي الذي يسعى إلى تفسيرات للظواهر الاجتماعية مبنية على قواعد وقوانين أو شبه قوانين تحكم هذه الظاهرة، المنهج التاريخي الأنطولوجي يهدف إلى كشف المعنى الحقيقي، و البناء الأساسي الذي يحتوي التاريخ الحقيقي للظاهرة.

هذا يعني أن أتباع ما بعد الحداثة يعدون أن المعرفة دائماً محكومة بالإطار السياسي و التاريخي في فترة زمنية معينة، فهي متأثرة بالزمان و المكان والرؤية التي وُلدت فيها. ونيجة لهذه الرؤية، لايمكن أن تكون المعرفة حرة فهي وليدة ظروف سياسية و تاريخية في زمان ومكان معينين تخدم جهة ما. كذلك يرى أصحاب هذا التيار أنه لا توجد حقيقة واحدة بل هناك مجموعة من "منظومات من الحقائق" المتنافسة و التصورات المتضاربة حول الظاهرة نفسها.

وقد استخدم أساتذة العلاقات الدولية هذه المنهجية لدراسة المفاهيم و الحقائق التي تعد ركائز هذا العلم ليطبقوا عليها الطرق "الجنيولوجية" للتشكيك بهذه المفاهيم و الحقائق وإعادة هذه المفاهيم إلى جذورها و محاولة القوى التي ساهمت في دفعها و تكريسها كمنظومة معرفية مسيطرة و إقصاء منظومة أخرى. وقد كانت أعمال العديد من رواد هذا العلم مثل ريتشارد أشلي و جيمس دير دريان مساهمات بناءة أسست لدراسات أخرى لأتباع ما بعد الحداثة. وقد تناولت هذه الدراسات مفاهيم أصبحت متداولة، و يأخذها أتباع الوضعية كما هي دون اي تدقيق بتاريخ هذه المفاهيم، مثل: السيادة ، والقوة، والمصلحة الوطنية، و فوضوية النظام الدولي. ويقترح أتباع ما بعد الحداثة تطبيق المنهج التاريخي "الجنيولوجي" لكشف حقيقة هذه المفاهيم، و منظومات المعرفة المتعلقة بها، وبيان نوع القوة التي ساهمت بترسي هذه المعرفة عبر الزمن و "تحطيم هذه المنظومات و إعادة بنائها بناء على الحقائق المكتشفة.

المحوَر الثالث في مساهمة ما بعد الحداثة هو ما يسمى بمفهوم النص ودور اللغة في تصوير ما نعتقد أنه حقيقة، ونقل المعرفة، والخطاب. ترجم بعض أساتذة العلاقات الدولية هذا المدخل أو المنهج "بالتناص" [١١٤]. ولكن الحقيقة أن الترجمة لا تعكس المقصود في منهج ما بعد الحداثة، وإن كان بعض الأساتذة قد وفق في شرح المضمون، و لو بشكل مختصر. إن دور اللغة في تحليل النص جاء مع أغلب المداخل النقدية في العلوم الاجتماعية بشكل عام و العلاقات الدولية بشكل خاص مع نهاية الثمانينيات من القرن العشرين. إذ أشار كل من مايكل شابيرو و جيمس دير دريان Michael Shapiro, James Der Derian, Intertextual Relations, Lexington, 1999 في كتابهما المحرر الذي احتوى مجموعة من الفصول لكبار أتباع مابعد الحداثة، أن اللغة هي الطريقة للتواصل والخطاب ونقل المعلومة والمعرفة، فمن خلال اللغة تولد المعرفة أو "الحقائق" أو على الأقل ما نعتبره حقيقة[١١٥]. فاللغة لا تعكس "الحقيقة" على أرض الواقع؛ بل تساهم بتشكيل الحقيقة كما يتصورها البشر. ولذلك يعد أتباع مابعد الحداثة افتراض النظريات الوضعية بوجود "حقيقة" مستقلة عنا و موضوعية وتشبه القوانين أكبر خطأ أدى إلى تحييد و تغريب القوى الاجتماعية، و منها اللغة في دراسة العلاقات الدولية، ولذلك لم يتم بناء أسس حقيقية لهذا العلم. فقد نتج عن هيمنة القوة والمعرفة التي أنتجتها هذه القوة عبر الزمن تصور وتراكم في دراسة العلاقات الدولية غير صحيح و غير حقيقي؛ لأنه أغفل القوى الحقيقية، وهي مايتعلق بالإنسان، و رؤيته، و مشاعره، و إلى تهميش شرائح من المستضعفين وإغفال الكثير من العوامل التي تؤثر في صنع "الحقيقة" مثل الهوية و الثقافة التي تساهم في تكوين الوعي لدى الفرد. ونحن نلاحظ الاهتمام المتزايد في مسألة الهوية خلال العقود الثلاثة الأخيرة. إذ أصبحت الهوية محدداً لسلوك الفاعلين و هذا ما أشار اليه أتباع البنائية (راجع الفصل السادس). والحقيقة أن هناك نوعاً من التقاطع بين البنائية و بعض المفاهيم لما بعد الحداثة؛ وخاصة في مسألة التركيز على الهوية و القوى الاجتماعية وأثرها في العلاقات الدولية.

---

[١١٤] عبدالناصر جندلي، أثر الحرب الباردة على الاتجاهات الكبرى و النظام الدولي، مدبولي، القاهرة، ٢٠١١، ص٦١٩

[١١٥] Michael Shapiro, James Der Deian, ed, Intertextual Relations, Lexington, Kentucky, 1999

وباختصار لقد جاءت مساهمة مابعد الحداثة في دراسة العلاقات الدولية بترجيهها مجموعة من الانتقادات للأسس، والافتراضات المنهجية، و الإبستمولوجية للنظريات الوضعية؛ وخاصة النظريةالواقعية. و قدمت مفاهيم ساهمت بتسليط الضوء على قوى مُغيّبة و مُهمّشة من قبل الوضعيين. و بتركيزها على العلاقة بين القوة و المعرفة و اتّباع منهج "التنبيش" جنيولوجي لكشف تاريخ منظومات معرفية تعد حقيقة، وهي ليست سوى نتاج هيمنة قوة معينة في فترة معينة، و تعكس مصلحة معينة، تكون ما بعد الحداثة قد قدّمت لبنة جديدة في بناء كبير هو علم العلاقات الدولية. وعلى الرغم من هذا لا يدّعي أتباع مابعد الحداثة بأنها نظرية بحد ذاتها؛ وإنما تبقى مساهمتها بالنقد الكبير للتيارات الوضعية هي الأبرز.

النظرية النسوية
Feminism

مقدمة:

على الرغم من تعدد الاتجاهات الفكرية داخلها، إلا أن النظرية النسوية تشكل إلى حد ما رؤية أو تصوراً متكاملاً لدراسة العلاقات الدولية. فهي مقاربة أو مدخل يطرح أسئلة عديدة تغيب "أو مُغيّبة" عن دراسة العلاقات الدولية. فالمدخل النسوي أو الأنثوي يضع المرأة بتجربتها وحياتها، وأفكارها و عملها وإنتاجها والأفكار التي تدور حولها، و محاولات الهيمنة عليها، ومسألة القوة والرجولة محور دراسة و اهتمام لأتباع هذا التيار. في هذا الإطار تشكل دراسة القوة بمستوياتها العديدة ومجالاتها المتنوعة نقطة البداية لأتباع النظرية النسوية. فالقوة في إطار (البيت ،المؤسسة ،المدرسة ،المجتمع ،الدولة) هي نتاج رؤية أحادية الجانب كرّستها الممارسات التاريخية وهيمنة الرجل في هذه المجالات؛ فبالإضافة إلى تسليط الضوء على آلية الهيمنة ضد المرأة المتمثلة بالقوة بجانبها المادي يشير أتباع النظرية النسوية إلى القوى الاجتماعية التي ساهمت في مثل هذه الهيمنة. مفهوم الجندر (الجنوسة) بالنسبة للنسويين لا يشير إلى الفروق البيولوجية بين الجنسين (ذكر وأنثى) إنما يشير إلى المعنى والنظرة التي كوّنها المجتمع عن المرأة والرجل وعن دور كل منهما والتصور الاجتماعي للذكورة والأنوثة [116]. فالنسوية ليست فقط حول المرأة على الرغم من اهتمامها الكبير بقضاياها الجوهرية مثل المساواة، وحقوق الإنسان ودورها المغيب في المستويات العديدة من الأسرة إلى النظام الدولي. ولكن الحقيقة المدخل النسوي كما يصر أتباعه بأن مجاله المرأة والرجل . وكما تم التنويه سابقاً النظرية النسوية ليست وحدة واحدة؛ وإنما اتجاهات ومقاربات عديدة تنطلق من افتراضات متباينة، ولكن ما يجمعها هو موضوع الدراسة وهو "الجندر" أو الجنوسة ودور المرأة في المجتمع والعلاقات الدولية. ولهذا التعدد في الرؤى مرجعيات مختلفة، فنجد أربعة (اتجاهات أو مقاربات) تحت عنوان النظرية النسوية، أهمها: التيار النقدي ، وتيار الموقف ،وتيار ما بعد البنيوية والتيار الليبرالي [117].

يأخذ التيار النقدي بعض الافتراضات والمفاهيم التي طورها الماركسيون حول المرأة لتكون نقطة البداية لدراستهم؛ بالإضافة إلى ذلك يشدد أتباع النظرية النسوية على أهمية الأفكار السائدة حول الجنوسة. بحيث تصبح هذه النظرة الاجتماعية مقبولة في المجتمع، وتصبح مرجعاً ومصدراً لعدم المساواة بين الرجل والمرأة. فالنظرة أو التصور الذي طوره المجتمع حول الجنوسة تستخدم كمسوغ للتمييز ضد المرأة، ويصبح هذا التمييز مؤسساتياً أي جزءاً من المنظومة المعرفية والقيمية السائدة في المجتمع. وبذلك تكون عملية تكوين القيم والرؤية حول المرأة وآلية بنائها في المجتمع نقطة البداية والمحور الأساسي الذي يركز عليه أتباع النظرية النسوية، حيث يصبح الهدف هو تحطيم الرؤية السابقة والمساهمة في بناء رؤية جديدة تقود إلى تحرير المرأة، وإعطائها حقها، ووضعها الطبيعي في المجتمع [118].

بينما يتفق أتباع التيار الثاني من النظرية النسوية، وهو ما يدعى " بالموقف "أو وجهة النظر النسوية Feminist Standpoint مع أتباع التيار النقدي حول أهمية القيم والمعرفة والرؤية حول الجندر أو الجنوسة كعملية اجتماعية تغرّب المرأة عن واقعها، وتهمش مشاركتها في الحياة الاجتماعية والسياسية، وتجعل المرأة تسعى للتشبّه بالرجل، يرى أتباع الموقف بأن الصفات

---

[116] Martin Griffith, International Relations Theory for the 21st Century: An Introduction to Theory, Routledge, London, 2007, P. 99

[117] Jill Steans and Lloyd Pittiford, Introduction to International Relations Theory, Longman, London 2010, P. 155

[118] Jill, Ibid,p.162

الأساسية للأنوثة يجب أن تُعزّز، وتحترم، وتقدر. فالتربية والولادة والعمل الخاص في البيت كل ذلك دور يجب أن يكون له قيمته في المجتمع، وليس النظر إليه أنه مرتبة ثانية لعمل الرجل.
وفي هذا الإطار يقدم هذا التيار مساهمة إبستمولوجية حيث يفترض أن المعرفة الاجتماعية يمكن الحصول عليها من خلال خبرة المرأة وتجربتها اليومية، وبذلك تنتقل المرأة من هامش موضوع المعرفة إلى جوهره .

التيار الثالث في النظرية النسوية "ما بعد الحداثة " كسابقيه يضع المرأة وحقوقها في مركز اهتمامه ويضيف هذا التيار مدخلاً إضافياً ليكوّن نظرة مختلفة حول الجندر أو الجنوسة، فيركز أتباع هذا التيار على اللغة، والرموز، والقصص، والثقافة كونها الأداة لتكوين هذه النظرة حول المرأة ودورها في المجتمع. ومن أبرز رواد هذا التيار جين بثك الشتاين Jean Bethke Elshtain .

فالنقطة الأولى للدراسة لأتباع ما بعد الحداثة النسوية هي القوى الاجتماعية، وكيف تساهم هذه العوامل في تشكيل الخطاب حول الجندر والجنوسة بشكل خاص، والمرأة بشكل عام. وبذلك يكون هذا التيار أقرب إلى تيار نظرية ما بعد الحداثة حيث يتم التركيز على العلاقة بين المعرفة والقوة ودور اللغة في توليد المعرفة، ونقلها كما أشار دريدا. فبالنسبة لأتباع ما بعد البنيوية المفاهيم المتداولة حول المرأة والجنوسة يجب إعادة النظر بجذورها والعودة إلى الزمان والمكان اللذين نشأت فيها هذه المفاهيم، لفهم واقع المرأة الآن الذي نأخذه كما هو بدون مناقشة أو تشكيك بحقيقته. ولتحرير المرأة يجب إعادة النظر بكل التفاعلات والمنظومات المعرفية خلال الفترات الزمنية الماضية حتى الوصول إلى الوقت الحاضر فقط بذلك نستطيع أن نفهم لماذا هذه النظرة حول الجنوسة تسود في المجتمع الآن.

وأخيراً التيار الرابع من النظرية النسوية هو التيار الليبرالي الذي يعد التيار الرئيس في هذه النظرية إذ يشير أتباع هذا التيار إلى أن المرأة والرجل متساويان، ولديهما نفس القدرات العقلية والعطاء الفكري من أجل تقدم المجتمع. فكلاهما يتصرف بشكل عقلاني. وهذا يعني أن المرأة يجب أن تشارك في الحياة السياسية والاقتصادية في المجتمع. فالمشاركة والمساواة هي المحور الأساسي لأتباع التيار الليبرالي إذ يدعو هذا التيار للمساواة بين الجنسين ويعتقد هؤلاء المفكرون أن الجنوسة وتغريب المرأة من حقوقها إنما هو نوع من أنواع التمييز ضدها الذي يجب أن يعمل المجتمع على إزالته؛ وذلك من خلال تغيير الثقافة السياسية والاجتماعية لدى أفراد المجتمع[١١٩].

فمن الواضح أن التيار الليبرالي في النظرية النسوية يهدف إلى تحسين وضع المرأة من خلال زيادة مشاركتها في الحياة العامة ومساعدتها للحصول على عمل في مراكز صنع القرار . ويعمل الليبراليون من خلال شبكة تعددية في المجتمع على رفع سوية المرأة، وفتح جميع المجالات أمامها في الحياة السياسية والاقتصادية في الدول والعالم؛ لذلك نجد أتباع هذا التيار يطرحون أسئلة مثل: ما هي أوضاع المرأة حول العالم؟ ما هي أهم الاستراتيجيات للقضاء على التمييز ضد المرأة وتحريرها؟ كيف يمكن منح المرأة القدرة على التحكم بمقدراتها ومستقبلها دون هيمنة من الرجال أو مؤسسة اجتماعية أو سياسية أخرى[١٢٠].

الحقيقة أن الأسئلة التي يطرحها التيار الليبرالي من النظرية النسوية تكاد تشكل الجزء الأكبر من أدبيات هذه النظرية في العلاقات الدولية؛ إذ يطرح الليبراليون مسألة مهمة جداً، وهي أن العلاقات الدولية "عالم الرجل" ،فالدولة في أغلب الأحيان ممثلة برجال من سياسيين وعسكريين واقتصاديين وقادة في الميادين الأخرى حتى الثقافية والرياضية منها. فالمرأة عبر التاريخ كانت ومازالت مغيبة من أغلب المناصب أو المهام والخاصة ما يسمى منها السياسات العليا مثل الأمن والخطط الاستراتيجية والعمل في الوزارات الخارجية. فمن وجهة نظر هؤلاء الليبراليين نصيب المرأة في هذه الوزارات قليل جداً أو معدوم، ولا يمثل النسبة الحقيقية لحضور المرأة في المجتمع. وكما رأينا في الفصل الثالث من هذا الكتاب أن النظرية الليبرالية كنظرية في العلاقات

---

[119] Ibid 158
[120] Ibid 165

الدولية تنطلق من فرضية أن الدولة ليست وحدة متكاملة تتصرف بشكل عقلاني كما يراها الواقعيون؛ بل هي مجموعة من المؤسسات والمراكز المتصارعة فيما بينها للتأثير في القرار ولحماية مصالحها. وفي هذا الإطار يرى الليبراليون أن المرأة لو أعطيت الفرصة لأثبتت أنها قادرة على القيام بالمهام كما يقوم بها الرجال أو أفضل. وهذا ما أثبتته التجارب حيث برزت نساء في مواقع عديدة من القيادة والمهام ونجحت بهذه المهام بكل جدارة؛ ولذلك يدعو أتباع هذا التيار إلى إيجاد تشريعات وقوانين تساعد المرأة وتسهل مشاركتها السياسية في المجتمع بما يعود بالفائدة على المصلحة العامة. قد يعتقد البعض أن قضايا المرأة يجب أن تكون من اختصاص السياسة المحلية والقوانين الداخلية، وليس العلاقات الدولية. ولكن أتباع النظرية النسوية يردون على ذلك بأن قضايا المرأة لا تقف عند الحدود الداخلية للدولة أو المجتمع؛ بل تتعدى ذلك إلى العالم جميعاً. فالمرأة نصف المجتمع وتغييبها يحيد ويجمد نصف المجتمع؛ بالإضافة إلى ما سبق تجدر الإشارة إلى الحقيقة التالية: أن المرأة كانت على مر العصور ضحية الحروب، والسياسات الدولية، والهجرات غير الشرعية، والقتل والتنكيل في الحروب الأهلية، فالأولى أن تصبح قضية المرأة على رأس اهتمام دارسي العلاقات الدولية؛ بالإضافة إلى التيارات الأربعة السابقة يضيف بعض أستاذة العلاقات الدولية تياراً آخر يدعى التيار التجريبي أو "النسوية التجريبية" التي ترى بإمكانية استخدام الطرق التجريبية؛ أي الوضعية في دراسة العلاقات الدولية وقضايا المرأة. ويركز أتباع هذا التيار على أن ليس المشكلة بالطرق الوضعية، وإنما بانحياز الدراسات الوضعية لصالح الرجل، وهذا ما يجعل الوصول إلى المعرفة الحقيقية صعباً[121].

بعد هذا العرض السريع للتيارات النسوية المتعددة، نلاحظ أنه على الرغم من تعدد هذه التيارات واختلافها إلا أنها تشترك بنقطة مهمة هي نقدها للنظريات في العلاقات الدولية لتركيزها المبالغ على عالم ذكوري لا يعكس الحقيقة في العلاقات الدولية. وقد بدا ذلك واضحاً في كتابات العديد من أتباع النظرية النسوية. فعلى سبيل المثال شكلت انتقادات آن تيكنر Ann Tickner و كرستين سلفستر Christine Sylvester للنظريات الوضعية بشكل عام والواقعية بشكل خاص أحد أهم المساهمات للنظرية النسوية في العلاقات الدولية. إذ حاولت تيكنر صياغة مبادئ الواقعية، ولكن من منظور التيار النسوي وجاءت صياغتها على الشكل الآتي:

١- الموضوعية مرتبطة بالذكورية؛ وبالتالي فإن القوانين الموضوعية هي بالضرورة جزئية.

٢- المصلحة الوطنية هي مفهوم متعدد الابعاد؛ وبالتالي لايمكن تعريفها فقط بمفهوم القوة.

٣- تعريف القوة بالهيمنة والتحكم، هو تعريف محدود و ذكوري.

٤- إنه من الاستحالة بمكان و من غير المستحسن فصل الأخلاق عن الممارسات، والأفعال السياسية.

٥- الهدف هو التركيز على القواسم المشتركة للطموحات الإنسانية المتعلقة بتخفيف حدة الصراع وتعزيز الروح الجماعية.

٦- المجال العام ليس مستقلاً، مدعياً بأنه من الضرورة بمكان إبعاد اهتمامات وإسهامات النساء[122].

---

121 عبدالناصر جندلي، أثر الحرب الباردة على الاتجاهات الكبرى والنظام الدولي، مدبولي، القاهرة، ٢٠١١، ص ٦٢٥

122 مرجع سابق ص ٦٢٨

وقد لقيت أفكار تيكنر قبولاً بين العديد من التيارات النسوية وأصبحت جزءاً من أدبيات النظرية.
أما سلفستر، فقد جاءت مساهمتها في التنويه إلى ضرورة دمج المعرفة الإبستمولوجية من وجهة نظر النسوية بالأفكار للنظرية الواقعيةالجديدة ونظرية النظم، لاعتقادها بأن هذه النظريات رغم بعض النواقص تكوّن مدخلاً مفيداً لدراسة العلاقات الدولية، وقد أشارت سلفستر إلى أن الجدل الحالي في العلاقات الدولية الذي يمثل طرفاه التيارات الوضعية و التيارات ما بعد الوضعية كان غنياً، وفيه الكثير من التراكم المعرفي.
في حين يشير البعض إلى بنية المجتمع وتركيبته الأبوية كمصدر من مصادر تهميش المرأة حيث يسيطر الرجل بعضلاته على قرارات البيت، والعمل، والسياسة، والاقتصاد؛ ولذلك تجد أن هذه الر ؤية الأبوية تسود كل مستويات المجتمع بحيث تصبح المرأة هي موضوعاً ثانوياً عليها أن تتبع السيد الأمر الناهي في البيت، والمدرسة، والمؤسسة، والدولة.
بينما يركز بعض المفكرين على بنية المجتمع وثقافة التبعية التي يفرضها المجتمع على المرأة في المجتمع الأبوي نتيجة تبعيتها الاقتصادية، يرى بعض الراديكاليين أن النظام الرأسمالي بفصله بين العام والخاص قد خلق نوعاً من تقسيم العمل فأصبح الرجل يعمل في العام والمرأة في الخاص أي في داخل البيت وتكرست رؤية دور المرأة التي تجلس في البيت تخدم الرجل وتقوم بدورها في تربية الأطفال وهذا الدور يعد تابعاً لدور الرجل.
كإحدى النظريات النقدية تعد النظرية النسوية من نظريات ما بعد الوضعية أي التي تركز على دور الثقافة والهوية والقيم والمشاعر في دراسة العلاقات الدولية، ولذلك كانت هذه النظرية تنطلق من دور الفرد والقيم والقواعد التي تحكم سلوكه كمدخل لدراسة دور المرأة في العلاقات الدولية. وقد دخلت النظرية النسوية العلاقات الدولية كالنظريات النقدية الأخرى في نهاية الثمانينيات في القرن العشرين وسرعان ما احتلت مكانة بارزة في الأدبيات في هذا الحقل من العلوم، وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من مستقبل دراسة العلاقات الدولية.
وفي الختام يمكننا أن نلخص الافتراضات الأساسية للنظرية النسوية بالآتي :

١- تعد الجنوسة نقطة أساسية في تحليل النظرية النسوية للعلاقلات الدولية.

٢- تعكس الجنوسة نوعاً من علاقات القوة في المجتمع.

٣- يشير أتباع النظرية النسوية إلى التمييز بين الخاص والعام، وتقسيم العمل الذي جعل المرأة تابعاً للرجل.

٤- إن فكرة الجنوسة ووظيفتها في العلاقات الدولية لابدّ من إعادة دراسة تاريخها عبر الزمن.

نقاط هامة حول النظرية النسوية

يلخص جل استينس، ولويد بتفورد أهم النقاط حول النظرية النسوية بالآتي[١٢٣]:

١- النظرية النسوية رؤية واسعة ومدرسة متعددة الاتجاهات يوجد بينها العديدة من نقاط الاختلاف و الالتقاء.

٢- النظرية أو التصور النسوي لا يركز فقط على حياة المرأة، وإنما أيضا على الرؤية الاجتماعية والثقافية التي أوجدت ما يسمى الجندر (دور المرأة في المجتمع).

---

[123] Jill Steans nd Llyoyd Pittiford, Ibid p.

٣- بعض التيارات النسوية يسلط الضوء على التفرقة والتمييز ضد المرأة، ولكنها لا تعدها ضحية. كذلك تبحث التيارات النسوية عن الطرق التي من خلالها يتم تقوية دور المرأة وتحسينه.

٤- التيارات النسوية المعاصرة لا تركز على المرأة أو الرجل كوحدة أو تصنف أو تميز بين نوعين مختلفين؛ بل تنظر إلى مفهوم الجندر الذي يعكسه موقع الرجل والمرأة، ودورهما في المجتمع، وما ينتج عنه من أنواع التسلط والقصر ضد المرأة.

٥- دخلت النظرية النسوية دراسة العلاقات الدولية كجزء من الجدل الثالث بين الوضعية وما بعد الوضعية في منتصف الثمانينيات في القرن العشرين.

٦- يشير أتباع النظرية النسوية بتياراتها المتعددة إلى مسألة مهمة في دراسة العلاقات الدولية؛ وخاصة ما يدّعيه أتباع التيارات الأخرى من أنه مهم أو غير مهم أساسي أو غير أساسي بناء على افتراضات مسبقة تعكس علاقات القوة.

٧- يركز أتباع النظريات النسوية على أن ما هو محلي له علاقة بالخارجي والدولي؛ أي أن القضايا المحلية في بلد معين من استغلال وتمييز ضد شريحة في المجتمع لا ينفصل عن القضايا الخارجية.

الانتقادات الموجهة للنظرية النسوية

١- الانتقاد الأول الموجه للنظرية النسوية هو تركيزها على المرأة بشكل خاص، وإن كانت بعض المساهمات تخرج عن التقليد؛ لتطرح مسألة أعم، وأشمل، وخاصة في السنوات الأخيرة.

٢- إن النظرية النسوية لم تنجح بوضع إطار نظري أو نظرية متكاملة على غرار الواقعية، والليبرالية.

٣- على الرغم من المساهمات التي قدمتها التيارات النسوية، إلا أنه يؤخذ على هذه التيارات أنها لم تفرق بين المرأة الموجودة في مواقع الطبقات الغنية والمرأة الموجودة في طبقات فقيرة في المجتمعات المعنية.

٤- الانتقاد الرابع هو أن النظرية النسوية تتحدث عن تصنيف الجندر والجنس وكأنه عام أي يشمل جميع أصقاع العالم ولا اختلاف بين المرأة في أمريكا اللاتينية أو الغرب أو الشرق الأوسط.

على الرغم من الانتقادات لهذه النظرية إلا أن مساهمتها في الجدل الراهن في دراسة العلاقات الدولية يشكل إضافة تسهم في فهم العديد من النقاط، والعوامل التي أغفلتها النظريات الوضية.

البنائية في العلاقات الدولية
Constructivism

مقدمة

يشير أحد أهم روادها إلى إن البنائية طريقة لدراسة العلاقات الاجتماعية[١٢٤]. وبينما تتقاطع مع بعض النظريات و المداخل الأخرى إلا أنها تكوّن نظاماً أو مدخلاً مستقلاً يتألف من مجموعة من المفاهيم و الافتراضات التي تساعد الباحث على دراسة العلاقات بين مجموعة الفاعلين في نظام أو بناء معين. لكنها لا تكوّن نظرية بعينها بالمفهوم الوضعي في النظرية، أي أنها لا تقدم تفسيرات عامة لسلوك الأفراد أو لماذا يختلف مجتمع عن مجتمع آخر. ولا تقدم شرحاً أو تنبؤاً للتغيير في العالم أو النظام الدولي. ما تقدمه البنائية هو أن تجعل من الممكن أن يقوم الباحث بوضع أسس نظرية تتعلق بأشياء أو ظواهر تبدو مختلفة و منفصلة ولا علاقة بينها؛ لأن المفاهيم المستخدمة حول هذه الظواهر عادة منفصلة و بعيدة وغير متكاملة. وتعد البنائية حديثة في العلوم الاجتماعية بشكل عام والعلاقات الدولية بشكل خاص. إذ دخلت البنائية العلاقات الدولية مع نهاية الثمانينيات من القرن الماضي، و سرعان ما أخذت حيزاً كبيراً في أدبيات هذا العلم لتكون المنافس القوي للنظريات التقليدية (الوضعية) مثل: الواقعية، و الليبرالية. يهدف هذا البحث لدراسة مساهمة البنائية كمدخل لدراسة العلاقات الدولية.

الافتراضات الأساسية للبنائية

يشير بول فيوتي ومارك كوبي إلى أن هناك أربعة افتراضات تنطلق منها البنائية في العلاقات الدولية[١٢٥] :

١- تتخذ البنائية موقفاً مغايراً لموقف النظريات الوضعية من مفاهيم أساسية في العلاقات الدولية مثل (المصلحة الوطنية ، الهوية، الأمن القومي)، إذ يرفض البنائيون قبول هذه المفاهيم كما هي معطاة. كما يهتم البنائيون بالقوى الفاعلة غير الدولة، مثل: المنظمات الدولية و المنظمات غير الحكومية؛ بالإضافة إلى ذلك يركز أتباع البنائية على العوامل المعرفية و الذاتية التي تنتج عن تفاعل هذه الوحدات في علاقاتها البينية.

٢- يرى البنائيون بنية النظام الدولي على أنها بنية اجتماعية تتضمن مجموعة من القيم، والقواعد، و القوانين. هذه البنية تؤثر على الهوية و المصلحة للفاعلين.

٣- البنائية كما يستدل من اسمها، تنظر إلى النظام الدولي بأنه عملية دائمة مستمرة من البناء الحاصل من التفاعل بين الفاعلين والبناء نفسه. فبالنسبة للبنائيين العالم دائماً هو قضية متجددة ليس شيئاً تم، و انتهى وعلينا قبوله كما هو. وهذا بالطبع موقف مختلف عن موقف الواقعيين والليبراليين وحتى الراديكاليين بنظرتهم للبناء.

٤- لقد قدم أتباع النظرية البنائية مساهمات جادة في الحوار، والجدل الإبستمولوجي والأنطولوجي في العلاقات الدولية. إذ يرفض البنائيون الافتراضات الوضعية بوجود قوانين وشبه قوانين تحكم الظاهرة الاجتماعية والسياسية بعيدة عن ارادة الفاعل وقدرته على التأثير في محيطه. كما ترفض البنائية افتراضات الوضعية بإمكانية الموضوعية، أي فصل الذات عن الموضوع.

---

[124] Nicholas Onuf, Vendulka Kubalk0uva, Paul Knowert, International Relations In a Constructed World, London, Sharp, 1998, 58

[125] Paul R. Viotti, International Relations Theory, 5th ed, London, Pearson, 2012, p.278

أهم رواد البنائية

ألكساندر وندت Alexander Wendt (١٩٥٨-)

ولد ألساندر وندت في ألمانيا، وتخرّج عام ١٩٨٢. يحمل إجازة في العلوم السياسية، ومن ثم حصل على الدكتوراة من جامعة منيسوتا في الولايات المتدة الأمريكية، حيث كان عنوان أطروحته "نظام الدول والعسكرة" (States System and Militarization). يُدرّس وندت في جامعة ييل في نيوهيفن(Yale University). ظهرت بوادر نظرية وندت حول العلاقات الدولية في مقالة نشرها عام ١٩٨٧ تحت عنوان "الفوضى كما تصنع منها الدول" (Anarchy What States Make of It). كان اهتمام وندت منذ بداية دراسته للعلاقات الدولية بالنظريات الاجتماعية. وقد تأثر بنظرية أنتوني غدنز البنائية. حيث يركز غدنز على عملية التفاعل بين الفرد والمجتمع، وعملية البناء المتبادلة بين الفاعل والبناء. جسّد وندت في هذه المقالة رؤيته في العلاقات الدولية حيث انتقد الواقعية الجديدة التي تتخذ من بنية النظام الدولي، وطبيعته منطلقاً لتفسيرها لسلوك الوحدات الفاعلة في النظام الدولي. إذ عَدّ وندت أن اعتبار طبيعة النظام الدولي فوضوية تقود دائماً إلى الصراع بين الدول ليس صحيحاً. فالدول كالأفراد في المجتمع تتفاعل بشكل مستمر، وتخلق بنية اجتماعية لهذه البنية المادية من النظام الدولي. فإذا كانت عملية التفاعل قد ساعدت من خلال مجموعة من القيم والقواعد على أن تضفي نوعاً من التعاون، والتفاهم ، وتحدّ من الشعور بعدم الأمان، وتزيد الثقة بين الدول. فالدول ستنظر إلى غياب السلطة المركزية بنظرة مختلفة عن الشعور بالخوف واللجوء إلى القوة. بمعنى آخر تصنع الدول من خلال علاقاتها معنى ومفهوم الأناركي (الفوضوية) في النظام الدولي. طوّر وندت مقالته إلى كتاب بعنوان (نظرية اجتماعية في السياسة الدولية) حيث يشير إلى أن الكثير من المفاهيم المستخدمة من قِبل النظريات في العلاقات الدولية تؤخذ كما هي، ولا يُنظر إلى عملية البناء التي تمّ من خلالها إعطاء هذا المفهوم هذا المعنى. فالمصلحة الوطنية أحد هذه المفاهيم التي توظفها الواقعية والليبرالية، وكأنها محددة مسبقاً؛ إما بالأمن أو التعاون، ولكن الحقيقة أن هذا المفهوم يكتسب معناه من عملية البناء الناتجة عن عملية التفاعل بين الفاعل و البناء (Agent and Structure)[126]. لقد ساهم وندت بشكل كبير بتطوير النظرية البنائية في العلاقات الدولية من خلال طرحه لمجموعة من المفاهيم، والأسئلة التي شكّلت مادة كبيرة لأتباع البنائية.

نيكولاس أونوف

ولد نيكولاس أونوف في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٤١، ودرس في جامعة جون هوبكنز حيث حصل على شهادة الدكتوراة عام ١٩٦٧. خلال دراسته في جون هوبكنز أصبح مهتماً بدراسة القانون الدولي، وذلك متأثراً بأساتذه روبرت تكر. وقد ازداد اهتمامه بالقانون الدولي خلال دراسته في ييل للحصول على الماجستير وهناك

---

[126] Alexander Wendt, Social Theory of International Politics, Cambridge University Press, New York, 1998, P.

أيضاً درس تحت توجيه مايرز مكدوغال أستاذ القانون الدولي في ييل، وتأثر بأفكاره بشكل كبير. وعندما عاد إلى جونز هوبكنز لدراسة الدكتوراة، وكتب أطروحته تحت عنوان تطور الوعي في القانون الدولي.

تعد كتابات أنوف من الكتابات الصعبة والفلسفية والعميقة؛ لأنها لم تشمل القانون الدولي فحسب، بل أيضاً السياسة والفلسفة وعلم الاجتماع. وفي هذا الإطار تأثر أنوف بنظرية أنتوني غدنز البنائية، وحاول توظيفها لفهم العلاقات بين الوحدات الفاعلة في النظام الدولي. فكتب كتاباً يعكس هذا العمق في التفكير تحت عنوان عالم بمن صنعنا الذي يعد من المراجع الهامة في أدبيات النظرية البنائية. في هذا الكتاب يشير أنوف إلى ضرورة إعادة النظر في دراسة العلاقات الدولية وحتى العلوم الاجتماعية الأخرى، ومنها: العلوم السياسية. أعيد طباعة كتابه عام ٢٠١٢ في لندن.

وفي أحد أهم المساهمات الفكرية قدم أنوف فصلاً في كتاب جديد تحت عنوان "العلاقات الدولية في عالم مبني" "International Relations in a Constructed World". عنوان الفصل هو "البنائية دليل المستخدم" "Constructivism User's Manual" يعد هذا الفصل من أفضل المداخل للنظرية البنائية.

أنتوني غدنز (١٩٣٨-)

يعد أنتوني غدنز من أهم رواد علم الاجتماع المعاصرين الذين ساهموا بشكل كبير خلال العقود الثلاثة الماضية بالثورة المنهجية في هذا العلم. إذ يعد كتابه علم الاجتماع (الطبعة الرابعة) الذي ترجم إلى أكثر من ثلاثين لغة، ومنها: العربية من أفضل مئة كتاب في علم الاجتماع كما أضيفت أربعة كتب أخرى من كتبه إلى تلك القائمة. عمل غدنز مستشاراً لرئيس الوزراء البريطاني توني بلير لفترة طويلة قبل أن يعود إلى مدرسة لندن للاقتصاد ليصبح رئيسها. منذ بداية حياته الأكاديمية أبدى غدنز عدم الرضى عن النظريات التقليدية في علم الاجتماع، ولكنه لم يتفق مع النظريات النقدية أيضاً. وقد أشار إلى أنه في ظل انقسام النظريات في علم الاجتماع بين التيار الوظيفي والتيار التأويلي كان من الصعب تطوير علم الاجتماع؛ لأن الأول يقوم على أسس الفصل بين الذات والموضوع أي الموضوعية Objective، أما الثاني فهو مبني على الأسس المعرفية المتعلقة بالفرد أي تأويلية Subjective. إن التيار الأول يركز على البناء بينما التيار الثاني يركز على الفرد. أما وجهة نظر غدنز أن الدراسات يجب أن تركز على عملية التفاعل بين الاثنين؛ لأن كلاً منهما يؤثر ويتأثر بالآخر. ولذلك يقول: إن مجال دراسة العلوم الاجتماعية ليس خبرة الفرد ولا بناء وجودي اجتماعي بل الممارسات المنتظمة والتفاعل المستمر عبر الزمان والمكان بين الفاعل والبناء. أراد غدنز لنظريته أن تكون تركيبية تضم الاتجاهين. لذلك سميت بالبنائية. وهذا ما أخذه أتباع البنائية في العلاقات الدولية لبناء نظريتهم التي أصبحت من أهم النظريات في الجدل الراهن[١٢٧].

[127] Anthony Giddens, Structuration Theory, London, 1984, p. 22

إنّ نقطة الانطلاق للبنائية هي افتراضها الأساسي بأن الإنسان كائن اجتماعي. بمعنى أنه لا يمكن لنا أن نكون أناساً بدون علاقاتنا الاجتماعية. أي أن العلاقات الاجتماعية هي التي كوّنت الناس على ماهم عليه الآن. وبالمقابل نحن نُكوّن العالم من حولنا بما نفعل بما تمنحه الطبيعة من موارد وبما نقول لبعضنا بعضاً. وفعلاً القول بعض الأحيان كالفعل. فما نقوله لبعضنا البعض يصبح جزءاً مهما من تركيبة العالم من حولنا.

بهذا الاتجاه كتب نيكولاس أنوف كتابه عالم من صنعنا Nicholas Onuf, World of our Making الذي يعد من البدايات الأولى للبنائية في العلاقات الدولية. فالدول، والمجتمعات والعالم ، بالنسبة لأنوف ما هي إلا من صنع الناس من خلال تفاعلاتهم البينية و مع البناء. فجوهر البنائية هو أن الناس يصنعون المجتمع والمجتمع يصنع الناس. هذا الطريق ذو الاتجاهين أو هذه العملية المتبادلة بين المجتمع و الناس هي محور اهتمام البنائية.

يرى أتباع البنائية أنه من أجل دراسة هذه العملية أي التأثير المتبادل بين الفرد والمجتمع لابد من أن نبدأ في الوسط أي على آلية التأثير بين الجهتين. ولذلك يقدم البنائيون مفهوم القاعدة بمعنى الضابط Rule و التي بنظرهم تربط وتصل بين الفرد و المجتمع.

فالقاعدة بالنسبة لأتباع البنائية هي العبارة التي تعلمنا ماذا نفعل What should we do و هنا كلمة ماذا What تشكل المعيار أو المقياس أو النموذج الذي يجب أن يفعله الناس في ظروف متشابهة[١٢٨]. أما كلمة يجب Should تخبرنا بضرورة الالتزام بالقاعدة وإلا سنتحمل النتائج وقاعدة أخرى تطبق علينا مخصصة لمثل هذا الوضع من عدم الالتزام بالقاعدة الأولى.

وجميع الطرق التي يتخذها الناس سواء بإتباع القواعد أو بمخالفتها، بالحفاظ عليها أو بتغييرها تسمى الممارسات. ويسمى القائمون بالفعل على هذه الممارسات بأنهم فاعلون Agents أي وحدات داخل المجتمع والمجتمع هو البناء Structure. وفي العلاقات الدولية الفاعل هو الدولة والبناء هو النظام الدولي. ويعتقد بعض البنائيين أن المنظمات الدولية، وبعض القوى الفاعلة غير الدولة يمكن أن تكون (فاعلا أيضاً كالدولة) وجزءاً من عملية التفاعل في العلاقات الدولية. ولكن لا يمكن لأي فاعل أن يكون فاعلاً في جميع الأوضاع، وجميع الحالات؛ وإنما في بعض الحالات التي من خلالها يتم التفاعل بين هذا الفاعل والبناء في مسار سلوك هذا الفاعل. نستنتج مما سبق أن البنائية تحاول أن تسلط الضوء على ما أسماه أنتوني غدنز Anthony Giddens بالثنائية Duality أي العلاقة المتبادلة بين الطرفين فلا سلوك الفاعل Agent يأخذ الأولوية ولا البناء Structure يطغى على الفاعل، وإنما عملية التبادل والتفاعل the Process of Interaction بين الاثنين هي المهمة لفهم ودراسة المجتمع. بذلك يكون غدنز قد وقف موقف الوسط بين التقليد الذي أسسه ماكس فيبر Max Weber والذي يتخذ من فعل الوحدة (Action Theory) أو الفرد نقطة انطلاقه في دراسة المجتمع والتي سميت بنظرية الفعل. وفي الطرف الآخر التقليد الذي يعود إلى أعمال إيميل دوركهايم Emil Durkheim والذي يركز على المجتمع بكونه نظاماً مستقلاً بذاته يصبح تأثيره كبيراً ومباشراً في الأفراد.

في عام ١٩٨٤ ظهرت كتابات غدنز التي أشار من خلالها إلى ما أسماه النظرية البنائية أو عملية البناء Structuration Theory التي من خلالها يؤثر الفرد في بناء المجتمع والبناء يؤثر في سلوك الفرد والآلية التي تربط الطرفين هي القواعد، والأعراف، والرموز، والمؤسسات التي يبنيها الأفراد. هذا يعني أن البنائيين يرون أن البناء هو بناء اجتماعي ناتج عن ممارسات الفاعلين التي بدورها تتأثر بهذا البناء. ويشير أحد رواد هذه النظرية فريدرك كروتشويل إلى أن القيم والقواعدلا تؤسس لنا معياراً للتصرف، ولكنها تساعدنا أيضاً كفاعلين في تحديد مسعانا وأهدافنا من خلال هذه القواعد والقيم، وتؤسس معاني لهذه القيم لتصبح أساساً يوجه الفاعلين، ويحدد سلوكهم تجاه بعضهم البعض. بينما يحاول إمانويل آدلر التركيز على دور الهوية والقيم في تحديد وتشكيل المصلحة الوطنية؛ وبذلك ينطلق آدلر من رؤية أوسع حيث يعرف البنائية بأنها نظرية

---

[128] Ibid p. 59

اجتماعية تبحث في دور المعرفة والفاعل العارف في تحديد الواقع الاجتماعي وتشكيله. والهدف هنا هو فهم دور العلاقة بين مجموعة التفاعلات الفردية من قبل الفاعل والبناء الاجتماعي أو البيئة الاجتماعية. ويتضح مما سبق أن آدلر يشارك أغلب البنائيين على أن العالم من حولنا ليس شيئاً معطى بعيداً عن تأثير الفاعلين أو نتاجاً قد تم، وله آثاره الحتمية على سلوك الفاعل بل هو يرى أن هذا العالم عبارة عن عملية مستمرة من البناء الدائم ناتجة عن التفاعل بين البناء والفاعل؛ بالإضافة إلى الاتجاه المذكور يضيف جان جرارد رجي اتجاهين آخرين من البنائية في العلاقات الدولية. الاتجاه الأول يطلق عليه اسم البنائيين أتباع ما بعد الحداثة، وتشمل كلاً من ديفيد كامبول، وجيمس ديردريان، وروبرت ووالكر وبعض أتباع النظرية النسوية، مثل: سبايك بيترسون. أما الاتجاه الثاني، وهو الأهم في هذا الفصل، وهو الاتجاه الطبيعي يمثله الكساندر ويندت وديفيد دسلر. وقد برز هذا التيار خلال السنوات العشر الماضية كأحد أهم المداخل النظرية في دراسة العلاقات الدولية.

البنائية "الطبيعية" في فكر ألكساندر ويندت

لقد كانت مقالة ويندت (أناركي – كما تصنع منها أو تفهمها الدول) Alexander Wendt, Anarchy What States make of It من أهم المساهمات في هذا الاتجاه والتي من خلالها أشار ويندت إلى أن الفوضى (غياب السلطة المركزية عن النظام الدولي) أو حالة الاعتماد على الذات في الأمن هي عبارة عن رؤية ناتجة عن عملية تفاعل اجتماعي أنتجتها الممارسات التي قام بها الفاعلون في النظام الدولي والتي أثرت وتأثرت بالوقت نفسه في بنية هذا النظام. بمعنى آخر أن رؤية الدول لطبيعة النظام الدولي والنتائج المترتبة على هذه الطبيعة هي نتاج عمليات وعلاقات اجتماعية بين الوحدات الفاعلة، وهي الدول وتفاعلها مع بنية النظام الدولي.

إن نظرية ألكساندر ويندت بكاملها وضعها في كتابه (نظرية اجتماعية في السياسة الدولية) Social Theory of International Politics .وقبل أن نستعرض هذه النظرية نود أن نشير إلى نقطة هامة في دراسة العلاقات الدولية. وهي أننا عندما نقرأ عنوان كتاب ويندت المذكور لابد لنا من أن نتذكر كتاب كينث وولتز (نظرية السياسة الدولية) Kenneth Waltz Theory of International Politics وهذا يدعونا إلى المقارنة بين النظريتين، وإننا نعتقد أن هذه المقارنة ضرورية؛ لأنها تلخص أهم النقاط التي يركز عليها كل من التيارات الوضعية، والبنائية الاجتماعية.

يمثل كتاب ولتز التيار الوضعي في دراسة العلاقات الدولية بما فيه من افتراضات إبستمولوجية ومنهجية مستقاة من العلوم الطبيعية. فقد جاء كتاب ولتز في النصف الثاني من العقد السابع من القرن العشرين في ذروة ما عُرف بالجدل الثالث في العلاقات الدولية، و هو جدل بين الواقعية الجديدة و الليبرالية الجديدة. ومن الجدير بالذكر أن طرفي هذا الجدل هما من التيارات الوضعية التي تعتقد بإمكانية دراسة الظاهرة السياسية دراسة علمية تعتمد على الملاحظة والتجريب وبإمكانية فصل الذات عن الموضوع Objective or Value free

بينما كتاب ألكساندر وندت وإن جاء للرد على الواقعية الجديدة، والمتمثلة بكتاب ولتز نظرية السياسة الدولية، ولذلك وضع وندت عنوان كتابه نظرية اجتماعية في السياسة الدولية، ولم يضع عنوانه نظرية اجتماعية في العلاقات الدولية أو شيء آخر، إشارة منه إلى أن نظريته التي شرحها في كتابه هي مساوية لنظرية ولتز، ولكنها تضيف أشياء عديدة من بينها مسألة الهوية والعلاقة بين الفاعل و البناء، التي أصبحت تعرف في أدبيات العلاقات الدولية جدل "الفاعل – البناء"Agent –Structure Debate.

هنا يجب الإشارة إلى أن ألكساندر وندت كان قد استفاد من كتابات أنتوني غدنز في مجال البنائية في علم الاجتماع. ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن الوضع الذي ساد في الثمانينيات وحتى الآن في مجال دراسة العلاقات الدولية يتسم بتعدد الرؤى و المداخل التي أعطت وندت الفرصة ليطلع على أكثر من اتجاه في العلاقات الدولية.

عودة إلى مساهمة ألكساندر وندت في البنائية، لقد كان واضحاً منذ البداية لوندت أن التحدي الأساسي الذي يواجه الباحث بشكل خاص، والإنسان بشكل عام هو أن يجد فهماً صحيحاً للعالم من حولنا الذي نساهم في بنائه ونُعَدّ جزءاً منه، فنحن نفترض أن هناك عالماً مستقلاً عن إرادتنا كما يعتقد الوضعيون، ولكن يقول وندت أن هذه الرؤية محددة، وتتأثر بتفسيراتنا ورؤانا المتعددة التي جاءت نتيجة التفاعل بيننا كفاعلين وبين العالم من حولنا كبناء ومواقفنا الأنطلوجية و الإبستمولوجية حول هذا العالم. تبرز نقطتان هامتان في مساهمة وندت حسب رأي بول فيوتي و مارك كوبي، الأولى تتمثل في رؤية وندت بأن البناء أو الإطار Structure الذي ينتج عن العلاقات الإنسانية يُحدّد بشكل كبير بالأفكار أكثر مما يُحدّد بالأمور المادية[129]. النقطة الثانية في مساهمة ألكساندر وندت هي قوله إن المصلحة والهوية Identity or Interest للفاعل Agent سواء فرداً، أو مجموعة أو دولة تُبنى أو تتشكل عن طريق هذه الأفكار المشتركة والتفاعلات المتبادلة أكثر مما تتشكل عن طريق الطبيعة. من الواضح أن نظرة وندت إلى كينونة العلاقات الدولية على أنها اجتماعية ناتجة عن الأفكار و القيم والممارسات و القواعد التي تحكم العلاقات بين الوحدات Agents والبناء Structure، وهي أهم من البناء المادي أو العوامل المادية. بشكل أوضح يرى وندت أن الدول أو الأفراد كفاعلين باسم الدول، على مر الأيام يصنعون العلاقات الدولية بشكلها الذي هي عليه.

إن تركيز وندت على الجانب الاجتماعي من البناء لا يعني أنه ينفي أهمية الجانب المادي للبناء أو يلغي دوره في تحديد سلوك الدول؛ بل على العكس هو يرى أن هذا الجانب مهم، ويميز بين ثلاثة أنواع من الرؤى لمفهوم الأناركي أو غياب السلطة المركزية من النظام الدولي:

١ـ النظرة "الهوبسية"، نسبة إلى توماس هوبس Hobbsean

٢ـ النظرة الثانية يسميها "اللوكية" نسبة إلى جان لوك Lockean

٣ـ أما النظرة الثالثة هي "الكانتية" نسبة إلى إمانويل كانت Kantian

النظرة الهوبسية Hobbesean View

تتسم هذه الرؤية بأنها تنسجم و تتطابق مع الرؤية الواقعية الجديدة لبنية النظام الدولي التي ترى أن غياب السلطة المركزية من النظام الدولي يجعل الدول تعيش في حالة عدم وضوح وخوف من تزايد قوة أي دولة أخرى؛ ولذلك تسعى كل دولة إلى زيادة قوتها الذاتية أي نظام الاعتماد على الذات Self-help وهذا يقود إلى نوع من سباق التسلح، وسلسلة من الإجراءات المتتالية من السياسات التي تقود إلى صراع الكل ضد الكل.

٢ـ الرؤية اللوكية Lockean View

تحتل هذه الرؤية موقع الوسط بين الرؤى الثلاث، إذ تستند إلى الفلسفة السياسية لجان لوك، وبدورها تعتمد على أفكار هوغو غروشيوس الذي يَعدّ الدولة وحدة فاعلة مستقلة في ظل غياب السلطة المركزية من النظام الدولي. وهذه الدول تتنافس، و تتصارع من أجل تحقيق مصالحها. ولكن هذا التنافس يتم من خلال مجموعة من القواعد المتفق عليها بين الدول.

٣ الرؤية الكانتية Kantian View

تعتمد هذه الرؤية على أفكار الفيلسوف الألماني إمانويل كانت الذي يرى أن النظام الدولي يشكل مجتمعاً أو نظاماً عالمياً فيه القيم المشتركة المقبولة من الوحدات، والعالم بكامله هو موطن للإنسانية، فهو لا يرى أن غياب السلطة المركزية يعني الصراع، والعيش بشريعة الغاب.

---

[129] Paul Viotti, Mark Kuppi, International Relations Theory, 5th ed, Pearson, London, 2011

من الواضح أنه في حال تبني الفاعل أو الدولة للرؤية الأولى؛ و هي أقرب إلى الواقعية الجديدة حيث تنظر الدول إلى النظام الدولي على أنه فوضوي تحكمه شريعة الغاب و القوي يفعل ما تمنحه قوته، والضعيف يقبل ما تفرضه القوى الأخرى عليه.
وبالمقابل إذا كان الفاعل يتبنى الرؤية الثانية التي تعتمد الفكر الليبرالي لجون لوك؛ فهذا يعني أن الفاعل يرى أن بنية النظام الدولي تقود إلى التعاون و احترام القانون الدولي و الشرعية الدولية، وأن الدول من مصلحتها أن تطبق القانون الدولي، و تتعاون لحل التحديات المشتركة. لذلك يرى أصحاب هذه الرؤية أن هناك مجتمعاً دولياً وليس نظاماً دولياً. و هذه الفكرة تشكل أحد أهم الافتراضات الأساسية للمدرسة البريطانية "الإنكليزية" في العلاقات الدولية The English School of International Relations.
أما النظرة الثالثة التي تنظر إلى العلاقات الدولية أنها عالمية، وترى بضرورة وجود حكومة عالمية كالحكومة المحلية لاتتفق مع النظرة الواقعية بحتمية الصراع بين الدول.
ولكن ألكساندر وندت يرفض هذه الرؤى التي ترى بأن طبيعة النظام الدولي "الفوضوية" لها و بشكل حتمي أثرها على سلوك الفاعلين، دون التطرق إلى آلية تكوين الرؤية من عملية تفاعل ساهم من خلالها الفاعلون بتكوين هذه الفكرة. بمعنى آخر يقول وندت إن الأناركي تعني مايراها الفاعلون وهذه الرؤية ليست ثابتة و بشكل معطى سواء إيجابية أم سلبية، بل هي ناتجة عن العلاقات الاجتماعية و عمليات التفاعل بين الوحدات بعضها ببعض، و الوحدات، و البناء.
بالإضافة إلى ذلك اهتم وندت بالعلاقة بين الأفكار و العوامل المادية في العلاقات الاجتماعية والتفاعل الاجتماعي. واهتمامه جاء لأنه كان يسعى لفهم كيف العوامل المادية و الأفكار يتفاعل بعضها ببعض في الطبيعة بشكل عام، و العلاقات الإنسانية بشكل خاص.
يتساءل وندت حول العلاقة بين (العقل والجسد) و مسألة الوعي الإنساني في هذه العلاقة. وفي هذا المجال يرفض وندت المقولة بأن العقل دائماً مُهيمَن عليه من قبل العوامل المادية الخارجية التي تعود إلى الافتراض بأن نظرة الفرد بسبب هذه الهيمنة المادية إلى أن الحقيقة و الواقع من حولنا ليس إلا بيئة أو عالم مادي.
الوعي كما يراه وندت هو أساس "الحياة الاجتماعية" وفي تكوين الوعي يشترك المادي و الفكري (Ideas) وهو (الوعي) ليس منفصلاً عن الفعل الإنساني؛ بل على العكس هو جزء من هذا الفعل. في ردّه على أتباع "نظرية الخيار العقلاني" Rational Choice Theory الذين يستبعدون دور وأثر العوامل الشخصية والفكرية في سلوك الفاعل (Agent) أو الفرد، ويعتقدون أن العوامل المادية هي السابقة، وهي التي تحدد الأفكار لدى الفرد؛ وذلك يعني أن الوعي يأتي في الدرجة الثانية بالنسبة لأتباع نظرية الخيار العقلاني. لكن وندت يرى أن هذه الرؤية إلى حد ما غير صحيحة، وهو يرى أن في تكوين الوعي تلعب الأفكار والعوامل المادية دوراً ثنائياً بعملية لا يلغي أحدهم الآخر.

أهم المفاهيم في النظرية البنائية (بعض المفاهيم الأساسية في العلاقات الدولية كما يراها أتباع النظرية البنائية.)

إن لكل نظرية من النظريات أدوات تحليل ومفاهيم تستند إليها في رؤيتها، وفهمها لظاهرة معينة. فالواقعية على سبيل المثال لديها مفاهيم، مثل: الأمن القومي، والقوة، والمصلحة وغيرها، بينما تعتمد النظرية الليبرالية على مفاهيم، مثل: التعاون الدولي، والتكامل، والاعتمادية المتبادلة وفي رؤيتها للعلاقات الدولية توظف النظرية البنائية بعض المفاهيم المشتركة مع النظريات الأخرى، وإن اختلفت رؤيتها حول معنى هذه المفاهيم، ودورها.

مفهوم الدولة والقوة لدى البنائيين:

لأتباع البنائية، لا يمكن تحليل السياسة الدولية وفهمها بالتركيز فقط على بنية النظام الدولي كما يعتقد الواقعيون الجدد الذين يرون أن بنية النظام الدولي (توزيع القوة في النظام الدولي) بشكل آلي وأوتوماتيكي يؤثرفي سلوك الدول؛ بل يرفض البنائيون هذا التعميم في أثر النظام الدولي في سلوك الدول، وبالمقابل يرى البنائيون أن الدول تتصرف بهذا الشكل نتيجة العلاقات الاجتماعية وتفاعلها مع بنية النظام الدولي التي تشكل إطاراً اجتماعياً من القواعد والقيم التي تتصرف الدول من خلالها. من ذلك نستنتج أن البنائيين يصرون على أن السياسة الدولية ليست بالضرورة محكومة بالقوة والمصلحة فقط، فهناك مبادئ، وقيم، ومفاهيم، مثل: السيادة وعدم التدخل التي أصبحت جزءاً من الإطار الاجتماعي لسلوك الدول التي تشكل ضابطاً لهذه الوحدات، وإن كانت تخترق بعض الأحيان، فمخالفة القاعدة لا يعني عدم وجودها [١٣٠].

فعلى سبيل المثال مفهوم توازن القوى Balance of Power لا يصبح قانوناً كما يعتقده الواقعيون بل هو مفهوم أو قاعدة تقبله الدول على مر الزمن نتيجة استخدامه المتكرر من قبل الدول والوحدات الأخرى، وتتصرف بناء على هذه القاعدة أو العرف؛ مما يجعله يبدو كالقانون الملزم في العلاقات الدولية تأخذه الدول على أنه نافذ في كل زمان ومكان.

إن مفهوم القوة كما يراه البنائيون ليس كما يراه الوضعيون أو بشكل خاص أتباع النظرية الواقعية. إذ يعد الواقعيون القوة جوهر العلاقات الدولية، وخاصة القوة العسكرية التي تعد بنظرهم هدفاً ووسيلة في تحقيق المصالح الوطنية. إن هذه النظرة المادية لمفهوم القوة جعلت الواقعيين يركزون على عوامل تساهم في مقدرة الدول، مثل: (الأرض، والسكان، والاقتصاد؛ بالإضافة طبعاً إلى القوة العسكرية) وعلى الرغم من أنه لا يوجد تعريف موحد لمفهوم القوة حتى بين الواقعيين أنفسهم، إلا أن أكثر التعاريف تداولاً هو تعريف روبرت دوول Robert Dahl الذي يقول إن القوة هي قدرة الفاعل (أ) على أن يجبر فاعل (ب) على أن يفعل شيئاً أو يمتنع عن فعل شيء ما، ما كان ليفعله (ب) لولا قدرة (أ). أما بالنسبة للبنائيين، فمفهوم القوة هو بناء اجتماعي بحد ذاته يتحدد معناه، وأثره من خلال التفاعل بين الوحدات الفاعلة في النظام الدولي والبناء الذي يحتوي هذا التفاعل.

المصلحة الوطنية في النظرية البنائية

مفهوم آخر في العلاقات الدولية يعد من أهم المفاهيم، ومن أكثرها غموضاً هو مفهوم المصلحة الوطنية. إن مفهوم المصلحة الوطنية يعد من المفاهيم المركزية للواقعية حيث يُنظر إليه على أنه شيء تملكه الدول، ويبنى على مر الزمن، ويرتكز على بعض الأسس، أهمها: موقع الدولة الجغرافي، والموارد التي تحتويها الدولة، وعدد السكان، والأهداف الاستراتيجية للدولة ،وعوامل أخرى. أما التيارات النقدية في العلاقات الدولية كما رأينا سابقاً في الفصل الخامس من هذا الكتاب تثير العديد من الأسئلة حول مفهوم المصلحة الوطنية ولا تعده شيئاً معطى أو محدداً مسبقاً بل تشير إلى مجموعة من النقاط، والتساؤلات، مثل: مصلحة من؟ لأن أتباع النظريات النقدية لا يعتقدون بأن الدولة وحدة متكاملة، وتتصرف بصوت واحد (Unitary Actor) بل هناك العديد من الطبقات والجماعات ومراكز القوى الكثيرة التي تساهم في تعريف المصلحة الوطنية. أما بالنسبة للبنائية، فالمصلحة الوطنية ليست شيئاً محدداً بشكل موضوعي؛ بل هي مشروع دائم التكوين، ويختلف مع اختلاف الزمن، والعلاقات الاجتماعية للفاعل. والبنائيون مهتمون بشكل كبير بالعلاقة بين المصلحة (Interest) والهوية(Identity) وكيف تحدد الأفكار المصلحة أو

---

[١٣٠] Jill

بالعكس وبشكل مبسط، فإن أتباع البنائية يعتقدون أن الهوية، والأفكار، والمصلحة هي مفاهيم لا يمكن الحديث عن أحدها بدون الآخر.

أهمية الهوية في النظرية البنائية

يعد مفهوم الهوية Identity من المفاهيم الهامة لأتباع النظرية البنائية ليس لأنها تساعد في تحديد المصلحة للفاعل فقط، لكنها مهمة أيضاً لصناعة السياسة العامة للدولة. إذ يفترض البنائيون أن الهوية تمنح أو تحدد للفاعل دوراً في العلاقات الدولية؛ وبذلك سيتصرف الفاعل دائماً بما يراه ملائماً لهذا الدور. فعلى سبيل المثال أظهرت مجموعة من الدراسات أن الاعتقاد السائد بين الألمان بعد الحرب العالمية الثانية بأوروبية ألمانيا وبأهمية التكامل الأوروبي أدى إلى سياسات مختلفة عما سبق. كذلك اعتقاد البريطانيون وتحديد هويتهم بالعلاقات الأطلسية حدد دورها في العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية؛ بالإضافة إلى ذلك يركز أتباع البنائية على العوامل والطرق التي تحدد الهوية للفاعل وكيف تتغير هذه الهوية. فهم بذلك إلى حد ما قريبون من أتباع ما بعد الحداثة، وذلك بتوصيف ما يسمى بالآخر (Othering) وتوظيفها لهذا المنهج بتحليل الهوية وتوصيفها. وهذا الأسلوب يعتمد على أن لكل هوية نقيض أو معيار مخالف له أو مغاير. فعدم وجود الآخر يلغي وجود الأنا والهوية. ولكن يتميز البنائيون عن أتباع ما بعد الحداثة بأنهم لا ينطلقون من أسس لغوية أو فلسفية؛ بل من علم النفس الاجتماعي، فالدراسات العديدة لمجموعات أو جماعات إنسانية أظهرت أن هذه الجماعات تفرق بين مَن ينتمي إلى المجموعة ومَن هو خارج هذه المجموعة (Insiders and Outsiders) ويكتسبون هويتهم من هذا التفريق. وهناك أمثلة عديدة تعطى على ذلك، مثل: الهوية الأوروبية ضد الهوية التركية، أو الهوية البريطانية ضد الهوية الأوروبية أو الهوية الأمريكية في مواجهة جماعات وأمم أخرى. والهوية بالنسبة للبنائيين لا تتغير بشكل سهل إلا إذا كان هناك تغير كبير جعل الوحدات الفاعلة تنخرط بعلاقات اجتماعية جديدة تساهم في تحديد هوية جديدة، مثل: الحرب العالمية الثانية بالنسبة لأوروبا، وأحداث ٢٠٠١\٩\١١ بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية. والمهم هنا أن نميز ثلاث نقاط أساسية :

١- العلاقة بين الهوية والمصلحة والقاعدة.

٢- الهوية تحدد سلوك الفاعل، وهي بدورها تتحدد من خلال التفاعل بين الفاعل والبناء.

٣- ليس من السهل تغيير الهوية إلا في حالات كبيرة جداً تستدعي بروز هوية جديدة على حساب هويات أخرى.

الأمن والسلام لدى أتباع البنائية

اهتم أتباع النظرية البنائية بدراسة الأمن و السلام، وقد تركزت دراسات البنائيون على ثلاثة محاور:

أولاً: أشار بعض البنائيون إلى ما يسمى بثقافة الأمن لدى بعض البلدان التي تحدد الرؤية والسياسات الأمنية التي تضعها هذه الدول فيما يتعلق بأمنها القومي. تأسيساً على كتابات البنائيين الأوائل حول الثقافة و القيم والهوية، يحاول أتباع النظرية البنائية دراسة الأثر التراكمي لتشكيل نوع من الثقافة ملامحها الأساسية "الأمن" أي أن ارتكازاتها الأساسية المنطقية هي تحقيق الأمن والسلام كأولوية للحكومة المركزية؛ و خاصة إذا كانت هذه الدول تعاني من العديد من الأزمات والتحديات، وعدم الإستقرار. وهذا يقود إلى تداول مفاهيم وقيم

تتعلق بالأمن، وتصبح هذه المفاهيم و القيم جزءاً كبيراً من الإطار الاجتماعي "البناء" الذي يتفاعل معه الأفراد. وفي ظل ذلك التفاعل تصبح ثقافة الأمن هي العامل الأساسي في رسم السياسات للدول.

ثانياً: طوّر مجموعة من أساتذة العلاقات الدولية تحت عنوان "التجمعات الأمنية" أو الجماعات الأمنية Security Communities مجموعة من الدراسات التي استمدت من دراسات كارل دويتش الكثير من الأفكار و المبادئ. توجد التجمعات الأمنية عندما تشعر مجموعة من الدول بأنها مجموعة واحدة، ولديها الإحساس بالانتماء إلى هذا التجمع، وتبدأ هذه الدول بتأسيس مؤسسات، و هيئات للحفاظ على السلام، والأمن داخل هذا التجمع[131]. وقد ميز الباحثون بين عدة أنواع من التجمعات الأمنية، أهمها: التجمعات الكبيرة التي يعكسها نظام الأمن الجماعي على الصعيد الدولي، و النوع الآخر هو الأصغر أو التجمع الإقليمي الذي ينشأ عندما تجتمع مجموعة من الدول لتنشئ نظاماً مستركاً للأمن، مع احتفاظ كل منها بسيادته واستقلاله. وقد تركزت أغلب الدراسات في هذا المجال حول عدة اسئلة، مثل: كيف تؤثر القيم والمؤسسات للمجتمعات الأمنية في السياسات الأمنية للدول؟ وكيف تتغير التجمعات الأمنية ؟

ثالثاً: المحور الثالث في مساهمة البنائية في الدراسات الدولية المتعلقة بالأمن و السلام تتمثل في انخراط مجموعة من البنائيين في الجدل المتعلق بمفهوم الأمن القومي National Security.

فمن المعروف أن مفهوم الأمن القومي كان دائماً يركز على الجانب العسكري؛ وخاصة خلال الحرب الباردة والذي ارتبط بشكل كبير بأدبيات النظرية الواقعية في العلاقات الدولية. إذ يشكل الأمن القومي المفهوم الأساسي للواقعية في دراسة العلاقات الدولية. إلا أن الاتجاهات الجديدة منذ الثمانينيات من القرن العشرين؛ وبشكل خاص بعد الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفيتي برزت مجموعة من الاتجاهات التي تدعو إلى توسيع هذا المفهوم؛ أي مفهوم الأمن القومي ليشمل جوانب عديدة؛ بالإضافة إلى الجانب العسكري، وبرز في هذا الاتجاه كتابات بيري بوزان وريتشارد ألمان؛ بالإضافة إلى تيار يسمى الدراسات النقدية في الأمن التي تضم مجموعة من الكُتّاب من أتباع النظرية النقدية أو ما يسمى بمدرسة فرانكفورت، كما رأينا في الفصل الخامس، وقد تم نشر العديد من الكتب في هذا الاتجاه الذي لايدعو إلى توسيع المفهوم فقط، وإنما إلى تحويل الاهتمام لهذا المجال من الدراسات، وجعل الاهتمام يتركز على مواضيع أخرى، مثل: الديموقراطية، والبيئة، وحقوق الإنسان، والاقتصاد...

وفي خضم هذا الجدل برز مفهوم الأمن الإنساني الذي يعبر عن أن الإنسان يجب أن يكون جوهر الدراسات الإمنية، وليس المادة وهذا ما يعرف بالأمن الإنساني.

إن المنطق الفكري الذي يبني عليه أتباع هذا التيار الجديد رأيهم، هو ما الذي نحاول أن نحافظ على أمنه؟. بمعنى آخر ما هو موضوع الأمن؟ بالنسبة لأتباع هذا التيار موضوع الأمن هو الإنسان وإذا كان الهدف هو أمن الإنسان فإن مصادر الخطر في هذا المجال متعددة: (الاحتباس الحرار ي، التمييز العنصري) كل هذه المواضيع يجب أن تشكل جزءاً من اهتمام الدراسات الأمنية. وفي هذا الاتجاه يكتب أوليه ويفر وبيري بوزان بأن الأمن يجب أن يشمل قطاعات أخرى، مثل: الأمن الاقتصادي، والاجتماعي للإنسان. أما بالنسبة لأتباع البنائية مفهوم الأمن كمفهوم الأناركي أي أن معناه وقيمته تعتمد على ما تجعل منه الدول، وكما قال ألكساندر وندت "أناركي هي كما يراها، ويجعل منها الفاعلون أو الدول" فبالنسبة للأمن (الأمن كما تراه وتجعل منه الدول). إذ هو مفهوم يعتمد على عملية البناء الناتجة عن تفاعل الدول مع البناء الاجتماعي في النظام الدولي. فبعض الأحيان تعتقد الدول في مرحلة

---

[131] Ibid. p.197

معينة أن الأمن القومي بمعناه التقليدي هو الأفضل بينما في وقت آخر أو مرحلة وظروف مختلفة (التطور الاقتصادي، الحفاظ على البيئة، بناء مؤسسات المجتمع المدني، ونشر الديموقراطية تأتي على أولويات الأمن القومي. بمعنى آخر أن الأمن القومي ليس شيئاً معطى بل هو حصيلة العملية التفاعلية بين الوحدات والبناء، ويعكس القيم والقواعد التي تضبط التفاعلات.

مماسبق نجد أن النظرية البنائية ترفض افتراض الواقعية حول العلاقات الدولية أو ما يسمى بالبلياردو كتصور للعلاقات بين الدول في النظام الدولي. لأنه أغفل العوامل الاجتماعية والثقافية وعلى رأسها مسألة الهوية في سلوك الفاعلين.

هذا يعني أن أتباع البنائية أرادوا وضع منهج أو تصور اجتماعي للعلاقات الدولية مقابل البناء المادي الحتمي الذي تقوم عليه النظريات الوضعية. هذا التصور يعكس العلاقة الجدلية بين الوحدات و البناء. ومحور هذا التصور هو الأفكار (Ideas) التي تربط الطرفين. بذلك نجد أن البنائيين يهتمون بمسألة التغيير، وخاصة دور الأفكار بتشكيل الوعي الإنساني لما يدور حوله.

وفي هذا الإطار تجدر الإشارة إلى أن البنائية كنظرية أو مدخل لدراسة وفهم العلاقات الدولية قد ازدهرت بشكل كبير في السنوات العشر الماضية أي مرحلة ما بعد الحرب الباردة، حيث وجد فيها العديد من الأكاديميين النظرية الأكثر قدرة على تفسير، و فهم العديد من الظواهر في هذه المرحلة، مثل: الحروب الأهلية ،انفصال بعض الدول عن دول أخرى، حركات تطالب بالاستقلال و تحمل لواء هويات جديدة. كذلك هناك عودة للثقافة في العلاقات الدولية The Return of Culture to International Relations.

تعكس طبيعة المرحلة و القضايا التي شهدتها هذه المرحلة. فمن أطروحة صراع الحضارات لصوموئيل هنتنغتون إلى العديد من الاتجاهات الفكرية الجديدة التي تعكس دور العوامل الاجتماعية في العلاقات الدولية، كل ذلك يعبر عن هيمنة الاتجاهات الجديدة في دراسة العلاقات الدولية.

البنائية كجسر بين الوضعية ومابعد الوضعية:

كما شاهدنا في هذا الكتاب؛ وخاصة في الفصل الأول أن تطور دراسة العلاقات الدولية قد تم من خلال الجدالات الأربعة، حيث شهد الجدل الأخير أو ما يسمى الجدل الراهن في العلاقات الدولية سجالاً بين النظريات الوضعية من جهة، وما بعد الوضعية من جهة أخرى. هذا الجدل بدأ يتبلوّر بشكل كبير خلال الثمانينيات من القرن الماضي. فقد انطلق أتباع النظريات الوضعية من فرضية إمكانية دراسة العلاقات الدولية بالطرق العلمية المستخدمة بالعلوم الطبيعية. وقد رأينا أيضاً أن النظريات الوضعية تركز على الملاحظة والتجريب في الحصول على المعرفة، وعلى الموضوعية في البحث العلمي، والابتعاد عن القيم. تسمى بعض الأحيان هذه التيارات بالتيارات العقلانية. أما ما بعد الوضعية، فتنتقد الافتراضات الإبستمولوجية للوضعية، و تعطي أهمية كبرى للقوى، والعوامل الاجتماعية التي أهملتها التيارات الوضعية. هذه التيارات اهتمت أيضاً بالثقافة، والتاريخ، والأفكار، كعوامل تؤدي دوراً كبيراً في العلاقات الدولية.

أما البنائية، فهي تأخذ من الوضعية اهتمامها بالدولة كفاعل أساسي في العلاقات الدولية، وأن المصلحة الوطنية والأمن القومي محددان لسلوك الفاعل. ولكن أيضاً تأخذ من تيارات ما بعد الوضعية التركيز على الهوية والأفكار والقيم. فالمصلحة الوطنية لدى البنائية ليست كما يعتقد الوضعيون بأنها دائماً مُعرّفة بالأمن القومي أو معطى ثابت؛ بل هي ناتجة عن عملية التفاعل بين الفاعل و البناء وهنا يأتي دور الأفكار والهوية. وهذا ما يركز عليه أتباع التيارات النقدية (ما بعد الوضعية). وهذا ما يجعل البنائية جسراً بين التيارين. الشكل التالي يلخص الفكرة حول البنائية كجسر بين الوضعية و ما بعد الوضعية.

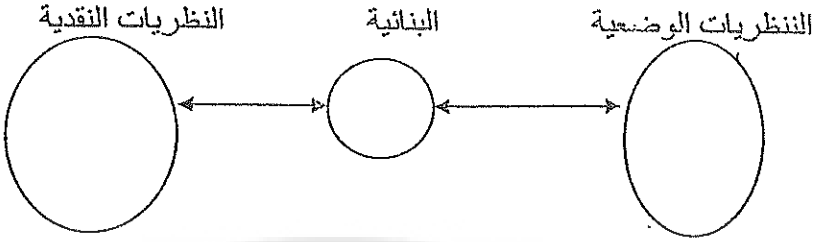

الشكل(١٣) البنائية كجسر بين النظريات الوضعية و نظريات مابعد الوضعية

وفي نهاية هذا الفصل يمكن لنا أن نُجمل، وبشكل مختصر النقاط الأساسية للنظرية البنائية:

١- البنائية لا تشكل نظرية واحدة بالمعنى الوضعي، ولكن يشير أتباعها إلى عدّها مجموعة من المداخل المختلفة التي تشترك في عدة نقاط أهمها أنها تشكك بأي افتراض ينطلق من أن هناك حقائق وأشياء موجودة، ومحددة بعيدة عن إرادتنا. فهي ترى أن عالمنا هو عملية أو مشروع مستمر في البناء من خلال التفاعل بين الفاعل (Agent) والبناء(Structure).

٢- تعد البنائية بنظر العديد أنها الجسر الذي يصل بين التيارات الوضعية أو ما تسمى بعض الأحيان بالاتجاهات العقلانية من جهة والاتجاهات النقدية أو ما بعد الوضعية من جهة أخرى.

٣- تستمد البنائية منهجها من النظريات الاجتماعية، ولذلك نجدها تركز على الجانب الاجتماعي للعلاقات الدولية. بعكس المدخل الميكانيكي المادي للنظام الدولي الذي تتبعه الواقعية الجديدة تعطي الأولوية إلى العوامل الاجتماعية.

٤- تركز البنائية على دور القيم، والقواعد، والثقافة، والهوية. وهذا ما يميزها عن النظريات التي تتخذ من المصلحة أساساً لتحليل العلاقات الدولية، مثل: الواقعية الجديدة، والليبرالية الجديدة.

٥- تؤدي القيم، والقواعد، والمؤسسات دوراً هاماً في التفاعلات بين الوحدات ،وهي التي تساهم في خلق البيئة المجتمعية التي يتعامل فيها الأفراد، ويشعرون بأنهم ينتمون إلى مجتمع. ويرى البنائيون أن الدول كالأفراد تتفاعل بعضها ببعض ومع البناء أيضاً، ومن هذا التفاعل ينشأ مجتمع تشكل القواعد والقيم بنيته الاجتماعية.

٦- يرى البنائيون أن مفهوم المصلحة الوطنية يحتاج إلى شرح ودراسة بدلاً من اعتباره شيئاً معطى كما هو موجود دون أي تساؤل عن طبيعة هذا المفهوم، وكيف تشكل، ومن هو الذي يحدده. ولذلك يسعى البنائيون إلى دراسة وإظهار الآلية التي من خلالها تتفاعل المصلحة الوطنية، والقيم، والقواعد، وتتحدد الهوية، وبذلك يتحدد سلوك الدولة أو الفاعل على الصعيد الخارجي.

٧- أحد أهم رواد البنائية هو ألكساندر وندت حيث تعد مساهمته في دراسة علاقة الفكرة بالمادة وأثرها في تفسير تغيير طبيعة النظام الدولي من أهم ما قدمته البنائية في هذا المجال.

٨- من الناحية المنهجية يعتمد أتباع البنائية على النظريات الاجتماعية، وتوظيف العمليات التاريخية كي تشرح التفاعل بين الفاعل والبناء.

ومن الجدير بالذكر التمييز بين مداخل متعددة داخل البنائية. فكما تم التنويه إليه سابقاً، فإن ألكساندر وندت Alexander Wendt ركز بشكل كبير في دراسته على الأسس الإبستمولوجية حيث أبرز العلاقة بين الفاعل والبناء، في حين جاءت دراسات نيكولاس أونوف Nicholas Onuf لتبرز الجانب الأنطولوجي الاجتماعي في العلاقات الدولية إذ يعطي أونوف أهمية إلى دور اللغة، وأثر الخطاب في هيكلية بناء العلاقات الدولية وتنظيمها. وهذا ما يجعل بعض المفكرين يعتقدون بأن أونوف يتقاطع مع أفكار ما بعد الحداثة والنظرية النقدية.

وباختصار: إن البنائية كنظرية في العلاقات الدولية تحاول أن تجد العلاقة أو الرابط بين المكونات الثلاثة في العلاقات الدولية الفاعل، والبناء، وعملية التفاعل بينهما، وبذلك نرى أن البنائية تعتبر العلاقات الدولية هي علاقات اجتماعية إنسانية بالدرجة الأولى. فتعتبر البنائية كما ذكرنا سابقاً جسراً أو وسطاً بين إلتيارات الوضعية والتيارات ما بعد الوضعية.

الشكل (١٤) : ملخص لنظرة البنائية لمجموعة من المفاهيم

المفهوم	كيف تنظر إليه البنائية
الفرد	فاعل أساسي حسب موقعه بالمجتمع أو النخب
الدولة	بناء اجتماعي وفاعل أساسي
النظام الدولي	يتكون من بناء مادي وبناء اجتماعي و هو الأهم
المصلحة الوطنية	تتحدد من خلال التفاعل بين الفاعل و البناء (الدولة و بنية النظام الدولي)
الأمن القومي	أيضاً تتحدد، وتبنى من خلال عمليات التفاعل المستمرة بين الفاعل و البناء
الهوية	وهي من أهم المفاهيم بالنسبة للبنائية، وتتحدد من التفاعل بين الفاعل و البناء و تساهم في تحديد سلوك الفاعل

المصدر: Karen Mingst, Essentials of International Relations, Norton, London, 2011, p 46

مفاهيم أساسية في النظرية البنائية:

الفاعل، البناء، القاعدة الضابطة، الهوية، البنائية الطبيعية، الآخر (Othering)

أسئلة دراسة :

١- يعتقد البعض أن البنائية تشكل جسراً بين التيارات الوضعية والتيارات النقدية. هل تتفق مع هذا الرأي؟

٢- كيف تنظر البنائية إلى المصلحة الوطنية؟

٣- كيف تنظر البنائية إلى الأمن القومي؟

٤- يقول ألكساندر وندت أن بنية النظام الدولي (اناركي) غياب السلطة المركزية تعني ما تعملها أو ما تجعل منها الدول؟ اشرح ذلك؟

٥- ما أهمية الهوية للبنائيين.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الفصل السابع
المدرسة الإنكليزية في العلاقات الدولية
The English School in International Relations

مقدمة

مع انتهاء الحرب الباردة ساد نوع من التفاؤل بين الأكاديميين في مجال العلاقات الدولية. بينما احتفل الليبراليون بانهيار الشيوعية، وما رأوه نصراً للفكر الليبرالي متنبئين بانتشار الديموقراطية ومعها السلم والاستقرار؛ لأن الديموقراطيات لا تحارب بعضها بعضاً. ظن البعض أن الواقعية أصبحت في المقعد الخلفي؛ لأنها عجزت عن التفسير، و التنبؤ بالعديد من الأحداث . إلا أن ظاهرة جديدة في دراسة العلاقات الدولية كانت قد برزت في تلك الفترة تمثلت بنقطتين هامتين. الأولى: هي عودة الاهتمام بكتابات بعض المفكرين القدامى، مثل: كارل دويتش ونظرية الاتصال، وإدوارد كار و تفريقه بين الهرمية و غياب انسجام المصالح بين الدول، وفكر هوغو غرتشيوس حول القانون الدولي. النقطة الثانية هي عودة الاهتمام بالمدرسة الإنكليزية في دراسة العلاقات الدولية، التي كان بعض أساتذة العلاقات الدولية، مثل: روي جونز Roy Johns في مقالة نشرها عام ١٩٨١ قد دعا إلى إغلاقها؛ لأنها لا تقدم الكثير، ولا تشكل نسيجاً متكاملاً. إلا أن الرد على هذا الرأي جاء حاسماً من بيري بوزان Barry Buzan و فريق من علماء السياسة في بريطانيا . حيث أوضح بوزان أن المدرسة الإنكليزية في الحقيقة لم تُعط الأهمية التي تستحق ولم تُستغل من الأكاديميين لتطوير مدخل مستقل لدراسة العلاقات الدولية. فهو يرى أن المدرسة بنظرتها وتصورها حول مفهوم المجتمع الدولي تنفرد بوضع يكاد يجمع بين العديد من التيارات والمداخل في العلاقات الدولية. وقد ساعد على عودة الاهتمام بالمدرسة البريطانية بروز النظرية البنائية التي تركز على الهوية، و القيم، والمجتمع، والقواعد التي تعد أيضاً من اهتمام المدرسة الإنكليزية. الحقيقة أن هناك العديد من نقاط التلاقي بين البنائية و المدرسة الإنكليزية في العلاقات الدولية كما سنرى في هذا الفصل.

المدرسة الإنكليزية في العلاقات الدولية أو مدخل المجتمع الدولي اسم يطلق على مجموعة الكتابات التي أنتجتها الجمعية البريطانية لدراسة العلاقات الدولية التي تتسم بمركزية مفهوم (المجتمع الدولي) عوضا عن النظام الدولي في أدبياتها التي أغنت دراسة العلاقات الدولية خلال العقود الستة الماضية. فقد تأسست الجمعية البريطانية خلال العقد الخامس من القرن العشرين . وقد جاء تأسيس هذه الجمعية بمبادرة من كينث تومسون، أحد طلاب هانس مورغنثاو الذي اقترح على هربرت بترفيلد إقامة جمعية هدفها وضع نظرية لدراسة العلاقات الدولية شبيهة بالجمعية الأمريكية التي حاول دين رسك في عام ١٩٥٤ تأسيسها بدعم من مؤسسة روكفلر حيث دعا مجموعة من الأساتذة الأمريكان إلى اجتماع في نيويورك، ومن بينهم هانس مورغنثاو، وكينث ولتز ، وكينث توسون ، وليام .ت. ر. فوكس ورينولد نيبور، و ارنولد ولفرز، و بول نتشه.

من الواضح أن هذه النخبة من الأكاديميين تنتمي إلى المدرسة الواقعية. وعلى الرغم من الجهود التي بذلت في الولايات المتحدة الأمريكية، إلا أن الخلافات بين هؤلاء الأساتذة حالت دون نجاح الجمعية الأمريكية، ولم تستمر، و انفضت مبكراً، إلا أن المدرسة البريطانية كانت أنجح، إذ نهضت بسرعة ،وبدأ أعضاؤها بالإنتاج وعقد الندوات، والمؤتمرات السنوية. ،قد برز من روادها هدلي بول في فترة الجدل الثاني في مرحلة الخمسينيات من القرن العشرين إذ مثلت كتابات بول المدخل التقليدي في دراسة العلاقات الدولية مقابل مورتون كابلان Morton Kaplan الذي مثلت كتاباته المدرسة السلوكية.

تنطلق المدرسة الإنكليزية من الافتراضات الآتية:

أولاً: يفترض أتباع المدرسة الإنكليزية أن العالم يمكن فهمه على أنه مجتمع دولي International Society تغيب عنه السلطة المركزية ، فيه مجموعة من القوى الفاعلة على رأسها الدولة القومية. والتركيز هنا على مفهوم المجتمع. والذي ي من أهم المفاهيم إذ يعرف آدم واتسون Adam Watson المجتمع الدولي " بأنه مجموعة من الدول أو مجموعة من الوحدات السياسية المستقلة التي لا تؤلف نظاماً دولياً بمعنى أن كل فاعل من الفاعلين يأخذ بعين الاعتبار سلوك الفاعلين الآخرين فقط، بل أيضاً تشكل هذه الوحدات من خلال التفاعل المتبادل تفاهماً يضع قواعد، وقوانين، و مؤسسات تحكم سلوك الأعضاء في هذا المجتمع الدولي[١٣٢].

ثانياً: يحتل مفهوم "Order" "النسق " بمعناه الذي يشير إلى نوع من الهرمية والتراتبية في المجتمع الدولي مكانة هامة لدى أتباع المدرسة الإنكليزية. إن هذه النسقية والهرمية ليست ناتجة من توازن القوى بين الفاعلين فقط، بل من قبول هؤلاء الفاعلين لمجموعة من المبادئ المشتركة والمؤسسات والترتيبات المتفق عليها التي تحكم سلوك هذه الدول. وكذلك يعد أتباع المدرسة الإنكليزية ما يذهب إله النظرية الواقعية من تركيز على المصلحة الوطنية والعوامل المادية مهماً لفهم العلاقات الدولية ، ولكن لا يغفل أتباع المدرسة الإنكليزية دور القيم، والأفكار في التأثير على سلوك الأفراد و الدول في علاقاتها الخارجية. كم تفترض المدرسة الإنكليزية أن الفاعلين (الدول) يتصرفون بشل عقلاني، وإن كانت العقلانية بمهوم اتباع المدرسة تختلف عن العقلانية بمفهوم الواقعية "الوضعية". فالواقعية لدى المدرسة الإنكليزية تعني واقعية هوغو غروشيوس التي تؤكد على عقلانية الدول في تطبيق قواعد القانون الدولي بشكل طوعي.

ثالثاً: تعترف المدرسة الإنكليزية بأهمية المدخل الأخلاقي الذي مثله الفيلسوف الألماني إمانويل كانت. ولكن هذا المدخل يمزج بنوع من الواقعية والبراغماتية بحيث تبتعد المدرسة عن المثالية التي وصفت بها المدخل الأخلاقي لكانت. وقد ميزأتباع المدرسة الإنكليزية بينهم وبين المدخل الاخلاقي لكانت بأن مفهوم المجتمع العالمي هو مفهوم يمثل المدخل الكانتي فقط، وفيه من اليوتوبيا أو المثالية، أما المدرسة الإنكليزية تعد أن هناك مجتمعاً دولياً وحدته الأساسية هي الدولة.

رابعاً: تمثل القيم وقواعد القانون الدولي نقطة مهمة في أدبيات المدرسة الإنكليزية كونها تفترض أن الدول فاعل عقلاني يسعى لتحقيق مصالحه، و القانون الدولي يؤمن هذا الجانب. فالدول من مصلحتها التعاون واحترام القانون الدولي. هنا تلتقي المدرسة الانكليزية مع النظرية الليبرالية في دور القانون الدولي والمنظمات الدولية في المجتمع الدولي[١٣٣].

الجذور الفكرية للمدرسة الإنكليزية

عندما نحاول الكتابة أو البحث في تاريخ العلاقات الدولية نجد أن هناك أسماء محدودة تتكرر في أغلب الكتابات في هذا العلم. هذه الأسماء تركت إرثاً كبيراً ليس لطلاب العلاقات الدولية فقط، با للإنسانية جمعاء. تضم هذه الثلة من المفكرين علماء وفلاسفة وحقوقيين. فعلى سبيل المثال إمانويل كانت الفيلسوف الألماني يحتل موضعاً في أغلب النظريات والدراسات المتعلقة بالعلاقات الدولية والفكر الإنساني بشكل عام. فهو رائد في الفكر الليبرالي الذي بُنيتْ على أفكاره الكثير من النظريات، و رُسمتْ الكثير من السياسات الدولية. فنظرية السلام الديموقراطي على سبيل المثال تشكل جزءاً من التقليد الليبرالي وأساساً للاستراتيجية الأمريكية في مرحلة ما بعد الحرب الباردة. بالإضافة إلى إمانويل كانت نجد هوغو غروشيوس هولندي المولد الذي قدم في كتبه العديدة وأهمها كتاب قانون الحرب والسلام مرجعية ليست لدراسة السياسة الدولية فقط، بل أيضاً

---

[132] Paul Viotti, Mark Kuppi, International Relations Theory, Pearson. London, 2012, p. 244

[133] Viotti, Ibid, 246

لدراسة القانون بشكل عام، القانون الدولي بشكل خاص. و هذا ما سنراه في الحديث عن هؤلاء المفكرين بشكل أوسع في هذا الفصل.
يشير أتباع المدرسة الإنكليزية إلى العديد من المفكرين الذين يُعَدّون من رواد الفكر في مجال العلاقات الدولية بشكل عام و المدرسة الإنكليزية بشكل خاص.

هوغو غروشيوس Hogu Grotius (١٥٨٣-١٦٤٥)

تعد كتابات هوغو غروشيوس حول القانون الدولي المرجع الأساسي للمدرسة الإنكليزية. ففي كتابه "قانون الحرب والسلام" يشير غروشيوس إلى أن الدولة هي الفاعل الأساسي في العلاقات الدولية. وأن الدول تضع قواعد، وقوانين لتنظيم علاقاتها البينية، وتلتزم بها طواعية؛ لأنها تعكس مصالحها و خيارها العقلاني. ولكن هناك فكرة أساسية لغروشيوس، تجدر الإشارة إليها هي أن القوة و ميزان القوى ليست المحدد الأساسي و الوحيد لسلوك الدول، ولكن قواعد القانون الدولي أيضاً هي محدد كبير في أغلب الأحيان لهذه العلاقات.
إلا أن علماء السياسة والقانون الدولي يبرزون أهمية غروشيوس في نقطتين:

١- إن عدّ هوغو غروشيوس (أبو القانون الدولي) هو بحكم الفترة الزمنية التي عاشها في القرنين السادس عشر والسابع عشر كان أول من أشار إلى التحول النيوي الحقيقي في النظام الدولي، وخاصة بعد تراجع، وتفكك سلطة الكنيسة، وقيام الدولة القومية بعد حرب الثلاثين عاماً التي إنتهت بمعاهدة وستفاليا ١٦٤٨.
٢- النقطة الثانية هي تركيز غروشيوس على مفهوم الحق الطبيعي الذي يولد مع الأفراد بغض النظر عن دينه. فالحق لاتمنحه الكنيسة بل هو حق طبيعي للأفراد والدول.

في هذا الاتجاه بنى مارتن وايت رأيه، إذ أشار إلى أن الدول تلتزم طواعية بقواعد القانون الدولي، لأنه في النهاية أفضل من الخيارات الأخرى للدول، مثل: الفوضى أو الصراع المستمر.

إمانويل كانت Immanuel Kant

لقد كانت كتابات الفيلسوف الألماني إمانويل كانت مرجعاً لأغلب التيارات الفكرية في دراسة العلاقات الدولية لاسيما التي تنطلق من مفهوم العدالة، والسلام، و الديموقراطية. وتعطي القيم و الأخلاق دوراً في تحديد سلوك الفاعلين الدوليين، وخاصة النظرية الليبرالية و المعيارية أو المثالية. ويشير أتباع المدرسة الإنكليزية إلى أعمال (كانت Kant) حول السلام الدائم ، والحكومة العالمية، وتقاطع هذه المفاهيم مع مفهوم المجتمع الدولي لدى المدرسة الإنكليزية، على أن ذلك يجعل إمانويل كانت أحد الجذور الفكرية للمدرسة الإنكليزية.
إدوارد كار
أحد أهم مفكري القرن العشرين الذي يُعدّ أيضاً من رواد الفكر لأكثر من نظرية، وتيار فكري. فقد رأى الواقعيون في كتابات كار الارضية لافتراضاتهم. وفي الوقت نفسه عَدّه الليبراليون مرجعاً لبعض المنطلقات لنظريتهم، وخاصة دور القيم و الأفكار. وهذا أيضاً يجعله مرجعاً للمدرسة الإنكليزية في العلاقات الدولية[١٣٤].

مارتن وايت Martin Wight (١٩١٧-١٩٧٢)
كان المُنظّر الأول للمدرسة الإنكليزية في العلاقات الدولية. على الرغم من أنه لم ينشر الكثير من أعماله في حياته سوى كُتيب صغير عام ١٩٤٦ وحوالي ستة فصول في كتب متنوعة. إلا أن

[134] Ibid 247

زوجته غبرائيل نشرت ثلاثة كتب بعد وفاته بالتعاون مع هدلي بول. الأول تح عنوان "نظام الدول" (System of States) عام ١٩٧٧، والثاني "توازن القوى" (Balance of Power) ١٩٧٨، والثالث "النظرية الدولية" (Intrnational Theory) ١٩٩٠بالتعاون مع برايان بورتر(Brian Porter) خلفاً لهدلي بول الذي توفي قبل سنوات. إن أشهر ما عُرف عن مارتن وايت هي محاضراته في مدرسة لندن للقتصاد والعلوم السياسية. قدّم وايت في هذه المحاضرات رؤيته حول نظرية العلاقات الدولية، و مفهوم المجتمع الدولي حيث كانت بدايته للمدرسة الإنكليزية مع هربرت بترفيلد إذ نشر الاثنان كتاباً محرراً بعنوان "تحقيقات دبلوماسية" أو "أبحاث دبلوماسية" (Diplomatic Investigations) الذي شكّل باكورة عمل الجمعية البريطانية لنظرية العلاقات الدولية. كتب وايت في إحدى مقالاته: إذا كانت النظرية السياسية في المجتمع المحلي هي تكهنات و نظرات حول الدولة، فالنظرية الدولية هي تكهنات و نظرات حول مجتمع الدول. بنظر وايت إن غياب الحكومة العالمية ووجود دول قومية متعددة مستقلة لا يعني بالضرورة أن السياسة الدولية محكومة بالعنف، والصراع وعدم وجود مجتمع دولي، وبالوقت نفسه لا يعني أن غياب السلطة المركزية يشكل عائقاً أمام العلاقات الاقتصادية والسياسية بين الأعضاء، ولكن يجب أن يُنظر أيضاً إلى هذا المجتمع على أنه مجتمع مختلف من حيث النوع؛ أي أنه وحيد في مجال العلاقات الدولية، وليس شبيهاً للمجتمع المحلي[١٣٥].

جون فنسنت (١٩٤٣-١٩٩٠) John Vencent

درس في قسم العلاقات الدولية في جامعة ويلز، ثم انتقل إلى جامعة ليستر لدراسة الماجستير، وبعدها حصل على درجة الدكتوراة أستراليا الوطنية حيث أشرف على أطروحته هدلي بول.
نشر أول كتاب له عام ١٩٧٤ وهو أطروحة الدكتوراة تحت عنوان "عدم التدخل والنسق الدولي" (Non Intervention and the International Order) أما كتابه الثاني، فقد جاء تحت عنوان "حقوق الإنسان في العلاقات الدولية"(Human Rights in International Rlations) ١٩٨٦. قدّم فنسنت في هذا الكتاب إطاراً نظرياً، ودراسة شاملة لمفهوم حقوق الإنسان.
إن المتتبع لتطور كتابات فنسنت يجد أنه أمام أكاديمي ذي نزعة إنسانية؛ يشارك المدرسة الإنكليزية افتراضاتها ورؤاها. وفي هذا الاتجاه يشير مارتن غريفث إلى أن هناك مجموعة من النقاط المشتركة بين أعضاء المدرسة، أهمها:

١- يشترك أعضاء المدرسة باستخدام المنهج المقارن لمسيرة المجتمع الدولي.
٢- يشترك الأعضاء في رؤيتهم حول أدبيات العلاقات الدولية، وتقسمها إلى ثلاثة تقاليد كما بيّنها مارتن وايت: العقلاني، والثوري، والواقعي.
٣- نوّه فنسنت إلى ضرورة دراسة العلاقة بين وجود النسق الدولي، وتحقيق العدالة في المجتمع.

تُعد كتابات فنسنت من الإضافات الكبيرة للمدرسة الإنكليزية بما قدمه حول مفهوم المجتمع الدولي، ومفهوم عدم التدخل، وضرورة احترام القانون الدولي. وقد انتقد في كتابه الأول كلاً من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي لسياستهما حيال العالم الثالث.
توفي جون فنسنت عام ١٩٩٠ فجأة بعد حياة مليئة بالعطاء الفكري. من الملاحظ أن ثلاثة من رواد المدرسة الإنكليزية توفوا في سن مبكر(مارتن وايت ٥٥، هدلي بول ٥٤، جون فنسنت ٤٧).

[135] Martin Wight, Herbert Buterfeild, Diplomatic Investigations, London, 1966, P.12

هدلي بول (١٩٣٢-١٩٨٥) Hedley Bull

ولد في سدني في أستراليا عام ١٩٣٢ وتخرج من جامعة سدني عام ١٩٥٢ ويحمل شهادة الإجازة بالفلسفة والقانون بدرجة شرف. كان قد تأثر بفلسفة الفيلسوف الأسترالي جون أندرسون. وفي عام ١٩٥٣ انتقل إلى جامعة أكسفورد في بريطانيا، وبعد تخرجه منها انتقل إلى مدرسة لندن للاقتصاد والسياسة بعد أن حصل على منحة منها، ودرس فيها العلاقات الدولية واستمع فيها أيضاً إلى محاضرات مارتن وايت حول العلاقات الدولية التي طرح من خلالها رؤيته لأدبيات العلاقات الدولية التي قسمها إلى ثلاثة تقاليد وهي: الواقعي، والثوري، و العقلاني. تركت محاضرات وايت أثراً كبيراً في نفس بول، ونرى ذلك واضحا بأعماله حول المجتمع الفوضوي" (The Anarchical Society) الذي يُعد من أهم مراجع المدرسة الإكليزية.

تعد مساهمة بول هي الكبرى في تطوير مفهوم النسق(Order) في المجتمع الدولي. وقد أبرز بول الهوية المنهجية للمدرسة الإنكليزية من خلال ما قدمه في الجدل المنهجي مع مورتون كابلان في الخمسينيات من القرن العشرين. وقد أشار بول إلى أهمية التاريخ، والفلسفة السياسية، والقانون الدولي في دراسة العلاقات الدولية، وتشكيكه بالمنهج السلوكي، ومنهجيته التي تعتمد الوضعية كفلسفة ومرجعية لها. درّس بول في جامعة هارفارد في الولايات المتحدة الأمريكية، ومن ثم في جامعة شيكاغو قبل أن يعود إلى سدني في أستراليا ١٩٦٦وقد توفي عام ١٩٨٥.

كتب هدلي بول عام ١٩٨٠منتقداً بشكل كبير السياسة الأمريكية تجاه العالم الثالث: "إن عبارتها العدوانية وتحضيرها المستمر للتدخلات العسكرية، من الواضح أن سياساتها صُممتْ لتعكس مزاجاً أكثر من تحقيق أهداف. إن عجزها عن كبح طموحها، وطمعها قد أدى إلى التأثير سلباً على وضعها كقائد للعالم الغربي، وفضح وجهها القبيح تجاه العالم الثالث"[١٣٦]. درس بول المجتمع الدولي بمراحل تطوره منذ معاهدة وستفاليا وحتى النصف الثاني من القرن العشرين .حيث أشار إلى أن المجتمع الدولي الذي بدأ أوروبياً قد تطور خلال القرون الثلاثة الماضية، لكن نقطة التحول هي مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية إذ ازداد عدد الدول في المجتمع الدولي نتيجة استقلال الكثير منها، وتراجع القوى الاستعمارية؛ مما أسهم بتأسيس الكثير من المؤسسات الدولية وظهور قواعد جديدة ساهمت بنقلة نوعية في طبيعة المجتمع الدولي في النصف الثاني من القرن العشرين. لقد كان واضحاً أن إضافة الكثير من الدول المستقلة حديثاً سيساعد على بناء المزيد من المنظمات الدولية والقواعد التي تكون الدول حيصة على تطبيقها؛ لأنها ضعيفة، وبحاجة إلى تطبيق هذه القواعد لحمايتها.

أهم المفاهيم للمدرسة الإنكليزية

المجتمع الدولي

يرتبط مفهوم المجتمع الدولي في أدبيات العلاقات الدولية بالمدرسة الانكليزية على الرغم من أن المدرسة لم تكن أول من تحدث عن هذا المفهوم. فعلى سبيل المثال هناك بعض الكتاب الذين يشيرون إلى أن مفهوم المجتمع كان قد أطلق على الدول الأوروبية في القرنين السادس عشر و السابع عشر لما كان بينها من علاقات ثقافية، وعلاقات تجارية ودينية تربطها مع بعضها في تلك الفترة.[١٣٧] لكن العقود الثلاثة الأخيرة شهدت أستخدام هذا المفهوم مع المدرسة الإنكليزية؛ وخاصة أن أتباعها جعلوا من مصطلح المجتمع الدولي محور دراساتهم واهتماماتهم. فعلى سبيل المثال هدلي بول أحد أبرز مفكري المدرسة الإنكليزية وضع عنوان كتابه "المجتمع الفوضوي"

---

[136] Hedley Bull, "The Great Irresponsible? The United States, the Soviet Union and World Order",*International Journal*, 35, 1980, P.437

[137] Alex Belamy, International society and the English school, London, P.13

"the Anarchical Society". وفيه يشير إلى أن المجتمع الدولي يوجد عندما مجموعة من الدول تعي أن هناك مصالح وقيم مشتركة تجمعها وأنها (الدول) مرتبطة بقواعد تحكم علاقتها البينية وأن هناك مؤسسات مشتركة بينها[١٣٨]. وقد ميز علماء العلاقات الدولية بين ثلاثة اتجاهات حول مفهوم المجتمع لدى المدرسة الإنكليزية:

الاتجاه البنيوي

ثلاثة مفكرين من المدرسة الإنكليزية تنتمي كتاباتهم إلى هذا الاتجاه، و هم آلان جيمس ، ومانينغ، وهدلي بول. حيث يُعد كتاب مانينغ طبيعة المجتمع الدولي Maning, the Nature of the International Society (١٩٧٥) من البدايات التي رسخت مفهوم المجتمع الدولي في الجدل الأكاديمي في بريطانيا. كذلك كتاب آلان جيمس Alan James دولة ذات السيادة Sovereign State (١٩٨٦) أيضاً من المساهمات الهامة للمدرسة الإنكليزية. إلا أن الكتاب الذي ارتبط مفهوم المجتمع الدولي معه هو كتاب هدلي بول Hedley Bull "المجتمع الفوضوي" The Anarchical Society ،[١٣٩] جرت العادة بين الأكاديميين في العلاقات الدولية عندما تذكر النظريات أو التيارات البنيوية يتبادر للذهن النظرية الواقعية الجديدة وكتابات كينث ولتز بالتحديد، أو النظرية الماركسية كونها تتخذ من طبيعة النظام الرأسمالي العالمي وحدة التحليل لفهم العلاقات بين الدول. أما الحديث عن تيار بنيوي في المدرسة الإنكليزية فهذا قد يبدوا غريباً للوهلة الأولى، إلا أن قراءة كتابات أتباع المدرسة الإنكليزية تظهر أن بنية النظام الدولي شكلت محوراً أساسياً في نظرة المدرسة الإنكليزية للعلاقات الدولية. ولكن البنية لدى الواقعية هي بنية مادية تتحدد بتوزيع القوة بين القوى العظمى فبنية النظام الدولي إما (أحادي القطبية، أو ثنائي القطبية، أو متعدد الأقطاب). أما أتباع المدرسة الإنكليزية فينظرون إلى أن العلاقات بين الدول تشكل مجتمعاً دولياً فيه نوع من النسقية (نسق Order) وليس فوضى يترتب عليها صراع حتمي، كما يرى الواقعيون. إذ يشير مفكرو المدرسة الإنكليزية إلى أن الدول تقيم مؤسسات ومنظمات دولية، وتعقد مؤتمرات، وتضع قوانين تضبط علاقاتها البينية[١٤٠]. وفي هذا الإطار يرى هؤلاء المفكرون أن المجتمع الدولي يختلف عن المجتمع المحلي. ففي المجتمع الدولي تتمتع الدول بسيادة تعطيها حرية التصرف في شؤونها الداخلية، وبسبب غياب السلطة المركزية الدول تعيش حالة الاعتماد على النفس Self- help لحماية أمنها. ولاتعترف الدول بسلطة أعلى منها فهي متساوية بالنسبة للقانون الدولي، لذلك لا يحق لأية دولة أخرى انتهاك هذه السيادة. أما المجتمع المحلي فالأفراد يرتبطون بعقد اجتماعي و قبول سلطة الدولة، و يلتزمون بتنفيذ القانون. ويعد هذا التمييز أساساً لرأي مانينغ بأن العلاقات الدولية هي علم منفصل عن العلوم السياسية[١٤١]

الاتجاه الوظيفي

يركز هذا الاتجاه في دراسته للمجتمع الدولي على الوظيفة التي يؤديها هذا المجتمع مقارنة مع الوظيفة المتوقعة منه. إذ يرى أتباع المدرسة الإنكليزية أن أي مجتمع يجب أن يؤدي الوظائف الآتية[١٤٢]:

---

138 Hedley Bull, The Anarchical Society, London, 1977, P. 16

139 Andrew Linklater, Hidemi suganami, The English School of International Relations, London, Cambridge University Press, 2006, p43

140 Ibid 44

141 Andrew Linklater, P. 44

142 Andrew Linklater, p.45

١- الحفاظ على الأمن.

٢- الاتفاق و ضرورة الالتزام بالقواعد والأعراف.

٣- احترام الملكية الخاصة والعامة.

وهنا يشير هدلي بول إلى أن المجتمع الدولي أيضاً فيه من السمات السابقة إذ تنظم الدول بتشكيلها مجتمعاً دولياً فيه قواعد وقوانين العلاقات الدولية تؤسس إلى نوع من الشعور بالأمان، كذلك الالتزام بقواعد القانون الدولي، لأنه من مصلحتها أن تفعل ذلك. والسمة الثالثة هي السيادة الدول التي تتعزز بوجود المجتمع الدولي، لأن ذلك يخفف من حالة الخوف، وعدم الوضوح بين الدول.

الاتجاه التاريخي

إن دراسة المجتمع الدولي من قبل هذا الاتجاه من المدرسة الإنجليزية اتخذ صفة الدراسات المقارنة وأشكال المجتمع الدولي حسب الفترات الزمنية المختلفة. تطور هذا التيار بشكل تدريجي استجابة لمجموعة من الأسئلة الهامة التي طرحتها اللجنة البريطانية لدراسة نظرية العلاقات الدولية. وقد حاول أتباع هذه المدرسة، وخاصة مارتن وايت، وهربرت بترفيلد الإجابة على كثير من الأسئلة التي كانت قد طرحت في تلك الفترة حول النظام الدولي. فقد حدد مارتن وايت ما يسمى " نظام الدول" System of States على أنه مجموعة من الدول ذات السيادة لا تعترف بسلطة أعلى ولديها علاقات دائمة متجسدة بأربع مؤسسات: رسل، و مؤتمرات ومنتديات، ولغة دبلوماسية ، وتجارة.
وبناء على هذا التعريف وجد وايت أن ثلاث حالات فقط من المجتمع الدولي قد وجدت خلال العصور الماضية. الأولى هي المجتمع الغربي الحالي الذي ظهر في القرن الخامس عشر، وأصبح الآن يغطي العالم كله. والثانية: والمجتمع الهليني، و الثالثة: المجتمع الذي برز بالصين إبان فترة الدول المتحاربة هناك[١٤٣]. كما درس مارتن وايت أشكال أخرى من المجتمعات الدولية وخاصة المجتمع في الفترة العباسية من الدولة الإسلامية، والفترة البابلية والعلاقة بين الدول الإسلامية والدول المسيحية في العصور الوسطى. وفي هذا الإطار طرح مارتن وايت أربعة أسئلة أساسية، هي:

١- برز نظام الدول تاريخياً على أساس الهيمنة الثقافية، فما هو المستوى المطلوب من الوحدة الثقافية حتى يكون النظام فعالاً؟

٢- هل من الضروري لكل مجتمع أو نظام دول كي يحافظ على استقراره الاعتماد على توازن القوى؟

٣- هل هناك حالة تم من خلالها تفضيل "نظام الدول" على نماذج أخرى من أشكال التنظيم السياسي ؟

٤- هل هناك نقاط تشابه مشتركة بين جميع أشكال "نظام الدول" أم هي حالات مختلفة؟

إن مجموع هذه الأسئلة شكل محور دراسة اللجنة البريطانية لنظرية العلاقات الدولية إذ أشار أحد روادها هدلي بورن إلى تساؤلاً مهماً حول نظام الدول الغربي الحالي ومدى فعاليته،

---

[143] Andew Linklater,Ibd 74

ومقارنته بالنظام الذي شهدته أوروبا في القرن التاسع عشر. وقد وصل إلى نتيجة مفادها أن النظام الحالي أقل ترابطاً من النظام الماضي، ويعزو ذلك إلى توسع النظام الحالي ودخول دول أخرى في النظام تؤثر بنيته وتسعى دائماً للحفاظ على هويتها، ووجودها من خلال إلغاء التمييز داخل النظام ، بينما النظام الأوروبي في القرن التاسع عشر كان أكثر تجانساً. وفي هذا الاتجاه أصدر آدم واطسون كتابه "تطور المجتمع الدولي"(The Evolution of the International Society)(١٩٩٢) وفيه درس نماذج المجتمعات الدولية التي شهدها العالم منذ القدم وحتى الآن من السومرية حتى المجتمع الأوروبي الغربي الحالي. وقد وجد واطسون أنه في الواقع، وفي الممارسة عندما يكون هناك قوتان أو قوى يوازن بعضها بعضاً، لابد من وجود موازن (المهيمن) حتى يحافظ على الاستقرار في البناء، وبناء على هذه النتيجة تنبأ واطسون بمستقبل المجتمع الدولي بعد انهيار الاتحاد السوفييتي بأنه سيكون متعدد القوى تقوده الولايات المتحدة الأمريكية[١٤٤].

النظام "النسق" في المجتمع الدولي Order in the International Society

كما رأينا في الفصل الثاني أن الواقعية الجديدة ترى أن النظام الدولي تغيب عنه السلطة المركزية، وأن الدول في حالة صراع مستمر؛ لأنها تسعى لحماية أمنها القومي، ولا تثق بالدول الأخرى، وأن حالة من عدم الوضوح تسود العلاقات الدولية تجعلها تعتمد على نفسها. وأن القانون الدولي لا يُطبق إلا بقدر ما يخدم مصالح الأقوياء. بالمقابل تقف المدرسة الإنكليزية موقفاً مختلفاً عن رؤية الواقعية الجديدة، حيث يرى أتباع المدرسة أن هناك مجتمعاً دولياً فيه نظام و" نسقية " Order تجعل من العلاقات بين الدول ليس كما يراه البعض بأنه يُوَلِد الصراع الدائم، إنما هناك قانون دولي و قواعد واعراف تضعها الدول، وتلتزم بتطبيقها خلال العلاقات الدولية. يحدد مارتن وايت Martin Wight النسق بأنه نموذج من العلاقات المستمرة بين الوحدات الفاعلة في المجتمع الدولي التي تحافظ فيمابينها على أهداف مشتركة تجمعها[١٤٥].

وقد ميز هدلي بول بين ثلاثة أنواع من الانساق أو النظام : النسق " Order " في المجتمع المحلي، في المجتمع الدولي ، في المجتمع العالمي.

١- النسق في المجتمع المحلي: هو مجموعة الترتيبات والقواعد التي تجعل المجتمع يستمر بالقيام بوظائفه، مثل: تأمين الأمن والسلام الأهلي، ومكافحة العنف، وحماية الملكية الخاصة والعامة في المجتمع.

٢- النسق في المجتمع الدولي: يتكون من مجموعة النشاطات والقواعد الهادفة لإلى تأمين الأهداف الأساسية للمجتمع الدولي، وهي الحفاظ على المجتمع نفسه واستقراره، واستمراريته، واستقلال الدول الأعضاء، وتطوير قواعد وقوانين للسلوك الدولي، مثل: قانون الحروب، وغيره من قواعد القانون الدولي.

٣- النسق في المجتمع العالمي: يشمل هذا النسق العالم كله كوحدة واحدة.

لتوضيح فكرة النسق أو النظام في المجتمع الدولي يشير هدلي بول في الفصل الأول من كتابه "المجتمع الفوضوي" Anarchical Society إلى أن النسق يعني وجود نوع من القواعد والأعراف التي يتفق عليها أفراد المجتمع حول عملية تراتبية مؤسسات المجتمع واية عملها.

---

144 Adam Watson, The Evolution of International Society, Routledge, London 1992

145 Martin Griffith, Key Concepts in International Relations, Routledge, London, 1999 p.223

ويفرق أفراد المدرسة الإنكليزية بين الفوضى التي يشير إليها أساتذة العلاقات الدولية نتيجة غياب السلطة المركزية (الأناركي Anarchy) والفوضى بمعنى غياب التنظيم و التراتب وعدم التناسق (Chaos). إذ إن الأولى لا تعني الفوضى الكاملة، بل هناك نوع من التراتبية أو القواعد المتعارف عليها في العلاقات بين الدول. فعلى سبيل المثال لو دخلنا مكتبة ووجدنا الكتب منثورة على أرض المكتبة بدون ترتيب هذه فوضى. بينما لو وجدنا الكتب موضوعة على الرف حسب الأحرف الأبجدية أو اللون أو الموضوع لكان هناك نسق من القواعد تنظم ترتيب هذه الكتب، وهذه هي ليست حالة فوضى. ففي المجتمع الدولي توجد قواعد دبلوماسية وقوانين و تفاهم حول الحياة في المجتمع الدولي. هنا تجدر الإشارة إلى أن وجود نموذج من العلاقات المستمرة التي تولد النسقية بين الدول لا تعني أن هناك عدالة. فقد يوجد نسق فيه من المفاهيم و النماذج المتكررة من العلاقات بين الدول غير عادلة. بمعنى آخر يجب عدم الخلط بين وجود النسق و العدالة. ففي الوقت الحاضر هناك نسق قوامه الفكر الغربي الليبرالي، ولكن لا توجد عدالة في العلاقات الدولية. فالولايات المتحدة والقوى العظمى تحتل دولاً، وتقتل شعوباً في ظل نظام أو نسق مبني على الفكر الليبرالي. وفي سبيل توضيح رؤية المدرسة الإنكليزية حول المجتمع الدولي نستعين بأحد روادها الجدد روبرت جاكسون Robert Jackson و ماكتبه في كتابه ميثاق عالمي: سلوك الإنسان في عالم من الدول (Global Covenant: Human Conduct in a World of States)

يقول جاكسون: " ليس المجتمع الدولي، إلا إطاراً أخلاقياً يجري اعتماده في عملية إصدار الحكم على السياسة الخارجية، و يقوم المجتمع الدولي، مثله مثل المجتمع المحلي الداخلي، على جملة من الشرائع المعيارية التي تحدد الجرائم وغيرها من أشكال إساءة تصرف. لعل أكثر شرائع السلوك وضوحاً في الشؤون العالمية هي قانون الأمم، والقانون الدولي. ثمة شرائع دولية أخرى هي الممارسات الدبلوماسية، وإجراءات المنظمات الدولية. غير أن شرائع المجتمع الدولي تكون أقل صرامة وتطلباً من نظيرتها لدى المجتمعات الداخلية المحلية. وآلية فرض القانون الدولي تكون أضعف وأكثر ليناً"[١٤٦].

المجتمع الدولي الحالي في رأي أتباع المدرسة الإنكليزية

إن المجتمع الدولي الحالي هو وليد الحقبة الوستفالية في العلاقات الدولية، وعمره تقريباً أكثر من ثلاثة قرون ونصف. بدأت مؤسساته تتبلور عبر هذه الفرة من خلال تراكمات القواعد الشرعية للسلوك الدولي ازدياد دور القانون الدولي؛ وخاصة خلال العقود الأخيرة حيث شهد العالم عودة إلى القواعد الأخلاقية في السياسة الدولية ضمن مجموعة من المتغيرات والتطورات التي جعلت بعض المفكرين يسمي هذه الفترة باللحظة الغروشيوسية الجديدة نسبة إلى هوغو غروشيوس وما قدمه من كتابات عن الفترة الزمنية التي عاصرها والتي شهدت تراجع الإمبراطورية المسيحية وولادة الدولة القومية واستقلال الدول من النفوذ الديني. تعود فكة الغروشيوسية الجديدة إلى أستاذ القانون الدولي في برنستون ريتشارد فولك[١٤٧]. إذ يعتقد فولك أن تغيراً في تنظيم نمط عمل الحياة الدولية يجري الآن بشكل متسارع يُذكّرنا بتغير كبير حصل قبل حولي ثلاثمائة وخمسين سنة، وعبرت عنه في تلك الفترة كتابات هوغو غروشيوس وتشريعاته. إنما ما يمكن ملاحظته خلال تتبع أدبيات المدرسة الإنكليزية في العلاقات الدولية أن هناك جيلين من الكتّاب: الجيل الأول ويتمثل بفكر مارتن وايت وهدلي بول الرواد الأوائل الذين اعتمدوا على مفهوم المجتمع الدولي بالفكر الغروشيوسي(غروشيوس) حيث تعد الدولة القومية الوحدة الأساسية في العلاقات الدولية،

---

[146][146] روبرت جاكسون، ميثاق العولمة: سلوك الإنسان في عالم عامر بالدول، ترجمة فاضل جتكر، العبيكان، الرياض، ٢٠٠٣، ص ٨٢. لقد تمت ترجمة عنوان الكتاب خطأ إذ العنوان الأصلي هو Global Covenant أي ميثاق عالمي، لأن العولمة هي Globalization

[147] Robert Jackson, Classical and Modern Thought on International Relations, New York, Palagrave, 2005, P. 123

ولها السيادة، والحق الطبيعي في اختيار نمط العلاقات الدولية التي تخدم مصالحها. بهذا المعنى يشير أتباع هذا التيار إلى أن هناك قوانين وقواعد وأعراف تضعها الدول، وتصبح هذه القواعد الوضعية جزءاً من مكونات المجتمع الدولي. ونجد ذلك الفكر في كتابات مارتن وايت، ومن بعدة زميله وطالبه هدلي بول فكلا المفكرين نوّه إلى ضرورة التمييز بين المجتمع المحلي داخل الدولة والمجتمع الدولي. فعلى سبيل المثال في مقالة أصبحت من أكثر المقالات تداولاً في العلاقات الدولية يبين مارتن وايت أن هناك فرقاً بين النظرية السياسية في المجتمع المحلي والنظرية الدولية، ويكمن هذا الفرق في طبيعة كل من المُجتَمَعَين حيث يقول وايت بأن هدف النظرية في المجتمع المحلي هو الحياة السعيدة، بينما هدف النظرية الدولية هو الأمن والبقاء. هذه النظرية تعكس رؤية وايت عن المجتمعَين، فالأول أي المحلي هو مجتمع ناضج فيه ثقافة، ووعي بين أفراده، وهناك قانون قابل للتطبيق، بينما الثاني أي المجتمع الدولي تغيب عنه السلطة المركزية، وتصبح فيه الحياة كلها متمحورة حول الأمن للدول الأعضاء. كذلك ذهب هدلي بول إلى النتيجة نفسها، وأشار إلى الفرق بين المجتمعَين؛ ولذلك وضع عنوان كتابه "المجتمع الفوضوي" مشيراً إلى غياب السلطة المركزية من المجتمع الدولي. لكنه يوضح بالوقت نفسه أن هذا المجتمع فيه قواعد، وقوانين، وتفاهمات تجعل فيه نوعاً من النسق؛ أي ليس الفوضى بمعناها المطلق. هذه الكتابات تجعلنا نتفق مع بعض أساتذة العلاقات الدولية في رأيهم حول وايت وبول بأنهما واقعيان إلى حد ما.

أما الجيل الجديد من المدرسة الإنكليزية فيمكن لنا أن نميز فيه بين تيارين، أحدهما أقرب إلى كتابات الفيلسوف الألماني إمانويل كانت الذي يرى أن هناك أخلاقاً دولية مثلما هناك أخلاقاً محلية، لكن هذا التيار لا يصل إلى حد القول إن هناك حكومة عالمية وإن المجتمع الدولي تحول إلى مجتمع عالمي إنساني وهذا ما يدّعيه أتباع التيار الثاني حيث يشيرون إلى عالمية الأخلاق والسلوك الإنساني؛ لأن الأفراد أينما كانوا هم ينتمون إلى عالم واحد[١٤٨]. الحقيقة أن كتاب روبرت جاكسون "ميثاق عالمي" يتضمن عنواناً فرعياً هو سلوك الإنسان في عالم الدول دليل على هذا الفكر الجديد في المدرسة الإنكليزية في جعل العلاقات الدولية علاقات إنسانية قبل كل شيء. يترتب على هذا التوجه غعتقاداً جديداً بأن الفترة الحالية؛ أي فترة ما بعد الحرب الباردة تختلف عن المرحلة التي شهدها غروشيوس التي وصفها ريتشارد فولك بالغروشيوسية الأولى، والمرحلة الحالية الغروشيوسية الجديدة التي تتعدى الدول كوحدات سياسية إلى الإنسان بنظر روبرت جاكسون؛ حيث يُصر جاكسون على إنسانية العلاقات الدولية وأهمية العوامل الاجتماعية وانتقاده للوضعية كفلسفة ومنهج للمعرفة[١٤٩]. يقول جاكسون: " إنني أقوم، حين استخدم عبارتي (المجتمع الدولي أو مجتمع الدول)، بتقديم العلاقات الدولية بوصفها مشغلاً إنسانياً مميزاً ذا وجوه أو ملامح مختلفة تفرّقه عن الأنواع الأخرى من النشاط الإنساني. يمكن تلخيص تلك الوجوه أو الملامح على النحو الآتي: تبقى العلاقات الدولية دائماً وكُلياً شكلاً من أشكال العلاقات الإنسانية، فالسياسة الخارجية نشاط إنساني أولاً وتأتي العلاقات الدولية ثانياً من صنع الساسة- وكلاء الدول وممثليها- الذين تكون مبادلاتهم، ومعاملاتهم، ونزاعاتهم، و اتفاقاتهم، وصفقاتهم، وترتيباتهم الأخرى المختلفة مطبوعة بخاتم سلطة السيادة، وقوتها الذي يكون جزءاً ذا شأن من العلاقات الدولية. ثالثاً نقاشاً وحواراً بين أولئك الناس حول طبيعة أو ماهية السياسات والنشاطات العائدة إلينا من جهة، والخاصة بهم من جهة أخرى، التي تكون مناسبة أو مبررة في ظل الظروف والملابسات السائدة. وتنطوي العلاقات الدولية حتماً، رابعاً، على قضايا أخلاقيةتحتل مركز القلب من الموضوع، وليست كما يتوهم البعض على الأطراف، والهوامش. ليس المجتمع الدولي الحديث من حيث الأساس، خامساً، إلا معياراً يتم الحكم على السياسة الخارجية، وعلى الدبلوماسية، وعلى التهديد بالقوة المسلحة أو استخدامها، وعلى غيرها من الفعاليات الدولية الأخرى بالرجوع إليه. إن المجتمع الدولي الحديث، سادساً، مؤسسة تاريخية بالتحديد: لم يكن

---

[148] Robert Jackson, P. 127

[149] روبرت جاكسون، مرجع سابق، ص ٦٧

موجوداً إلا في فترة معينة من الزمن، ولن يبقى موجوداً إلى ما لا نهاية. وتنطوي العلاقات الدولية، سابقاً، على نوعية خاصة من الأخلاق السياسية المنصبة مركزياً على الفعاليات الخارجية للسياسة: فأخلاق فن إدارة الدولة وحكمها هي لب الأخلاق الدولية"[150].

المدرسة الإنكليزية ونظرية العلاقات الدولية

في مقالة أصبحت من أهم المقالات لمارتن وايت تسائل الكاتب عن سبب غياب نظرية دولية شبيهة بالنظرية السياسية وقد رد مارتن وايت هذا الغياب إلى الفرق بين المجتمع المحلي والذي يشكل موضوع النظرية السياسية بينما المجتمع الدولي تغيب عنه السلطة المركزية وهذا يجعل الدول تبحث عن أمنها بنفسها ولاتعترف بسلطة أعلى منها وهذا ما يجعل النظرية الدولية أكثر صعوبة. لخص مارتن وايت خلال استعراضه للأدبيات في مجال العلاقات الدولية هذه الأدبيات بثلاثة اتجاهات، هي: الواقعي أوالمدخل الهوبسي نسبة لتوماس هوبس Thomas Hobes ، و المدخل العقلاني أو الغروتشيان نسبة إلى هوغو غروتشيوس Hugo Grotius وأخيراً المدخل الثوري أو الكانتي نسبة إلى إمانويل كانت Immanuel Kant. وعلى الرغم من أن وايت يُعَدّ من أتباع المدخل العقلاني، إلا أن بعض الكتاب رأوا في بداياته واقعياً. لكن مارتن وايت نفسه كتب حول الاتجاهات الثلاثة قائلاً " إن هذه التيارات كثلاثة جداول يسير بعضها إلى جانب بعض، كل منها له مساره الخاص لكنها ليست بالتوازي، بمعنى لا تلتقي أبداً، بل تتلامس بعض الأحيان حافتها، ومن ثم تعود لتأخذ كل منها مجراها المستقل. بهذا المعنى يريد وايت القول بأن التيارات لا تنفصل كلياً عن بعضها بعض ولكن هناك نقاط مشتركة بينها[151].

المدخل الواقعي: Realist Approach

يُبين مارتن وايت أن هذا المدخل اعتمد في نظرته للعلاقات الدولية على نظرية توماس هوبس التي وضعها في كتابه لافايثان Leviathan . حيث تساءل هوبس عن وضع المجتمع بدون سلطة مركزية تنظم العلاقات بين المواطنين، وتفصل في النزاعات، وتحافظ على الأمن؟ وقد أشار هوبس إلى أن في مثل هذه الحالة سيدخل المجتمع في صراع دائم الكل ضد الكل، والقوي يحصل على ما يريد، و الضعيف يقبل ما يفرض عليه. هذه الرؤية أيضا تصوّر النظام الدولي بحالة مستمرة من الصراع، وأن الدول لا يثق بعضها ببعض وطبيعة النظام الدولي تقود إلى عدم الوضوح في العلاقات بين الدول. يشير الواقعيون أيضاً إلى أن طبيعة الإنسان عدوانية، والفرد يسعى لزيادة مكاسبه بأية طريقة. فالعلاقات الدولية بالنسبة للواقعيين هي كما وصف هوبس المجتمع في ظل غياب السلطة المركزية الكل ضد الكل.

المدخل العقلاني: Rational Approach

يستمد هذا المدخل أفكاره من أفكار هوغو غروتشيوس أستاذ القانون والسياسي الهولندي الذي كتب كتاب قانون الحرب والسلام، وفيه يقدم رؤية واقعية حول القانون الدولي ودوره في العلاقات بين الدول. ويعتقد غروتشيوس أن الدول هي الوحدات الأساسية في المجتمع الدولي، وأن هذه الوحدات تضع القوانين وتعرف أنه من صالحها الالتزام بهذه القوانين. وقد بنى أتباع المدرسة الإنكليزية رؤيتهم للعلاقات الدولية على نظرية غروتشيوس بأن هناك

---

150 روبرت جاكسون، ص. ٦٨ (تم نقل القول كما هو في كتاب جاكسون ترجمة فاضل جتكر)

151 Alex Bellamy, "The English School of International Relations", in Martin Griffith, International Relations for Twenty-first Century, Routledge, London, 2007, P. 75

مجتمعاً دولياً فيه نظام وتراتب، ونسقية بين الدول تجعل العلاقات الدولية ليست كما يصورها الواقعيون بأنها حالة صراع دائم، بل هناك قواعد، و قوانين، وأعراف تلتزم بها الدول في علاقاتها مع الدول الأخرى. فالدول تلتزم بهذه القواعد، لأنه في حال العكس، أي عد الالتزام ستفقد الدول سمعتها، وستخسر علاقاتها مع الكثير من الدول الاخرى. المدرسة الإنكليزية في العلاقات الدولية تقف في الوسط بين الواقعية و رؤيتها بأن العلاقات الدولية عملية صراع مستمر، والمدخل الثوري بأن النظام الدولي هو نظام عالمي، والدول تسعى للتعاون، وأن الواقعية قد ضخمت دور القوة، والحقيقة أن الدول تهتم بالقيم، والقانون، وأن المجتمع الدولي يسير باتجاه حكومة عالمية.

المدخل الثوري: Revolutionary Approach

يسمي مارتن وايت هذا المدخل بالثوري، لأنه أقرب إلى المثالية من الواقع في طرحه، ورؤيته للعلاقات الدولية. إذ يعتقد أتباع هذا التيار بأن الأفكار والقيم الليبرالية التي تسود العالم ستساهم في بناء نظام عالمي فيه التعاون الدولي، وعلى القانون الدولي الذي قد يقود إلى مجتمع عالمي. وقد اعتمد هذا المدخل على كتابات، و نظرية إمانويل كانت حول الليبرالية والديموقراطية.

أما مارتن وايت والكثير من أتباع النظرية الإنكليزية رأوا أن المدخل الثوري يغالي في تعظيم دور القيم، والتعاون، والأفكار الليبرالية؛ بينما يغالي الواقعيون في تصويرهم العلاقات الدولية على أنها حالة من الصراع المستمر[١٥٢].

مستويات التحليل والمدرسة الإنكليزية

كما رأينا في بداية هذا الفصل يُعَدّ مفهوم المجتمع الدولي الاساس في رؤية المدرسة الإنكليزية للعلاقات الدولية، لذلك ليس غريباً أن يكون (المجتمع الدولي) مستوى التحليل الذي يُركّز عليه أتباع المدرسة الأنكليزية بالإضافة إلى الدولة القومية باعتبارها الفاعل الأساسي في المجتمع الدولي. كما تعير المدرسة الإنكليزية أهتماماً كبيراً للأفكار والهوية. وهنا تجدر الإشارة إلى التقاطع بين النظرية البنائية والمدرسة الإنكليزية، إذ يهتم أتباع الاتجاهين بمسألة الهوية والأفكار والقيم. وهذا ما جعل العديد من أساتذة العلاقات الدولية يؤكدون بأن بروز البنائية، وازدياد الاهتما بها خلال العقدين الأخيرين ساعد في إعادة الاهتمام بالمدرسة الإنكليزية.[١٥٣] الحقيقة أن بيري بوزان Barry Buzan و تموثي دن Timothy Dune كانا أول من أشار إلى العلاقة بين المدرسة الإنكليزية و النظرية البنائية. فكلا النظريتين اهتمتا في عملية تكوين الهوية ودور القوى الاجتماعية في عملية التفاعل بين الفاعل و البناء. أيضاً كلا النظريتين اهتمتا في المنهج التاريخي الاجتماعي في دراسة الظاهرة في العلاقات الدولية.

التغيير لدى أتباع المدرسة الإنكليزية

يشير أتباع المدرسة الإنكليزية إلى أن التغيير في النظام الدولي يأتي من خلال عملية التطور التدريجي بحيث تتراكم وتترسخ القيم والقواعد من خلال الممارسات للدول الأعضاء، ويصبح هناك مجتمع دولي له أسسه، وسماته الخاصة. وكما رأينا خلال هذا الفصل أن آدم

---

[152] Andrew Linklater, Hidemi Suganami, Ibid,

[153] Ibid,

واطسون قد أشار في كتابة تطور المجتمع الدولي إلى وجود نظام دولي في أغلب مراحل التاريخ الإنساني.

خاتمة:

المدرسة الإنكليزية في العلاقات الدولية هي الاسم الذي يطلق على مجموعة من الكتاب الذين اتخذوا من أفكار هوغو غروتشيوس منطلقاً لدراساتهم . محور الاهتمام الأول لهؤلاء الكتاب هو مفهوم المجتمع الدولي الذي تشكله الدول ذات السيادة من خلال علاقاتها، وتعاون بعضها مع بعض. ينظر أتباع هذه المدرسة إلى المجتمع على أنه فوضوي، ولكن هذا لايعني أن هناك صراع مستمر بين الدول كما يصفه الواقعيون؛ بل على العكس إن القانون الدولي والأعراف والقواعد الدولية تحد من العنف في المجتمع الدولي إلى حد كبير. ميز أتباع المدرسة الإنكليزية بين المجتمع المحلي والمجتمع الدولي. إذ يتضمن الأول قانوناً وسلطة تنفيذية وسلطة مركزية تحافظ على الأمن والسلم الأهلي، بينما تغيب السلط المركزية عن النظام الدولي، والدول تسعى لزيادة قوتها لتحافظ على الأمن القومي لها. ولكن هذا لا يعني أن المجتمع الدولي فوضوي بمعنى (Chaos) بل يعتقد المفكرون في هذه المدرسة أن هناك نسقاً ونظاماً، ونوعاً من الهرمية (Order) في العلاقات الدولية أكثر مما يعتقد الواقعيون.

أهم مفاهيم الفصل السابع

المجتمع الدولي، النسق (Order)، المجتمع العالمي، المدخل العقلاني كما وصفه مارتن وايت، المدخل الثوري.

أسئلة للدراسة:

١- هل عالم ما بعد الحرب الباردة يشكل مجتمعاً دولياً أم نظاماً دولياً؟

٢- ما معنى النسق في النظرية الإنكليزية؟

٣- ما الفرق بين المجتمع الدولي، و المجتمع المحلي؟

٤- ماهي افتراضات المدرسة الإنكليزية.

٥- هل هناك نقاط تقاطع بين البنائية، والمدرسة الانمكليزية.

إلى الطالب

مقدمة:
إن أكثر ما وجدته مؤلما خلال تدريسي لمادة نظرية العلاقات الدولية في جامعة دمشق وجامعة القلمون الخاصة هو اسلوب قراءة الطلاب وتعاملهم مع المادة العلمية. فقد ظهر لي منذ البداية أن هناك قدرة كبيرة لدى الطلاب على حفظ المعلومات ولكن لا توجد مهارات استخدام هذه المعلومات في التحليل وتوظيفها لفهم الظاهرة السياسية في العلاقات الدولية. فالطالب يحفظ وكأنه كمبيوتر وفي الامتحان يعيد كل المعلومات التي قرأها أو حتى سمع بها دون تفكير.
في هذا الفصل أود أن أقدم للأخ الطالب فكرة بسيطة حول إمكانية استخدام النظرية لفهم،و شرح والتنبؤ في لظاهرة معينة...هذه هي وظيفة النظرية قبل كل شيء أن تساعد نا على (الفهم، والشرح، ولتنبؤ) لظاهرة ما في العلاقات الدولية.
قبل الذهاب إلى النظريات لابد لنا من مثال على استخدام مستويات التحليل في العلاقات الدولية، لأن أغلب النظريات تنطلق من أحد هذه المستويات.
كما رأينا في هذا الكتاب أن أساتذة العلاقات الدولية طوّروا أدوات تحليل لتساعدهم في فهم الظاهرة السياسية في مجال دراستهم. من هذه الأدوات ما يسمى مستويات التحليل. يعود الفضل في هذا المدخل إلى مجموعة من أساتذة السياسة والعلاقات الدولية، وأهمهم كينث ولتز Kenneth Waltz و ديفد سنغر David Singer . ينطلق العلماء في هذا الإطار من الفكرة التالية: إن شرح أية ظاهرة في العلاقات الدولية، ودراستها يمكن أن يتم حسب ثلاثة مستويات: الأول هو الظام الدولي، والثاني مستوى الدولة، وأخيراً مستوى الفرد. وكنا قد رأينا في الفصل الأول ماهي العوامل التي تدخل في كل مستوى من هذه المستويات.

مثال:

تطبيق مستويات التحليل لفهم الحرب الامريكية على العراق ٢٠٠٣

في عام ٢٠٠٣ أقدمت الولايات المتحدة الأمريكية على احتلال العراق، و كطالب علوم سياسية أو علاقات دولية أو حتى كمواطن عادي لابد أنك تساءلت عن الأسباب وراء هذه الخطوة.
وباستخدام مستويات التحليل يمكن لنا أن نجد هذه الاسباب تكمن في النظام الدولي او الدولة أو الفرد.

مستوى النظام الدولي:
إن أهم مايميز النظام الدولي عادة هو بنيته، أي توزيع القوة بين القوى العظمى؛ لذلك يجب كخطوة أولى النظر إلى بنية النظام الدولي في فترة العدوان الأمريكي على العراق. النقطة الثانية هي دور المنظمات الدولية والقوى الفاعلة الأخرى، والقانون الدولي. النقطة الثالثة الأحلاف والتحالفات الدولية الفاعلة في تلك الفترة. واقع الاقتصاد الدولي و دور الشركات العابرة للحدود.
إن انتهاء الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفيتي أدى إلى بقاء الولايات المتحدة القوة العظمى الوحيدة، ونقل النظام الدولي إلى نظام أحادي القطبية تُحدد معالم العلاقات الدولية فيه إلى حد كبير الولايات المتحدة الأمريكية. فالنظام الدولي إبان الاحتلال كان أحادي القطب تغيب عنه السلطة المركزية و الولايات المتحدة عَرّفتْ مصلحتها الوطنية المعرفة بالأمن القومي بوجوب السيطرة على منطقة الشرق الأوسط لأهميته المعروفة. فالمنطقة تحتوي على أكبر احتياطي عالمي من البترول والغاز، والممرات المائية والموقع الاستراتيجي للوطن العربي، كذلك وجود "اسرائيل" كدولة حليفة للولايات المتحدة، وتتعهد دائماً بحمايتها. أيضاً في ظل غياب الدور

الفعال للدول الأخرى، مثل: الصين، و روسيا، وبعض الدول الأوروبية وخاصة في تلك الفترة لم تكن الصين قوية جداً قادرة على أن تقف أمام الولايات المتحدة. أما روسيا، فلم تكن قد تعافت تماماً من مشاكلها الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية الداخلية، أضف إلى تعاطف الدول مع الولايات المتحدة بعد أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١، هذا كله سمح للولايات المتحدة بأن تنفرد في قراراتها لغزو العراق. لو كان الاتحاد السوفيتي موجوداً لما أقدمت الولايات المتحدة على عملها هذا، حتى لما أقدم العراق على غزو الكويت ١٩٩٠ ولما كانت هناك قضية عراقية، لأن تقاسم النفوذ إبان الحرب الباردة كان يمنع القوى العظمى من اتخاذ أي إجراء قد يثير قلق القطب الآخر. أما دور المنظمات الدولية فهو كما وصفه الواقعيون بأنه يخدم مصالح القوى العظمى. فقد استخدمت الولايات المتحدة المنظمات الدولية لتحقيق أهدافها، ومصالحها طيلة فترة ما بعد الحرب الباردة. إذا وجود نظام دولي أحادي القطب تغيرت فيه قواعد اللعبة وغاب عنه دور المنظمات الدولية و القانون الدولي ساعد على مثل هذا القرار بغزو العراق.

مستوى الدولة:

إن أول ما يجب أن ننظر إليه هو طبيعة النظام السياسي، والمؤسسات والبيروقراطيات التي تساهم بصنع القرار؛ بالإضافة إلى جماعات الضغط، والرأي العام، والوضع الاقتصادي في البلد. النظام السياسي في الولايات المتحدة هو نظام ديموقراطي فيه العديد من المؤسسات و البيرقراطيات التي تساهم في صنع القرار. كذلك تلعب جماعات الضغط والمصالح دوراً مهما مع الرأي العام في التأثير على عملية صنع السياسة الخارجية.

لقد كان للكونغرس الأمريكي دور كبير في رسم السياسة الخارجية الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط، لأن أعضاء الكونغرس حريصون دائماً على دعم "اسرائيل" لأنهم يريدون الترشح مرة ثانية للكونغرس وكل من لا يفعل ذلك يجد صعوبة في إعادة الانتخاب. فاللوبي الصهيوني يتمتع بتأثير كبير في الولايات المتحدة. كذلك وزارة الدفاع و وزارة الخارجية، و وكالة الاستخبارات الأمريكية و المؤسسات الأخرى كان لها دور فاعل في تبرير قرار الاحتلال. وقد رأينا وزير الخارجية الامريكي كولن باول يقدم لمجلس الأمن صوراً ودلائل مزورة عن مراكز عراقية لأسلحة دمار شامل، وقد زوده بها جورج تنت مدير وكالة الاستخبارات الأمريكية. كل هذه البيروقراطيات و المؤسسات ساهمت بشكل مباشر أو غير مباشر بقرار الاحتلال؛ بالإضافة إلى الرأي العام الذي يؤثر بشكل كبير، و خاصة في مسائل استراتيجية، مثل: الحرب. الشركات الكبرى أيضاً لعبت دوراً مهماً لانها أرادت الاستثمار في عمليات البناء وخاصة في قطاع البترول في مرحلة ما بعد سقوط النظام في العراق.

مستوى الفرد

هل أثرت العوامل الشخصية المتعلقة بجورج بوش الابن في عملية صنع قرار الحرب على العراق؟ هل كان للفريق المحيط للرئيس بوش دور كبير في عملية اتخاذ القرار؟ هل لعب الدين دوراً في قرار جورج بوش؟ هذه الأسئلة وأخرى تتعلق بشخصية صانع القرار يجب النظر فيها لمعرفة أثرها في عملية صنع القرار. في كثير من الأحيان تلعب شخصية صانع القرار دوراً محورياً في اتخاذ القرار، و نوعه. ففي حالة جورج بوش يرى العديد من أساتذة العلاقات الدولية أن شخصيته وخلفيته الدينية وايديولوجيته المحافظة لعبت دوراً كبيراً في اتخاذ قرار احتلال العراق. لقد صرح الرئيس جورج بوش بأنه عاد، والتزم دينياً بعد فترة طويلة من "الضياع" كما أسماها. كذلك أدت والدته دوراً كبيراً في التأثير عليه في سبيل العودة إلى الدين؛ بالإضافة إلى ذلك كانت مجموعة مستشاريه و مساعديه من المحافظون الجدد الذين أثروا في قراره.

والآن نطرح السؤال التالي: هل كانت أسباب الحرب على العراق تكمن بطبيعة النظام الدولي أم بطبيعة النظام السياسي الأمريكي و عوامل داخلية في الدولة أم شخصية صانع القرار هي السبب؟ قد يقول قائل بأن المستويات الثلاثة لعبت دوراً في اتخاذ القرار!! وهنا يجب أن تكوّن رأيك الخاص.

مثال: ٢
نظرية العلاقات الدولية والحروب الأهلية
أحد أهم الانتقادات التي وجهت لنظرية العلاقات الدولية بشكل عام والنظرية الواقعية الجديدة بشكل خاص بأن هذه النظريات عاجزة عن تفسير ظاهرة الحروب الأهلية. ولكن الحقيقة أن أغلب النظريات لديها ماتقوله حول أسباب هذه الحروب.

الواقعية والواقعية الجديدة:
قبل أن تبدأ بتحليل ظاهرة الحروب الأهلية، و معرفة أسبابها، لابد أن تقف عند الافتراضات الأساسية للنظرية التي ستستخدمها في تحليلك. فالواقعية الكلاسيكية تنطلق من طبيعة الإنسان و سعيه لتحقيق مصالحه. وإن الإنسان بطبعه أناني، وعدواني. ففي حالة غياب السلطة المركزية في المجتمع يصبح الكل ضد الكل في سعيهم لتحقيق أهدافهم. فالواقعية الكلاسيكية ترى أنه في ظل انهيار الحكومة المركزية، و تراجع قدرتها على فرض الأمن و السلام يصبح الخيار الوحيد أمام الأفراد هو الاعتماد على الذات، وتسود الفوضى وتتقاتل فئات المجتمع لحماية ماتراه حقاً لها. ويصبح الصراع سمة المجتمع وقانونه.
أما الواقعية الجديدة التي تنطلق من أن بنية النظام الدولي تؤثر بشكل كبير في سلوك الوحدات الفاعلة فيه كما يقول كينث ولتز. فالواقعيون الجدد يرون أن أسباب الحروب الأهلية تكمن في التغيرات البنيوية منذ انتهاء الحرب الباردة. ففي ظل نظام أحادي القطب تغيب عنه أسس توازن القوى تصبح سياسة القائد للنظام الدولي المحدد الأكبر لسلوك القوى الأخرى. وقد رأينا أنه خلال العقود الأخيرة عززت السياسات الأمريكية الانتماءات والهويات الفرعية، و حرضت على الصراعات الداخلية تحت مسميات أخرى، وهاجمت مفهوم السيادة بحجة أنه لم يعد يصلح لمرحلة ما بعد الحرب الباردة. فالحروب الأهلية هي نتاج طبيعي للنظام الدولي الحالي وغياب توازن القوى الذي سمح للقوى العظمى، و خاصة الولايات المتحدة بالتدخل في شؤون البلدان الفقيرة، و تفتيتها، و تركها عرضة للصراعات الداخلية.

النظرية الليبرالية
كما ذكرنا سابقاً يجب التركيز على الافتراضات الأساسية للنظرية المراد تطبيقها. فالنظرية الليبرالية تركز على الحرية الفردية بأشكالها السياسية والاقتصادية. فالمجتمع والسلطة وُجدتا لأداء وظائف لصالح الفرد. أتباع النظرية يرون في الحروب الأهلية صراعاً في سبيل تحقيق الحرية والديموقراطية وحقوق الإنسان. إذ إن هناك أقليات تناضل من أجل حقوقها المغتصبة من قبل النظم الدكتاتورية. فالحروب الأهلية نتاج القمع، وغياب الحريات الفردية ، وشعوب تواقة للحرية والديموقراطية وأخيراً ساهمت قوى العولمة والثورة التكنولوجية بمساعدة هؤلاء المواطنين بتكوين ثقافة سياسية جديدة قوامها الحرية. طبعاً يجب التركيز أيضاً على دور الأفكار والقيم الليبرالية التي ساهمت بنشر الوعي لدى الأفراد في هذه المجتمعات.

الماركسية أو الراديكالية (العالمية):

إن التركيز الأساسي للنظرية الراديكالية هو على طبيعة النظام الرأسمالي العالمي، وتقسيمه بين من يملك ومن لا يملك، والاستغلال الذي يتم من قبل الأغنياء للفقراء. إن النظرية الراديكالية ترى أن أسباب الحروب الأهلية تكمن في طبيعة النظام الرأسمالي، والسياسات التي تنتهجها الدول الصناعية لاستغلال الدول الفقيرة، والحفاظ على هذه الدول ضعيفة غير قادرة على أخذ زمام السيطرة على مقدراتها و الاستقلال عن الدول الاستعمارية. هذا من جهة، ومن جهة أخرى هناك من يرى في السياسات الاستعمارية القديمة التي قسمت الدول إلى دويلات دون الانتباه إلى الطبيعة الديموغرافية للدول بل كان الهدف من التقسيم إبقاء هذه الدول في حالة صراع داخلي،

وضعيفة ليسهل السيطرة عليها، ونهب مقدراتها. حيث بقيت هذه البنى أو التركيبة مصدر خطر دائم على المجتمع عندما تسمح الشروط بذلك.

البنائية:

قد تكون النظرية البنائية الأقدر على شرح الحروب الأهلية وتفسيرها، وفهمها ،كونها تركز على الهوية، والأفكار، والبناء الاجتماعي في النظام الدولي. في مرحلة ما بعد الحرب الباردة ازداد الاهتمام بشكل كبير بمسألة الهوية و الانتماءات العرقية وخاصة في ظل غياب السلطة المركزية في المجتمعات التي شهدت حروباً أهلية. فعلى سبيل المثال نجد الحرب الأهلية في يوغوسلافيا السابقة قد حدثت بعد انهيار النظام المركزي في بلغراد؛ لأن قيادة جوزيف بروز تيتو و ما تلاها من حكومات قد فشلت في ترسيخ الهوية الوطنية اليوغسلافية، وتراجع الهويات الفرعية الأخرى، حيث بقيت هذه الهويات لدى أفراد المجتمع اليوغسلافي وحين غابت السلطة المركزية عادت وظهرت إلى السطح، وشكلت المرجعية للأقليات المتعددة التي ما زالت مؤمنة بطلب، الانفصال عن الحكومة المركزية. العراق مثال آخر حيث شكلت مسألة الهوية الأساس في الحرب الأهلية هناك. فعلى الرغم من سعي الحكومة العراقية في فترة ما قبل الاحتلال لبناء وطن علماني يحترم حقوق كل الأقليات، إلا أن ذلك لم يمنع ظهور الهويات الفرعية عندما ضعفت الحكومة المركزية وأصبحت غير قادرة على فرض النظام في العراق.

مثال: ٣

نظرية العلاقات الدولية وعالم ما بعد الحرب الباردة

أي النظريات أقدر على شرح و تفسير عالم ما بعد الحرب الباردة؟

لابد من العودة إلى افتراضات كل نظرية ورؤية أتباع هذه النظرية للعالم كي نستطيع الإجابة على السؤال السابق.

الواقعية والواقعية الجديدة: تنطلق الواقعية من أن الدولة القومية هي الفاعل الأساسي في النظام الدولي الذي تغيب عنه السلطة المركزية، وتسعى هذه الدولة لتحقيق مصالحها الوطنية المعرفة بالأمن القومي . والسياسة الدولية كأي سياسة هي صراع على القوة. فهل تغيرت أي من هذه الحقائق بعد الحرب الباردة؟ يجيب كينث ولتز على هذا السؤال في إحدى مقالاته بأن قواعد اللعبة لم تتغير. الدولة القومية مازالت الفاعل الأهم في النظام الدولي، والمعضلة الأمنية مازالت قائمة بين الدول و الصراع بين الدول هو سمة العلاقات الدولية، ومازال الأمن القومي هو الأساس في المصلحة الوطنية للدول، وإلا لماذا تخوض الولايات المتحدة الأمريكية حروباً عديدة في هذه الفترة. ولماذا تتنافس الدول العظمى بسباق تسلح واضح؟ ولماذا تنفق الولايات المتحدة مقدراتها وتخوض حروباً لبقائها رقم (١) في العالم؟ إن الواقعية ترى أن لعبة القوة، والشطرنج في السياسة الدولية لم تتغير، وإن كان هناك بعض الظواهر التي تخفي بعض ملامح هذا النظام، مثل: رفع شعارات الديموقراطية، وحقوق الإنسان، واستخدام القوة الناعمة بدلاً من القوة العسكرية. فعالم ما بعد الحرب الباردة مازال فيه من القتل، و العنف، وسباق التسلح أكثر من فترة الحرب الباردة.

النظرية الليبرالية

كما بدأت مع النظرية الواقعية بالنظر إلى الافتراضات الأساسية للواقعية لابد من النظر إلى الرؤية الأساسية للنظرية الليبرالية، ومن ثم محاولة فهم عالم ما بعد الحرب الباردة.

تنظر النظرية الليبرالية إلى أن الدولة القومية، والقوى الفاعلة الأخرى من غير الدولة تلعب دوراً مهماً في العلاقات الدولية. هذا يعني أن الليبرالية تعتقد بأن المنظمات الدولية والمنظمات غير الحكومية أصبحت فاعلة مثل الدولة القومية. كذلك ترى الليبرالية أن القانون الدولي مهم في العلاقات بين الدول؛ بالإضافة إلى ذلك يرى أتباع الليبرالية أن التعاون، وليس الصراع هو السمة الأساسية للعلاقات الدولية وأن القيم مهمة بالنسبة للدول. فهل هذا هو حال عالم ما بعد الحرب الباردة؟ الليبراليون يجيبون بنعم، ويقولون فقط انظر إلى عدد المنظمات الدولية وغير الحكومية كم ازداد هذا العدد، وكم تنامى دور هذه المنظمات خلال العقدين الماضيين؟ أنظر كيف انتقل الكثير من الدول إلى الديموقراطية الليبرالية من نظم شمولية دكتاتورية. كذلك ينوه أتباع الليبرالية إلى انتشار المفاهيم الليبرالية، مثل: الحرية، وحقوق الإنسان، والحرية الاقتصادية؛ بالإضافة إلى ذلك يقدم الليبراليون أدلة على انتشار العولمة التي جعلت العالم قرية واحدة بحيث أعطت الأولوية للعوامل الاقتصادية، ونشرت التكنولوجيا، وكم أفادت هذه القوى الدول الفقيرة حول العالم؟ فمنذ نهاية الحرب الباردة قامت العديد من الدول الجديدة التي انفصلت عن دول كانت تضمها قسراً. هكذا يرى الليبراليون أن الليبرالية أقدر على وصف عالم مابعد الحرب الباردة.

الماركسية أو العالمية:

تنطلق العالمية من بنية النظام الرأسمالي العالمي المؤطر الذي يتم من خلاله استغلال الدول الغنية في المركز للدول الفقيرة في الأطراف. وأن الإمبريالية هي تصدير الأموال إلى الدول الفقيرة، و استغلال الأيدي العاملة الرخيصة، ومن ثم نهب خيرات الدول الفقيرة، و تركها تغرق في فقرها. هل تغير النظام الرأسمالي، و انتهت سياسة الاستعمار، ونهب ثروات الشعوب؟ يرى أتباع الماركسية أو العالمية أن النظام الرأسمالي لم يتغير، وأن عملية الاستغلال و نهب الثروات مازالت قائمة. كما هو معروف يعتقد أتباع الماركسية بأن التغيير يجب أن يكون كاملاً و جذرياً، لكنه شبه مستحيل. قد يتغير دور اللاعبين و أوضاعهم في النظام، ولكن يبقى النظام رأسمالياً مؤطراً بين من يملك، ومن لا يملك. فالنظام الرأسمالي مازال على حاله، وعملية النهب مستمرة والحروب التي تشنها الدول الاستعمارية على الدول الفقيرة ما هي إلا برهان على استمرارية هذا النهب، ولكن بصورة مختلفة تتخفى وراء مفاهيم، وقيم إنسانية، ولكن جوهرها هو الاستعمار بشكله الجديد. وما ظاهرة العولمة إلا وجه من أوجه هذا النظام الرأسمالي.

مثال: ٤

ما هي ملامح النظام الدولي القادم؟ هل سيبقى أحادي القطب أم سينتقل إلى شكل أخر؟

القصد من هذا المثال هو التركيز على مسألة التنبؤ في العلاقات الدولية.

بالتأكيد يجب أن تكون ملماً برؤية كل نظرية حول التغيير في بنية النظام الدولي، حتى تتمكن من استخدام أدواتها، ومنهجها للتنبؤ بطبيعة النظام الدولي. فيمايلي لمحة بسيطة حول رؤية كل نظرية من النظريات التي درسناها لتساعدك في التفكير في السؤال السابق.

الواقعية:

تُنتقد الواقعية، كما رأينا سابقاً، بأنها ضعيفة في طرح مسألة التغيير، ولم تستطع التنبؤ بانتهاء الحرب الباردة، هذا ما أورده جان لويس غلدس أستاذ التاريخ الأمريكي. ولكن على الرغم من ذلك نقول إن الواقعية قدمت الكثير في مسألة التغيير، والتنبؤ، ويمكن لنا توظيف نظرية كينث ولتز الواقعية الجديدة (البنيوية) أو نظرية الحرب والتغيير في السياسة العالمية بروبرت غلبن، أو نظرية تحول القوة لأورغانسكي للتنبؤ بالتغيير في بنية النظام الدولي الحالي.

تقوم نظرية ولتز على مبدأ توازن القوى، وفي حال قادت التفاعلات بين الدول الساعية لحماية أمنها القومي في ظل نظام تغيب عنه السلطة المركزية بزيادة قوتها أو التحالف مع دول أخرى قد يؤدي إلى اختلال توازن القوى بين الدول العظمى ومنه إلى تغيير في بنية النظام الدولي. أما نظرية غلبن ، فكما رأينا سابقاً تركز على التباين في نسب النمو الاقتصادي والتكنولوجي (قوة الدول)، الذي بدوره يقود إلى اعادة توزيع القوة في النظام الدولي، وبدوره يقود إلى اختلال توازن القوى . وهذا يؤدي إلى عدم استقرار، ومن ثم تحاول الدول التعامل مع هذا الوضع الذي قد يؤدي إلى التغيير.

في حين تناول أورغانسكي مسألة التغيير بتركيزه على العامل الصناعي والتكنولوجي الذي يساعد الدول على زيادة قوتها، ويحدث تحول في القوة. بهذه الخطوط العيضة يمكن لك التفكير في النظام الدولي الحالي. فلدينا الآن دولة قوية على رأس النظام الدولي هي الولايات المتحدة الأمريكية، فهي تريد أن تبقى بنية النظام الدولي أحادي القطب بقيادتها فهي (قوية قانعة) بينما تمثل الصين قوة صاعدة (قانعة مؤقتاً) وقد تتحول إلى دولة غير قانعة، فهي بحكم نمو قوتها ستضطر إلى السعي للتغيير عندما تصبح على قناعة بأن قوتها تتطلب دوراً أكبر لحماية مصالحها. كذلك الحال بالنسبة إلى قوى أخرى صاعدة ، مثل: روسيا الاتحادية، و الهند، وجنوب أفريقيا والبرازيل. يطلق على هذه الدول مصطلح (بريكس) (BRICS). فهل ستواجه الولايات المتحدة الأمريكية هذا الصعود بإجراءات تعوق هذه الدول من الاقتراب من قوتها ؟ أم ستقبل كقائد للنظام الدولي بروز هذه القوى بشكل سلمي وبذلك يكون النظام الدولي في طريقه إلى بنية جديدة إما ثنائي ويكون طرفيه هما الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي واليابان من جهة، ودول البريكس من جهة أخرى، أو متعدد الأقطاب كما يعتقد البعض الآن.

الليبرالية:

نقطة البداية هي نظرة الليبرالية إلى النظام الدولي، والتغيير. فمن هذه الناحية تنظر الليبرالية إلى النظام الدولي على أنه عمليات مستمرة، وتفاعلات ، وليس شيئاً ثابتاً ومعطى وهناك ثلاث وجهات نظر لليبرالية حول النظام الدولي:

١- تنظر الليبرالية إلى النظام الدولي على أنه فوضوي (Anarchic) ، ولكن ليس كما يصوره الواقعيون بأن الصراع سمة هذا النظام؛ بل على العكس، الدول تجد من مصلحتها التعاون لحل مسألة المعضلة الأمنية؛ لذلك تقيم الدول المنظمات الدولية، وتعقد المؤتمرات، و تضع القوانين لضبط السلوك الدولي. ففي ظل هذا النظام إن ازدياد دور المنظمات الدولية، والقوى الفاعلة غير الدولة قد يغير بنية النظام الدولي.

٢- تنظر الليبرالية أيضاًإلى بنية النظام الدولي كنظام فيه درجة عالية من الاعتمادية، والتشابك المتبادل. هذه الاعتمادية التي قد تقود إلى التكامل بين الدول، ونشوء وحدات جديدة إعلى من الدول الأصلية. وهذا قد يغير بنية النظام الدولي. أيضاً تؤدي التكنولوجيا والثورات العلمية كونها قوة دافعة للتكامل، و التشابك أو الترابط المتبادل دوراً كبيراً بنظر الليبراليين في تحول بنية النظام الدولي.

٣- أيضاً ينظر أتباع الليبرالية إلى النظام الدولي على أنه مجتمع دولي فيه القواعد والقوانين، والأعراف التي تلتزم بها الدول طواعية ومع تطور هذا المجتمع قد ينتقل النظام الدولي إلى مجتمع دولي كالمجتمع المحلي.

إن نظرة متفحصة للعقود الثلاثة الماضية تجعلنا نتساءل هل هناك ازدياد في درجة التكامل والاعتمادية والترابط المتبادل بين الدول لحد نشوء تكتلات أو وحدات فاعلة أعلى من الدول، وبذلك يمكن أن ينتقل النظام الدولي إلى شكل آخر؟ وهل هناك تزايد لدور القوى الفاعلة غير الدولة لتصبح قادرة على فرض وتحديد طبيعة التفاعلات الدولية، وتغيير بنية النظام الدولي؟

على الرغم من التقدم الكبير الذي شهدته العلاقات الدولية في مرحلة ما بعد الحرب الباردة من انتشار الديموقراطية وقيم ليبرالية، وحقوق الإنسان، ونشوء بعض الدول الجديدة التي انفصلت عن دولها الأم، هل نستطيع التوقع بتحول النظام الدولي إلى مجتمعاً دولياً؟ من وجهة النظر الليبرالية إن النظام الدولي الحالي سيبقى وحداته الفاعلة هي الدولة، وغير الدولة مع ازدياد مستمر لدور المنظمات الدولية، والاعتمادية المتبادلة، و انتشار الديموقراطية والقيم الليبرالية،وتعاظم لدور منظمات االمجتمع المدني في العالم.

النظرية الراديكالية (العالمية)

نحن نعرف أن الراديكالية تنطلق من طبيعة النظام الرأسمالي العالمي المؤطر بين من يملك ومن لا يملك، وأن هناك آلية للهيمنة والاستغلال من قبل الطبقات البرجوازية للطبقات الفقيرة. وعلى الصعيد العالمي الدول الصناعية الغنية تستغل الدول في الأطراف، و تبقيها في فلك التبعية. كذلك ينظر أتباع العالمية إلى أن التغيير في النظام الرأسمالي محبب جداً، ولكنه من الصعب جداً أيضاً. قد يتغير أوضاع وأدوار اللاعبين في النظام الرأسمالي، ولكن البنية والطبيعة ستبقى، و من الصعب الانتقال إلى مرحلة ما بعد النظام الرأسمالي. فالنظام الحالي سيبقى بقيادة دول رأسمالية إما الولايات المتحدة أو الصين أو دول أخرى مجتمعة. حتى لو مر النظام الرأسمالي بأزمات قوية يستطيع النظام الاستمرارية بما فيه من مقومات القوة، وامتصاص الأزمات. هذه فقط طريقة للتفكير ، واستخدام النظريات، طبعاً يمكنك التوسع و معالجة كل الحقائق، وتوظيفها للتنبؤ بمستقبل النظام الدولي.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University